الألف كتاب
الثاني
٢٠١

رحلات ماركو بولو

الجزء الأول

ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رحلات ماركو بولو

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

لمياء محرم

مكتبة
شيخ المترجمين
عبد العزيز توفيق جاويد

رحلات ماركوبولو

الجزء الأول

ترجمها إلى الإنجليزية
وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية
عبد العزيز جاويد

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٥

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

مقدمة الطبعة العربية الثانية

الرحلة من أجمل المتعات ، فيها يستمتع الجسم بالحركة والعين بالمناظر الجديدة جميلها وخبيثها والعقل بالخبرة والمعرفة والمشاهدة ، فان لم تتيسر الرحلة ففى كتب الرحالين متعة أى متعة ولكنها تحمل أرج الماضى ورفيف مالا يمكن مشاهدته ان كان قديما ، ومالا يتيسر الالمام به ان كان بعيدا . من هنا أقبل الناس على الرحلات عملا وقراءة ، فالسعادة فى الحالين واحدة ، وما أعظم العرب وأوسع عقلياتهم حين أقبل ابن جبير وابن بطوطة يسرحان فى الدنيا ويدونان ما يشاهدان من أنماط الأخلاق المعجبة وغرائب العادات غير المألوفة وأنواع السلوك وطرائق الحياة والأطعمة والملبس ! كانوا رجالا بلغوا من توقد الذكاء الغاية والنهاية ومن دقة الملاحظة ما لا حد له ولا نزال نطالعهم بين القدماء ونترقب كل حديث من صفوفهم مثل محمد ثابت وأنيس منصور فنلتهم ما سطروه التهاما .

وماركو بولو يأخذ بأعنة جيادنا فى قرون المغول الأولى ، ويتولج بنا فى أرض الروم والروس والترك حتى يدق أبواب الصين . وهناك يدخل على الامبراطور ولا يزال واقفا بين يديه يلهينا بأفانين سحره وحسن تصويره ، فهو الفاتح الثقافى للصين أمام عقليتنا المتوثبة المتعطشة لكل

جديد . ان ماركو بولو هو فاتح بلاد الصين وليست البارجة الأوروبية ، لأنه على عكس الاستعمار أدخلنا دخلة حميدة ، وأنزلنا بين ظهراني الشعب نؤاكله ونعايشه ونماشيه ، وأجلسنا الى جوار الامبراطور وفي قصره الفاخر وسرادقه الضخم المترامي المصنوع من الفراء الثمين . يالها معرفة حميمة وصداقة وثيقة وأخوة في الانسانية والحضارة والمدنية ! .

لقد منح المرحوم الأستاذ صلاح عبد الصبور (رئيس هيئة الكتاب الأسبق) العربية منحة جميلة حين كلفني بنقل هذا الكتاب الى العربية ، وتجاوز فيه كل الروتين المتحجر ، فلا فاحص لفحص صلاحية الكتاب للترجمة ، حيث قال رحمه الله وهو المثقف القدير حين عرضت عليه ترجمة الكتاب وعجبت أنه لم يحله الى فاحص : « وهل يحتاج ماركو بولو الى فاحص ؟! » .

ومن المعلوم أن ماركو بولو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤) رحالة بندقي ، ولد من عائلة نبيلة ، وكان والده وعمه غائبين ساعة مولده في مهمة تجارية في بلاد الصين ، حيث طلب منهما قوبلاي خان العودة اليه . فعادا اليه ١٢٧١ آخذين معهما ماركو فسافرا بطريق الموصل ، بغداد ، وخراسان والبامير ، وكشغر ويرقند وخوشان ولوبنور وصحراء جوبي وتانجوت وشانجتو ، وبلغوا بلاط الخان في ١٢٧٥ ، وأرسل الخان ماركو مبعوثا الى يوشان ، وبورما وقره قورم وكوشين صين والهند ، وظل ثلاث سنوات يعمل حاكما ليانجتشو . وأخيرا غادرت الأسرة بلاد الصين في حاشية أميرة مغولية ، وعادوا بطريق سومطرة والهند وفارس الى البندقية وبلغوها في ١٢٩٥ . وأصبح ماركو في ١٢٩٨ ربانا لسفينة في الأسطول الموجه على جنوا ، وأخذ أسيرا بعد هزيمة البندقية في جورزولا . وبينما هو في أسره أملى بياناتا عن أسفاره على روستيكياتو من بيزا ، وترجم هذا العمل الى لغات كثيرة

ونشره فى انجلترا مارسدن (١٨١٨) و ت ٠ رايت (١٨٣٤) و ٠ موارى (١٨٤٤) والسير يول (١٨٧١) ثم راجعه وزاد فيه كورديار (١٩٠٣) ، كما راجعه مارسدن لمكتبة افريمان ٠

وقد أسعدنى حقا أن تعيد هيئة الكتاب طبع هذا الكتاب الذى أترك للقارىء الحكم على قدره بعد مطالعته اياه ٠

عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجـــديدة

نوفمبر ١٩٩٤

مقـــــدمة

ولد ماركو بولو ، موضـــوع هــذه المذكرات ، بمدينــة البندقية (فينيسيا) فى عام ١٩٥٤ • وكان ابنا لنيقولو بولو، وهو من أبناء العائلات النبيلة بتلك المدينة ، وكان شريكا بأحد البيوت التجارية ، المشتغلة بالتجارة مع القسطنطينية • وفى عام ١٢٦٠ خرج نيقولو بولو هذا بصحبة شريكه الأصغر وهو شقيقه مافيو ، وعبر البوكسين (البحر الأســود) فى مغامرة تجارية الى بلاد القرم •

فتكللت مغامرتهما بالنجاح ، ولكنهما لم يتمكنا من العودة الى قاعدتهما بسبب نشوب حرب أشبها التتار على الطــريق الذى جاءا منه ، ونظرا لأنهما لم يستطيعا العودة مضيا الى الأمام ، مجتازين الصحراء المؤدية الى بخارى فأقاما بها ثلاث سنوات • وفى نهاية الســنة الثــالثة (وهى الخامســة فى رحلتهما) ــ أشار عليهما بعضهم بزيارة الخان الأعظم قبلاى، « وهو قبلاى خان » الذى ورد اسمه فى قصيدة كولريدج • وكان فريق من مبعوثى الخان الأعظم على وشك العودة الى كاثاى ، ومن ثم انضم الشقيقان الى تلك الجمــاعة ، فسارا قدما فى رحلتهما « شمالا ثم شمالا بشرق » أمد عام كامل ، قبل الوصول الى بلاط الخان بمدينة كاثاى وأحسن الخــان استقبالهما ووجه اليهما أسئلة كثيرة عن الحياة فى أوروبا ، وبخاصة عن الأباطرة والبابا والكنيسة و « جميع ما يجرى فى روما » • ثم أرسلهما الخان بعد ذلك الى أوروبا فى سفارة الى البابا ، ليطلبا من قداســته مائة « مبشر ليــدخلوا أهل كاثاى فى دين المسيحية » • كما طلب كذلك شيئا من الزيت

المقدس من قنديل الناووس المقدس • واستغرقت رحلة عودة الشقيقين (من كاثاى الى عكا) ثلاث سنوات • وعند وصول الرحالتين الى عكا تبينا أن البابا قد مات • فقررا بناء على ذلك العودة الى وطنيهما البندقية ، لكى ينتظرا هناك حتى يتم انتخاب البابا الجديد فوصلا الى البندقية فى ١٢٦٩ ، ليجدا أن زوجة نيقولو توفيت أثناء غيبة زوجها وكان ابنه ماركو — رحالتنا — يناهز آنذاك الخامسة عشرة ولعله أمضى طفولته بمنزل أحد أخواله بالبندقية •

أقام نيقولو ومافيو بولو بالبندقية حولين كاملين ، ينتظران أن ينتخب للكنيسة بابا • ولكن لما لم تبد أية بارقة لذلك ، عولا على العودة الى الخان الأعظم ليخبراه — وقد أعذرا — كيف أن بعثتهما أخفقت فانطلقا تبعا لذلك ثانية (فى ١٢٧١) وفى صحبتهما ماركو ، وقد بلغ آنذاك السابعة عشرة • وحصلا فى عكا على خطاب من مندوب بابوى يوضح كيف حدث أن الرسالة لم يتهيأ لها أن تسلم • وحصلا فعلا على بعض من الزيت المقدس ، وبذا صار فى امكانهما المضى فى رحلتهما • ولكنهما لم يكادا يمضيان غير بعيد فى رحلتهما حتى استدعاهما الى عكا ثانية المندوب البابوى السورى سالف الذكر ، الذى سمع من فوره أنه انتخب بابا • على أن البابا الجديد لم يرسل مائة من المرسلين (المبشرين) كما طلب قبلاى ، بل عين بدلا من ذلك راهبين من الوعاظ وصحبا آل بولو حتى أرمينية ، حيث سمعا بشائعات عن الحرب فمادا أدراجهما فرقا وواصل آل بولو رحلتهم مدة ثلاث سنوات ونصف ، حتى بلغوا بلاط الخان (من شانجتو ، غير بعيد من بيكين) — فى منتصف عام ١٢٧٥ واستقبلهم الخان « بالتكريم والتلطف » وبالغ فى الحفاوة بماركو ، الذى كان آنذاك « شابا فتيا » ولم يمض زمن طويل تعلم فيه ماركو لغة التتار وعاداتهم حتى استخدمه الخان فى الوظائف العامة ، حيث أرسله مديرا زائرا لعدة ولايات

همجية نائية ولاحظ ماركو ببالغ العناية العادات العجيبة لتلك الولايات ، وأبهج صدر الخان بما رواه له عنها • ولعل ماركو زار في احدى تلكم الرحلات بعض الولايات الجنوبية ببلاد الهند • وبعد انقضاء ما يقرب من سبعة عشر عاما قضوها مكرمين في خدمة قبلاى ، أخذ الحنين الى العودة الى البندقية يغالب البنادقة الثلاثة •

فلقد صاروا من الأثرياء ، وأصبح قبلاى شيخا هرما ، وكانوا يدركون ان وفاة قبلاى ، ربما أدت الى حرمانهم من جميع تلك المساعدات العامة التى كانوا يتوقعون بها وحدها التغلب على مالا حصر له من الصعوبات التي ستواجههم في أثناء رحلة العودة الطويلة • بيد أن قبلاى أبى أن يسمح لهم بمغادرة البلاط ، بل لقد « بدا عليه الاستياء من ذلك الطلب » • على أنه تصادف فى ذلك الحين أن أرغون خان فارس أرسل سفراءه الى قبلاى ليخطبوا له احدى الفتيات « من بين أقرباء زوجته المتوفاة ، وكانت الفتاة ، وهي غانية بارعة الجمال في السابعة عشرة من عمرها ، على وشك مرافقة السفراء الى بلاد فارس ، ولكن الطرق البرية العادية الى فارس كانت محفوفة بالمخاطر ، بسبب بعض الحروب الناشئة بين التتار • ولذا صار من الضرورى لها أن تسافر الى فارس بطريق البحر • والتمس المبعوثون من قبلاى أن يأذن للبنادقة الثلاثة بمرافقتهم فى السفن •• بوصفهم أشخاصا ذوى مهارة كبيرة فى فنون الملاحة » • وقبل قبلاى التماسهم ، وان عن غير كبير ارتياح • فجهز أسطولا فاخرا من السفن ، وأرسل البنادقة الثلاثة مع الفرس ، بعد أن منحهم أولا ، اللوحة الذهبية أو ضمان سلامة المرور ، وهى التى تمكنهم من التزود بما يلزمهم أثناء الطريق • فأبحروا من احدى المرافىء الصينية فى أوائل عام ١٢٩٢ •

واستغرقت الرحلة الى فارس زهاء السنتين ، خسرت الحملة اثناءهما ستمائة رجل • فلما ان وصلوا الى فارس وجدوا الخان قد مات ولذا ، سلمت الغادة الحسناء الى ابنه فتلقاها بقبول حسن • ومنح البنادقة ضمان سلامة المرور في بلاد فارس ، بل الحق انه ارسلهم في طريقهم بصحبة جند من الراكبة ، ما كانوا ليستطيعوا عبور تلك البلاد بدونهم أثناء الأيام المضطربة • وبينما هم سائرون بمطاياهم في طريقهم ، سمعوا ان مولاهم قبلاى الشيخ لقى منيته • وما لبثوا حتى وصلوا الى البندقية سالمين في وقت ما من عام ١٢٩٥ •

وتروى عن وصولهم الى وطنهم بعض أقاصيص عجيبة ، اذ يقال ان أقاربهم لم يعرفوهم ، ولا غرابة في ذلك ، اذ انهم عادوا في ثياب تترية رثة وهم لا يكادون يستطيعون التحدث بلغتهم الأصلية • ولم يقرر أقرباؤهم الاعتراف بهم الا بعد أن فتقوا الخياطة في ملابسهم الرثة كاشفين بذلك عما يخبئونه من جواهر في بطائنها • (وفي امكان من يشكون في صحة هذه الحكاية كتاريخ أن يقرءوها على انها قصة رمزية) غير أن ماركو بولو لم يطل الاقامة بين أهله وأقربائه • وكانت البندقية في حرب مع جنوة ولما كانت أسرة بولو من الأسر الغنية فقد طلب اليها اعداد سفينة للقتال ، وكان ذلك حتى قبل عودة الرحالة من الأقطار الأسيوية ، وأقلع ماركو بولو بهذه السفينة قائدا وربانا ضمن الأسطول الذى خرج بقيادة أندريا واندولو ، الذى هزمه الجنويون قبالة كرزولا في السابع من سبتمبر ١٢٩٦ ، وحمل ماركو بولو أسيرا الى جنوة ، حيث بقي بها رغم الجهود التي بذلت لافتدائه ، لمدة ثلاث سنوات تقريبا ويرجح أنه أملى أثناءها كتابه بلغة فرنسية ركيكة جدا على شخص اسمه رستكيان من بيترا ، وهو رفيق له في السجن • ثم عاد الى البندقية

في خلال عام ١٢٩٩ ، والأرجح أنه تزوج بعد ذلك بمدة قصيرة •

ولا يعرف الا القليل من حياته بعد عودته من السجن • غير انا نعرف ان القوم اطلقوا عليه كنية « المليونى » لكثرة ما كان يرويه من حكايات مدهشة عن أبهة قبلاى وفخامته • ولكن نظرا لثرائه وذيوع صيته ، فان تلك الكنية المنطوية على الاستخفاف ربما كانت تنطوى على المجاملة الى حد ما • وقد اكتشف الكولونيل بولى المحرر الكبير لكتاب ماركو بولو انه قام بكفالة أحد مهربي الخمور ، وأنه أعطى نسخة من كتابه لنبيل فرنسي ، وأنه قاضي وكيلا بالعمولة (قومونسيونجى) على نصف الأرباح في صفقة مقدار من المسك • وظن بعض الناس حينا من الدهر أنه هو نفسه ماركو بولو الذى قصر فى (١٣٠٢) فى تكليف سباك (سمكرى) المدينة بتفقد أنبوبة المياه التى لديه • فقد نقل وزر هذه الخطيئة فى الآونة الأخيرة الى رجل آخر يحمل نفس الاسم ، وهو رجل « كان يجهل الأمر الصادر بشأن ذلك الموضوع » • وفى اليوم التاسع من يناير ١٣٢٤ ، كتب وصيته وقد شعر بأنه يزداد كل يوم ضعفا ، ولا تزال وصيته هذه باقية الى اليوم • فجعل الوصاية على تركته في زوجته دوناتا وبناته الثلاث اللواتى ترك لهن الشطر الأعظم من أملاكه • ولم يلبث أن مات بعد قليل من انجاز هذه الوصية • ودفن بالبندقية خارج باب كنيسة سان لورنزو ، وان كان الموضع المضبوط للقبر غير معروف • ولا نعرف للرجل صورة يقطع بصحتها ، ولكنه ، شأن كولمبس ، توجد له صور كثيرة من نسج الخيال ، يرجع تاريخ أحسنها الى القرن السابع عشر •

ولم يقابل كتاب ماركو بولو بالتصديق من معاصريه • فان الرحالة الذين يشاهدون العجائب ، حتى فى أيامنا هذه (ولا شك أن اسم بروس مكتشف النيل الأزرق سيخطر على كل بال) فلما صدق حكاياتهم ، أولئك الذين أتيح لهم بعد

أن يقوا في عقر دارهم ، الحصول على جميع نتـائج ثمـار فضلهم • فعندما عاد ماركو بولو من الشرق ، وهـو ديار مجهولة تغشاها سحائب الابهام وتمتلىء بالفخامة وصـنوف الرعب ، لم يستطع أن يبوح بالحقيقة كلهـا ، فاضطر ان يروى قصته باقتضاب خشية ألا يجـد من يصـدقه • ولقي كتابه بين الناس في الشطر الأخير من العصـور الوسـطى رواجا أقل من ترهات وخزعبلات السير جون ماندفيل • ذلك أن ماركو بولو انما يتحدث عما رأى ، فأما جامع حـكايات ماندفيل فانه عنـدما لا يسرق مبـاشرة من بليني والراهب أودوريك وغيرهما ، يتحدث عما قد يتوقع شخص جاهل أن يراه ، وما يحب على كل حال أن يقرأ عنه ، وذلك أنه مما يسعد الناس دائما أن يقرهم الغير على رأى يرونه ، مهما ضعف أساس ذلك الرأى • وأكبر شاهد على ضآلة ما لقيـه ماركو بولو من تصديق ، أن خريطة آسـيا لم تعـدل نتيجة لكتشفاته الا بعد خمسين عاما من وفاته •

وكتابه من أعظم كتب الأسفار • فانه حتى في هـذه الأيام ، وقد انقضت عليـه أكثر من سـتة قرون ، لا يزال المرجع الرئيسى الثقة فيما يتعلق بأجزاء من آسيا الوسـطى والامبراطورية الصينيةالمترامية الأطراف • أجل، من العسير في بعض الأحيان تتبع بعض تجولاته ، كما أن من الصعب التعرف على بعض الأماكن التى زارها ، وان أدت جهـود الكولونيل بول الى ايضـاح معظم الصعوبات وتأكيـد معظم البيانات العجيبة التي وردت به • وسيظل كتاب ماركو بولو بالغ الروعة عظيم القيمة لدى كل من الجغرافى والمـؤرخ والباحث في الحياة الآسيوية على السواء ــ فأما عند القارىء العام فان السحر الأكبر للكتاب يكمن في طابعه الرومانسى •

ويعد التجوال بين الغرباء وتناول خبزهم وطعامهم الى جوار نيران المخيمات في النصف الآخر من العالم من الأمور الرومانسية • فان فعل ذلك ينطوى على الطابع الرومانسي ــ

وان بالغ فى تقدير الرومانسية من خلقت فيهم حياتهم الراكدة تذوقا وميلا كاذبا للفعالية والحركة • وقد جاس ماركو بولو خلال ديار قوم غرباء ، ولكن الباب مفتوح أمام أى امرىء « أوتي الشجاعة والقدرة على الحركة » أن يحذو حذوه • والتجوال فى حد ذاته ، ان هو الا ضرب من الاستمتاع الذاتى فان هو لم يضف شيئا الى مخزون المعرفة البشرية ، أو ان هو لم يهيىء لآخرين أن يمتلكوا بأخيلتهم بعض أجزاء من العالم ، فانه يكون عندئذ عادة ضارة ، ذلك أن اختيار المعرفة ـ أى تكديس الحقائق والوقائع لا يكون انجازا نبيلا الا عند تلك القلة التى تملك تلك « الكيمياء » التي تحـول مثـل ذلك الصلصال اللازب الى ذهب سماوى سرمدى • وربما ظن بعض الناس أن الكثير من الرحالة منحوا قراءهم ممتلكات خيالية ضخمة ، ولكن الممتلكات الخيالية لا تقاس بالأميال والفراسخ ، كما أن سكان ذلك القطر لا يكتبون بيانات عما لديهم من البهائم والطير ، اذ أن الرحالة العجيب هو وحده الذى يبصر الشىء العجيب ، كما أنه لم يبصر العجـائب فى تاريخ العالم كله الا خمسـة رحالة فقط ـ فأما من عداهم فقد أبصروا الطير والبهائم والأنهار والقفار ـ فأما الرحالة الخمسة فهم : هيرودوت (أبو التاريخ) وجاسيار وملكيور ـ وبالتازار وماركو بولو نفسه • ووجه العجب فى ماركو بولو هو هذا : أنه خلق آسيا خلقا للعقل الأربى •

* وعندما ذهب ماركو بولو الى الشرق كانت آسيا الوسطى بأكملها وهى الشديدة الامتلاء بالأبهة والفخامة ، والبالغة العجيج بما حوت من أمم وملوك ، أشـبه شىء بحلم يطيف بعقول الناس • فلم يكن الأوربيون يمسون الا حافة الشرق وحدها • فهناك فى عكا وفى بيزنطة وفى المدن المنهمكة فى العمل على البحر الأسود ـ كان تجار أوربا يقايضون الأجنبى الغريب على أفانين الحرير والجوهر والبلاسم الثمينة التى

تحمل عبر الصحراء بتكاليف باهظة على ظهور القوافل من أرض المجهول ، وكان تصور الناس عامة للشرق يستقى من الكتاب المقدس ، ومما يرويه الصليبيون الشيوخ من حكايات، ومن كتب التجار • وكل ما كان الناس يعرفونه عن الشرق هو أنه غامض خفي وأن الرب(يعني السيدالمسيح) ولد فيه • أما ماركو بولو الذى يكاد يكون أول أوربى شاهد الشرق ، فقد شهده بكل ما حوى من عجب ، وبدرجة أوفى وأكمل من أى رجل آخر شاهده حتى يومنا هذا • والصورة التى وضعها لنا عن الشرق هي نفس الصورة التي نكونها فى عقولنا عندما نكرر بأفواهنا كلمتى « بلاد الشرق » ونستسلم تماما للصورة الخيالية التي يستثيرها ذلك الرمز • وربما يحدث ذات يوم — أن العقل الغربى سيعاود الرجوع الى ماركو بولو للتعرف على صورة آسيا بعد أن تتأمرك كاثاى بزمن طويل•

ومن العسير أن يقرأ المرء ماركو بولو كما يقرأ الوقائع التاريخية ، اذ الحق أن الانسان يقرؤه قراءته للقصص الرومانسى ، أى كما يقرأ مثلا قصة أمسية القديس مرقس — أو قصة « البئر عند نهاية العالم » فالشرق الذى يكتب عنه هو شرق قصص الرومانسى وليس شرق « الهندى المتجلنز » — بما له من مصيف في سملا ومن بعثات الى التبت ومن برقيات « لرويتر » • ففي « شرق » القصص الرومانسى تنمو شجرة « الشمس أو الشجرة الجافة » — التى مر بها ماركو بولو ، وهى ضرب من الصوى أو علامات الطريق عند نهاية الصحراء المترامية وينمو على تلك الشجرة تفاح الشمس والقمر ، وفى ظلها اقتتل دارا والاسكندر وتلك هى الوقائع المهمة عن تلك الشجرة فيما يروى ماركو بولو ونحن المحدثين ، الذين لا يهتمون بأية شجرة بمجرد أن يتمكنوا من التمتمة باسمها اللاتينى ، قد فقدنا كل عجب حين ضاع ايماننا •

وقد كان العصر الوسيط ، كداب عصرنا هذا تماما ، حافلا بالحديث عن الفردوس الارضى • وربما كان كل الفرق اننا تقدمنا ، بحيث اصبحنا نتكلم عنه كامكان اجتماعى ، بدلا من اعتباره حقيقة جغرافية • ويحلو لنا ان نظن أن البنادقة القدماء انطلقوا شرقا فى رحلتهم الشهيرة وهم لا يكادون يصدقون أنهم سيبلغونه ، مثلما فعل كولمبس (بعد ذلك بقرنين) حيث لم يكد يتوقع أن يشهد أرضا «تتوهج فيها الأزهار الذهبية على أشجارها الى أبد الآبدين» • والحق أنهم لم يجدوا الفردوس الأرضى ، ولكنهم رأوا أبهات قبلاى وهو من أغنى ملوك الأرض بآسيا ، وان المرء ليحس بوجود قبلاى فى القصة من أولها لآخرها ، مثلها أن النبيذ الأحمر اذ يصب فى كأس من الماء ــ يمتزج به وينتشر فيه أو مثلما ان السمط يشد الجواهر فى قلادة ولن يكون الخيال صحيا الا متى تفكر المرء فى الملكى أو القدسى من الأشياء • وسيجد القارىء فى قبلاى من الروعة القدر الكافى لملء معبد عقله بالمجد الشامخ واذن ، فنحن فيما نفكر فى ماركو بولو ، فاننا فى الواقع انما نفكر فى قبلاى ، وبغض النظر عن العجيب الرومانتيكى الذى يحيط به ، فانه شخصية نبيلة ، جديرة منا بالتأمل • فهو أشبه شىء بأحد ملوك القصص الرومانسى وكان ابداع صورته على ذلك النحو فى هذا الكتاب واجبا محتما حقا ومما يملؤنا بالفخر والتوقير لتلك الموهبة الشعرية أن نتفكر كيف أن هذا الملك ــ « ملك الملوك » ، وحاكم العدد الموفور من المدن ــ والعدد الموفور من البساتين ، والوفرة الكثيرة من برك السمك ما كان ليصبح الا اسما أجوف أو خيالا تغطيه الرمال ، لو لم يستقبل بترحاب رحالين تعلوهما الوعثاء ، وفدا عليه ذات صباح من غياهب المجهول ، بعد تجوال طال فى أقطار الأرض • ولعله دار بخلده وهو يودعهما (نفس الفكرة التى دارت بخلد ذلك الملك الذى تذكره القصيدة من أنه ربما

جاء وقت لا يتذكره الناس « الا بهذا الشيء وحده دون غيره ».
بعد أن يتجرد من كل أمجاده ويرقد صامتا وقد تغطى وجهه
بالقناع الذهبى فى ظلمة القبر الساجى ـ عنـــدما خفق
المصباح الذى طالما ظل مضيئا خفقته الأخيرة ثم انطفأ ومات
وأضحى رمادا •

ديسمبر ١٩٠٧

جـون ميســفيلد

التعريف بطبعات الكتاب

أملى ماركو بولو ـ وهو فى الأسر ـ قصة رحلاته على زميل له في السجن استنسخت مخطوطاته على يد أفراد آخرين مع اختلافات كثيرة ، ولا تزال باقية لدينا الى اليوم حوالى مائة نسخة من الرحلات تختلف لغة ما بين فرنسية وايطالية ولاتينية وليس بينها اثنتان متفقتان بالضبط . وصدرت الطبعة المبكرة لأول محرر لأعمال ماركو بولو وهو راموسيو ـ في سنة ١٥٥٩ ـ وقام مارسدن بترجمة انجليزية لهذه الطبعة الايطالية فى سنة ١٨١٨ ، وقال الكولونيل السير هنرى بول ـ الذى صار فيما بعد خبيرا متخصصا فى « ماركو بولو » وهو الذى يشير اليه المستر جون ميسفيلد فى مقدمته، في التمهيد الأول الذى صدر به عمله : ـ « لقد ظلت نسخة مارسدن النسخة المثالية السليمة المترجمة .. فهى والحق يقال عمل رجل حصيف واسع العلم سليم التفكير » .. وفى ١٨٥٤ أعد توماس رايت اصدارة اعتمدت على ترجمة مارسدن خصيصا لمكتبة بون ، بها فصول اضافية ، واختصار للهوامش الأصلية ، وهذه الطبعة الصادرة فى مكتبة افرى مان انما هى اعادة طبق الأصل لطبعة مكتبة بون ـ وقال رايت فى ثنايا مقدمته ما نصه : « ان هوامش مارسدن مطولة الى حد ما » ، « كما أن شطرا طيبا منها لا يتكون الا من تكرارات لبيانات واسناد تؤيد امكان تصديق ما أورده ماركو بولو . ولما كانت هذه المسألة مفهومة الآن بصورة أعم منها فى عهد مارسدن ، لم تعد لهذه التأييدات أية

ضرورة الآن • ومع هـذا فاننى عندما قمت بمقابلة هـذه الترجمة على الطبعات الجديدة للنص (فى لغات مختلفة) ، وجدت أن من المرغوب فيه تنقيحها تنقيحا عاما •• ومن ثم فان الفصول الاضافية مترجمة عن النص الفرنسى القديم» •
وصدرت ترجمة بول لأول مرة فى مجلدين فى ١٩٧١ حاوية لهوامش وصور : كمـا صـدرت الطبعة الثانية المنقحة فى ١٨٧٥ وصدرت الثالثة بتنقيح هنرى كورديار فى ١٩٥٣ ، ثم صدر مجلد آخر الهوامش فى سنة ١٩٢٠ من عمل هنرى كورديار •

مارس ١٩٤٥

وصف الرحلات

لم يكن البولوان الكبيران جنويان عندما غادرا القسطنطينية في ١٢٦٠ ، تجاوز الحدود الشمالية للبحر الأسود كثيرا ـ فنزلا أولا بثغر صولدايا « ببلاد القرم » وكانت عند ذاك مدينة تجارية مهمة ـ ومن صولدايا سارا شمالا وشمالا شرقيا بشرق الى ساره ـ أو سارا ، وهي مدينة ضخمة على نهر الفولجا كان يقيم بها الملوك كامبوسكان ـ ثم الي بولجارا أو بول فار التي أقاما بها قرابة السنة ٠

حتى اذا سارا جنوبا لمسافة قصيرة الى بوكاكا وهى مدينة أخرى على الفولجا ، رحلا الى الجنوب الشرقي رأسا ، عبر الطرف الشمالى لبحر قزوين ، في مسيرتهم الى بخارى التي دامت ستين يوما ، وفيها أقاما ثلاث سنين ومن بخارى انطلقا مع رجال الخان الأعظم شمالا الى مدينة أوترار ، ثم مضيا عنها في اتجاه شمالى شرقي الى بلاد الخان قرب بكين ـ وفي رحلة العودة ، بلغا ساحل البحر عند لياس بأرمينية ٠ ومن لياس ذهبا الى عكا ، ومنها الى نيجردبونت برومانيا ، ومن نيجردبونت الى البندقية ، التى مكثا بها قرابة السنتين٠

وفي المرحلة الثانية الى الشرق ، التي صحبهما فيها ماركو بولو الصغير ، أبحرا رأسا من البندقية الى عكا قرب نهاية عام ١٢٧١ ٠ وقاموا برحلة قصيرة جنوبا الى بيت المقدس ، طلبا للزيت المقدس ، ثم عادوا بعد ذلك الى عكا ، التماسا للخطابات من المندوب البابوى٠ حتى اذا غادروا عكا

تقدموا حتى لياس بأرمينية ، ومن هناك استدعاهم اليه ثانية البابا المنتخب حديثا • وعندما انطلقوا للمرة الثانية عادوا آدراجهم الى لياس ، وكانت في ذلك الحين مدينة عظيمة ــ تباع فيها الأفادية والقماش المقصب ، ويبدأ منها في العادة التجار المتجهون شرقا وشدوا الرحال من لياس شمالا حتى دخلوا تركمانيا ، مارين بقاساريا وسيفاس، حتى أرزنجان ، حيث كان السكان ينسجون قماش البقرم الجاسي اللازم لتجليد الكتب ــ فاذا هم عبروا جبل أرارات الذى يقال ان فلك نوح إستوت عليه ، سمعوا حكايات عن حقول النفط في باكو ومن هنا رحلوا الى الجنوب الشرقى ، في محاذاة نهر دجلة الى بانداس ، ومن بانداس يبدو أنهم قاموا برحلة لا ضرورة لها الى الخليج الفارسي• وهنا يتركنا الكتاب نظن أنهم رحلوا بطريق نورين تبريز (فى العراق الفارسى) فيزد فكرمان الى ثغر هرمز (أرمز) كأنما انتووا ركوب البحر من هناك • على أنهم قد كانوا ليتقدموا أسرع كثيرا لو أنهم اتبعوا طريق الدجلة حتى البصرة ، ولو أنهم ركبوا منها سفينة على الخليج وأقلعوا بطريق كايس أو كيس الى هرمز • وبعد أن زاروا هرمز عادوا الى كرمان بطريق آخر ، ثم مضوا قدما فوق صحراء كرمان المالحة الرهيبة ، مخترقين خراسان الى بالاكشان ويرجح أن رحلتهم توقفت في بالاكشان بسبب مرض ماركو الذى يتحدث عن أنه أقام هناك زهاء السنة يوما ما، لاسترجاع عافيته• وعندما غادروا بالاكشان تقدموا عبر جبال البامير العالية الى قشغر ، ثم فى اتجاه جنوبى شرقى بطريق خوتان ــ ولم تكن دفنت بعد تحت الرمال ــ الى صحراء جوبى • وتشيع عن صحراء جوبى ــ كما تشيع عن الصحراوات جميعا ــ شائعات السوء بأنها « مسكن للأرواح الشريرة التى لا تبرح تلاحق الرحالة باللهو والضحك حتى توردهم موارد التلف» ، وعبر آل بولو صحراء جوبى فى مدة الثلاثين يوما المعتادة ، متوقفين كل

ليلة الى جوار البرك نصف المالحة أو نصف العذبة التي تجعل القيام بالرحلة ممكنا ، وما لبثوا وقد عبروا الصحراء ، حتى دخلوا الصين سريعا • ولعلهم اقاموا في كان شاو ، وهي من أوائل المدن الصينية التي زاروها ، ما يقارب السنة، «بسبب مشاغلهم » ولكن المرجح أن هذه الاقامة حدثت فيما بعد ، وهم في خدمة قبلاى وعندئذ عبروا ولاية شن سي ـ الى ولاية شان سي ـ الى أن وصلوا في النهاية الى كاى ينج فو ، التي أقام بها قبلاى حديقة مسراته الصيفية •

وفي رحلة العودة أقلع آل بولو من مدينة زيتوم بولاية فوكيهن • وسارت السفينة ملازمة للشاطيء الصيني ، (تجنبا لحاجزى براناس وبراسل المرجانيين) ، وعبرت خليج نتكين (تونج كنج) الى تشامبا في جنوب شرق كمبوديا • ولعلهم بعد أن غادروا تشامبا أقاموا ببورنيو اقامة قصيرة ، ولكن الأرجح أنهم أقلعوا رأسا الى جزيرة بنتانج عند قمم مضيق ملقة (ملقا) فالى سومطرة ، حيث تعطل الأسطول خمسة أشهر بسبب هبوب الرياح الموسمية المضادة ، ويبدو أن السفن انتظرت تغير الرياح الموسمية في مرفأ على الشاطيء الشمالى الشرقى لمملكة سومطرة ، حتى اذا واتتهم ريح مروا أمام جزر فيقوباز واندامان ، ثم وجهوا مجرى السفينة سيلان ـ ثم انطلقوا عبر البحر الى ساحل كورومانديل وربما لزموا ساحل بدراس في اتجاههم شمالا حتى ليبانام • وعند ساحل بمباى يبدو أنهم احتضنوا الشاطيء جهد امكانهم حتى مدينة سورات فيما يحتمل، وهى تقع في خليج كامباى، على أنه من المحتمل بالمثل أن تكون أوصاف هذه الأماكن نقلت عن أقاصيص الملاحين ، وأن الأسطول خرج بعيدا في عرض البحر مجابها لجاته تجنبا لقراصنة الشواطيء •

ويطيل ماركو بولو الحديث عن مدينة عدن وعن مدن تقع على سواحل بلاد العرب، ولكن المرجح أن الأسطول لم يرس عليها قط ـ وكل ما نعرفه يقينا هو أنهم وصلوا الى هرمز ،

على الخليج الفارسى ثم توغلوا في داخل البلاد الى خراسان — وعند مغادرتهم خراسان ساروا بها مخترقين بلاد فارس وأرمينية الكبرى ، حتى بلغوا ترابيزون على البحر الأسود (البوكسين) ومن هنالك ركبوا السفن وأقلعوا بحرا الى البندقية وطنهم بعد أن رسوا أولا بالقسطنطينية ثم نجروبونت . «وكان ذلك في عام ١٢٩٥ من تجسد المسيح» .

جون ميسفيلد

تمهيد

أيها الأباطرة والملوك والأدواق والمراكيز واللوردات والفرسان وكل من شاء من الناس معرفة تنوعات الأجناس البشرية ، فضلا عن تنوعات الممالك والولايات والأقاليم بكل أجزاء بلاد الشرق ·· اقرءوا هذا الكتاب من أوله لاخره فستجدون فيه أعظم وأعجب خصائص الشعوب ولا سيما شعوب أرمينية وفارس والهند وبلاد التتار على ما تروى بأشكالها المتعددة فى هذا العمل الذى وضعه ماركو بولو ، وهو مواطن عالم حكيم من البندقية يبين فيه بوضوح ما شاهد بنفسه من أشياء وما سمع من غيره من أشياء ، ذلك أن هذا الكتاب سيكون كتابا رائده الصدق ـ وينبغى أن يعلم اذن أنه منذ خلق آدم الى يومنا هذا ، لم ير انسان وثنيا كان أم مسلما أم مسيحيا أم من أية ملة أخرى ، ومهما يكن جنسه أو جيله ، ولا استعلم عن مثل هذا العدد الضخم وذلك النوع من الأشياء العظيمة ، مثلما رأى واستعلم ماركو بولو سالف الذكر وهو الذى اذ رغب فى دخيلة أفكاره أن الأشياء التى قد رأى وقد سمع تعلن على الملأ بواسطة العمل الحالى من أجل مصلحة أولئك الذين لم يستطيعوا مشاهدتها بأعينهم ـ فانه هو نفسه وقد كان فى عام ١٢٩٥ من أعوام سيدنا (المسيح) سجينا بمدينة جنوة ـ جعل الأشياء التى يحتويها العمل الحالى تكتب على يد السيد/ستيجيبلو ـ وهو مواطن من بيزا ـ كان معه نزيلا بنفس السجن فى جنوة كما أنه قسمه أقساما ثلاثة ·

الفصـــل الأول

قسم ١ ــ ينبغى أن يكون معلوما لدى القارىء انه حدث، فى الوقت الذى كان فيه بالدوين الثـانى امبراطورا عـلى القسطنطينية (١) يوم كان يقيم مأمورا يمثل دوج البندقية بها (٢) وفى عام سيدنا الرب ١٢٥٠ (٣) ، أن اعتلى نيقولو بولو ــ والد ماركو المذكور ، ومعه مافيو شقيق نيقولو ــ وهما رجلان محترمان واسعا المعرفة ، متن سفينة يملكانها ، ومعهما شحنة غنية ومتنوعة من مختلف البضـائع حتى بلغا القسطنطينية سالمين ٠٠

وبعد البحث بتدبر وروية فيما ينبغى عمله رأيا أن خير ما يحتمل أن يعود عليهما بتحسن رأسمالهما ، هو أن يواصلا رحلتهما فى بحر البوكسين أو البحر الأسـود (٤) واقتنعا بهذا الرأى اشتريا كثيرا من الجـواهر البـديعة الغـالية الثمن (٥) حتى اذا غادرا القسـطنطينية ، أبحـرا فى ذلك البحر الى ميناء يسـمى صولدايا ، ومنها سافرا على ظهـور الخيل لمدة عدة أيام حتى بلغا بلاط أمير قوى ببلاد التتـار الغربية اسمه بركة (٦) ٠

وكان يسكن فى مدينتى بلجارا وايارا (٧)، وهو من أشد من عرف بين قبائل التتار حتى آنذاك ٠٠ من الأمراء تحررا وتمـدينا ٠ فأبدى ارتيـاحا كثيرا لوصـول الرحالين ٠٠ واسـتقبلهما بمظاهر الحفـاوة والتـكريم ٠ وفى مقـابل ما غمرهما به من مجـاملة ، فانهما عنـدما وضعا بين يديه الجواهر التى أحضراها معهما وأدركا أن جمالها قد سره ، عرضا عليه قبولها ٠ وملأه ما فى هـذا السلوك من جانب

الأخوين من سماحة وأريحية بالاعجاب ولم يشأ أن يبزاه فى الكرم ـ فلم يكتف بأن يأمر بأن يدفع اليهما ضعف قيمة الجواهر ، بل قدم اليهما فوق ذلك عدة هدايا نفيسة ٠

فلما ان قضى الاخوان سنة كاملة في ديار هذا الأمير ، راودهما الحنين الى زيارة مسقط رأسهما ثانية ، ولكن عاقهما نشوب الحرب فجأة بين أميرها وأمير آخر يسمى آلاءو (Alau) وكان حاكما على التتار الشرقيين (٨) ونشبت بين جيشيهما معركة دموية شرسة ، انتصر فيها آلاءو ، وكانت عاقبة ذلك أن أصبحت الطرق غير مأمونة على الرحالة فلم يستطع الأخوان محاولة العودة بالطريق التى جاءا منها ، وأشار عليهما بعضهم أن الوسيلة العملية الوحيدة للوصول الى القسطنطينية هى المضى أماما فى اتجاه الشرق ، فى طريق غير مطروق ، بحيث يدوران حول ممتلكات بركة وتبعا لذلك ، اتخذا طريقهما الى مدينة تدعى « أوكاكا » (٩) ـ وهى تقع على تخوم مملكة التتار الغربيين ٠ حتى اذا غادرا ذلك المكان وزادا تقدما الى الأمام ، عبرا نهر دجلة (١٠) أحد أنهار الفردوس الأربعة حتى وصلا الى صحراء امتدادها رحلة سبعة عشر يوما (١١) ، فلم يجدا فيها مدينة ولا حصنا ولا أى بناء ذى قيمة ، وكل ما وجداه هو تتار معهم قطعانهم يسكنون خياما فى منبسط الوادى ٠ حتى اذا قطعا هذه الشقة ، بلغا فى النهاية مدينة حسنة البنيان تسمى نجارا (١٢) ، تقع بولاية بهذا الاسم ، وتتبع الممتلكات الفارسية ، كما أنها أجمل مدينة فى تلك المملكة ويحكمها أمير اسمه براق ٠ وهنا عجزا عن التقدم خطوة الى الأمام فألجأهما ذلك الى التريث ثلاث سنوات ٠

وتصادف وهذان الاخوان في نجارا، أن ظهر بها شخص (١٣) له اعتباره ومكانته أوتى مواهب رفيعة وكان يتقدم فى

طريقه كسفير من آلاءو ســالف الذكر الى الخان الأعظـم ، الرئيس الأعلى للتتار جميعا ، والمسمى قبلاى (١٤) والذى يقع مقر حكمه عنـد الطرف الأقصى للقارة فى اتجـاه بين الشمال الشرقى والشرق (١٥) · ولما تصادف أنه لم تتح له من قبل فرصة لقاء أى واحد من سكان ايطاليا ، وان تاق الى ذلك ، فقد سره كثيرا أن يقـابل هـذين الأخوين ويتحـدث اليهما ، خاصة وقد اتقنا آنئذ لغة التتار ، وبعد أن اختلط بهما لمدة عدة أيام — ووجد أخـلاقهما مرضـية له ، اقترح عليهما أن يصحباه ليمثلا بين يدى الخان الأعظم الذى لابد أنه سيسر بظهورهما فى بلاطه ، الذى لم يزره حتى آنذاك أى فرد من بلادهما · مضيفا الى ذلك تأكيـدات من عنـده بأنهما سيلقيان حسن الاستقبال ويكافآن بأحسن الهبات · ونظرا لاقتناعهم التام أن محـاولاتهما العـودة الى بلادهما ستعرضهما لأفدح المخاطر ، فانهما وافقا على هذا الاقتراح واذ سلما نفسيهما لرعاية القوى القاهر ، فانهما انطلقـا فى رحلتهما بين حاشية السفير — يسهر على خـدمتهما عدة خدم مسيحيين أحضراهم معهما من البندقية · وامتد الطريق الذى سلكاه أولا بين الشمال الشرقى والشـمال ، وانقضت سنة كاملة قبل أن يتمكنا من الوصول الى المقر الامبراطورى، وذلك نتيجة للتأخيرات غير العادية التى — نجمت عن الثلوج وفيضان الأنهار ، وهو ما اضطرهما الى الانتظار حتى ذاب الثلج وحتى انخفضت الفيضانات · وقد لحظا أثناء مسيرهما فى رحلتهما أشياء كثيرة جديرة بالاعجاب ، ولكنها حـذفت هنا نظرا لأنهـا سـتوصف بقلم ماركو بولو ، فى سـياق

قسم (٢) : ولما قدم الرحالان الى حضرة الخان الأعظم قبلاى تلقاهما بالتعطف والتنازل والبشاشة التى يتحلى بهـا خلقـه ، ونظـرا لأنهما كانا أول من ظهـر بتلك البلاد من اللاتين ، فقد أقيمت لهما المآدب وشرفا بآيات تكريم أخرى · وانخرط الامبراطور بتعطف فى الحديث معهما فاستفسر

استفسارات جادة حول موضوع القسم الغربي من العالم كما سألهما عن امبراطور الرومان (١٦) وعن غيره من الملـوك والأمراء المسيحيين • وأراد أن يتلقى المعلومات عن المـكانة النسبية لكل منهم وامتداد ممتلكاتهم والطريقة التي يقـام بها ميزان العدل في ممالكهم واماراتهم العـديدة ، وكيف تصرفهم وسلوكهم أثناء الحرب ، وسألهما فوق كل شيء أسئلة تتعلق بوجه خاص بالبابا وشئون الكنيسة وما لدى المسيحيين من العبادات الدينيـة والمـذاهب ، ولما كانا من الحصـفاء الواسعي العلم فانهما قدما اجابات مناسبة حول هذه المسائل جميعا ، ولما كانا يجيدان لغة التتار : (المغول أو المغل) على أحسن وجه ، فانهما كانا يعبران عن نفسيهما دوما بأوفق عبارة ، بحيث ان الخان الأعظم ، وقد وضعهما موضع التقدير الكبير ، كثيرا ما كان يأمر بادخالهما عليه •

حتى اذا حصـل منهما على جميع المعلومات التي قدمهـا اليه الاخوان بعقل راجح لبيب ، عبّر عما يخالجه من الرضى التام ، وبعد أن رسم في خلده خطة استخدامهما سـفيرين له لدى البابا ، بعد استشارة وزرائه في الموضـوع ــ اقترح عليهمـا في رجاء كله تلطف ورقة ــ أن يصـحبا أحد رجاله المدعو خوجاتال في بعثةالى الكرسى البابوى بروما• وأبلغهما أن هدفه من ذلك هو أن يقدم الى قداسته التماسا أن يرسـل اليه فئة من رجال العلم ، أوتوا المعرفة التامة بمبادىءالديانة المسيحية ، فضلا عن الفنون السبعة وتأهلوا بالقدرة على ان يثبتوا لعلماء ممتلكاته بالجدل المقنع والحجة العادلة ، أن العقيدة التي يعتنقها المسيحيون تفوق ، وتقوم على صـدق أوضح من كل عقيدة خلافها ، وأن آلهة التتار والأوثان التي تعبد في منازلهم ان هي الا أرواح شريرة ، وأنهم فضلا عن سكان الشرق جملة ، واقعون تحت تأثير الخطأ بتوقيرهم اياها كآلهة، وعلاوة على هذا فانه أشار الى ما سيخالجه من سرور ان هما عند العودة جلبا معهما من بيت المقدس ، شيئا من الزيت

المقدس من المصباح الذى لا يبرح متقدا على الدوام فوق ناووس السيد يسوع المسيح ، الذى اعترف بأنه يكن له اجلالا وانه يعده (الرب) (١٧) الحق • وما آن سمعا هذه الأوامر تلقى اليهما من فم الخان الأعظم ، حتى خرا ساجدين بخضوع أمامه على الأرض ، معبرين عن تقبلهما عن طيب خاطر واستعدادهما الفورى ، أن ينفذا بأقصى ما يستطيعان الارادة الملكية مهما تكن • وعند ذلك أمر بأن تكتب كتب باسمه باللغة التترية الى بابا روما وسلمهما اياها فى أيديهما وأصدر أوامره أيضا أن يسلما لوحة من الذهب عليها الطغراء (١٨) الامبراطورى ، طبقا للعادة المرعية التى أسسها جلالته ، وبفضلها ينقل الشخص الذى يحملها ـ ومعه حاشيته بأكملها ويحرسون بسلام من محطة بريد الى أخرى بواسطة محافظى (حكام) ـ جميع الأماكن داخل الممتلكات الامبراطورية ، كما يحق لهم أثناء مدة اقامتهم بأية مدينة أو قلعة أو بلدة أو قرية التزود بما يلزمهم من مؤن والحصول على كل ما يوفر لهم أسباب الراحة •

حتى اذا تم تكليفهما بهذا الشرف ، استأذنا الخان الأعظم فى السفر ، وانطلقا فى رحلتهما ولكنهما لم يكادا يتقدمان فى رحلتهما أكثر من عشرين يوما ، حتى أصيب الموظف المسمى خوجاتال رفيق رحلتهما بمرض خطير بالمدينة المسماة آلاو (١٩) وفى هذه الملمة استقر العزم بعد استشارة كل من حضر وبموافقة الرجل نفسه ، على وجوب تركهما له ، وبمواصلتهما رحلتهما أفادا فائدة جوهرية من تزودهما باللوحة الملكية ، التى وجهت اليهما الاهتمام فى كل مكان مرا فيه •

ودفعت عنهما جميع نفقاتهما وزودا بالحراس • على أنه رغم هذه المزايا ، فناهيك بضخامة الصعوبات التى اضطرا الى ملاقاتها ، بسبب البرد القارس والثلج والجليد وفيضان الأنهار ، بحيث أن أصبح تقدمهما مضجرا لا محالة ،

وانقضت سنوات ثلاث قبل أن يتمكنا من بلوغ مرفأ على البحر في آرمينيا الصغرى يسمى لاياسوس (٢٠) ـ ورحلا من هناك بحرا ، فوصلا الى عكا (٢١) في شهر أبريل ١٢٦٩ وهناك علما ببالغ الكدر ـ ان البابا كلمنت الرابع توفي من زمن قريب (٢٢) • وكان يقيم في عكا (٢٣) قاصد رسولي (مندوب بابوى) عينه البابا اسمه تيبالدو ده فسكونتي وفي بياتشنزا ، فأبلغاه بالأمر الذى يحملانه من الخان الأعظم لبلاد التتار فنصحهما بكافة الوسائل بالانتظار حتى يتم انتخاب بابا ثان ، حتى اذا تم ذلك ، واصلا القيام بسفارتهما • فوافقا على هذه المشورة ـ وعولا على الاستفادة من فترة الانتظار بالقيام بزيارة لأسرتيهما في البندقية • وبناء على ذلك ركبا من عكا سفينة متجهة الى نجروبونت ، ومنها واصلا السفر الى البندقية وهناك وجد نيقولو بولو أن زوجته التى تركها حبلى عند رحيله ، قد ماتت ، بعد أن وضعت له ابنا اسمه « ماركو » وبلغ عمره الآن تسعة عشر عاما (٢٤) وذلك هو ماركو الذى وضع الكتاب الحالى والذى سيروى فيه قصة جميع تلك الأمور التى كان لها شاهد عيان •

قسم(٣) وفى الحين نفسه حالت عوائق كثيرة دون انتخاب بابا جديد، حتى لقد اضطرا أن يمكثا سنتين بالبندقية وهما ينتظران علىالدوام اتمام تلكالعملية(٢٥)وعندما ساورهما فى نهاية الأمر خوف من أن يستاء الخان الأعظم من تأخرهما، أو يظن أنهما لا ينويان معاودة زيارة بلاده ، رأيا من الحكمة العودة الى عكا • وفى هذه المرة اصطحبا معهما الصغير ماركو بولو • وقام الثلاثة بزيارة بيت المقدس بموافقة من المندوب البابوى وهناك تزودوا بشىء من الزيت الخاص بقنديل الناووس المقدس • طبقا لتعليمات الخان الأعظم وما كان أن حصلوا على رسائله الموجهة الى ذلك الأمير التى تشهد بما أبدوا من اخلاص فى تنفيذ ما أمرهم به ،

والتى توضح له أن بابا الكنيسة المسيحية لم ينتخب بعد، حتى تقـدموا الى مرفأ لاباسوس أنف الذكر عـلى انهم ما كادوا يرحلون حتى تلقى المنـدوب البابوى رسـلا من ايطاليـا ، أرسلهم مجمع الكرادلة ـ يعلنون اليه ارتقاءه هـو نفسـه للكرسى البابوى • وعندئذ اتخذ اسم جريجورى العاشر(٢٦) ـ واذ رأى أنه أصـبح فى مركز يؤهله تمـاما للاسـتجابة لرغبات العاهل التتارى ، فانه سارع بارسال بعض الرسائل الى ملوك أرمينية (٢٧) ، مبلغا أباه نبأ انتخابه ، وملتمسا ، ان كان السفيران اللذان كانا فى طريقهما الى بلاط الخـان الأعظم لم يبرحا بعد مملكته ، أن يصـدر الأوامر بعودتهما فورا • ووجدتهما هذه الرسائل مقيمين بعـد فى أرمينية ، فعجلا تلبية لدعوته بالعـودة ثانيـة الى عكا ومن أجل ذلك زودهما الملك بغليون مسلح ـ مرسلا فى الحين نفسه سفيرا من قبله لتقديم تهانيه للحبر ذى السيادة ••

وعند وصولهما اسـتقبلهما قداسـته استقبالا ممتازا وبادر بارسالهما توا برسائل بابوية مع راهبين من « هيئـة الوعاظ » ، تصادف وجودهما فى نفس المكان ، وهما رجلان جمعا بين التبحر فى الأدب والعلم فضلا عن التعمق فى اللاهوت وكان اسم أحدهما مزا (الراهب) نيقولودا فينشزا والآخر مرا (الراهب) جيلمـو واتربيول ، فمنحهما الرخصـة والسـلطة لرسـم القسس والأسـاقفة ولمنح النحلة بكامل ما يستطيع هو فعله بشخصه • ثم حملهما أيضا هدايا ثمينة، بينها عدة زهريات بديعة من خالص البلور ، ليقدماها باسمه الى الخان الأعظم ، المكتملة ببركاته • وبعد أن اسـتأذناه ، عادا فسارا بسفينتهما الى ميناء لاباسوس(٢٨) ، حيث نزلا ثم تقدما منها الى اقليم أرمينية وهنـاك علما بأن سـلطان (سلعنان) بابل المسمى بالبندقدارى ، غزا البلاد الأرمينية بجيش عرمرم وانه اجتـاح البـلاد وأحالها خرابا الى حد كبير (٢٩) ـ وداخل الرعب الراهبين لهذه الروايات وخشيا

على حياتهما من المهالك ـ فقررا عدم مواصلة السير ، وسلما للبنادقة الرسائل والهدايا التى حملهما اياها البابا ووضعا نفسيهما تحت حماية عميد فرسان المعبد(٣٠) وعادا معه الى الساحل مباشرة ـ وعبر نيقولو ومافيو وماركو ، وهم الذين لا ترهبهم المخاطر ولا الصعاب (لطول ما تمرسوا بها) ـ حدود ارمينية ، وواصلوا رحلتهم وبعد عبور صحراوات يمتد فيها المسير عدة أيام واجتياز شعاب ضيقة خطرة كثيرة ، تقدموا مليا فى اتجاه بين الشمال ـ الشرقي والشمال ، حتى حصلوا فى النهاية على معلومات عن الخان الأعظم ، الذى جعل مقر حكمة آنذاك بمدينة ضخمة وفخمة تسمي كليمه من فو (٣١) · واستغرقت رحلتهم بكاملها الى هذا المكان مالا يقل عن ثلاث سنوات ونصف السنة ولكن تقدمهم فى أثناء شهور الشتاء لا يكاد يذكر (٣٢) · ولأن الخان الأعظم تلقى اخطارا باقترابهم من بلاده ـ وهم بعد على بعد كبير ـ ولادراكه بمدى ما قاسوه من تعب شديد ، فانه أرسل اليهم من يستقبلهم على مسافة رحيل أربعين يوما ، وأصدر أوامره بأن يعد لهم فى كل مكان يمرون به كل ما يلزم راحتهم فبهذه الوسائل ، وببركات الله عليهم نقلوا فى أمان الى البلاط الملكى ·

قسم (٤) واستقبلهم الخان الأعظم عند وصولهما بكل عطف وتكريم وحوله مجموعة كاملة من كبار القواد والموظفين · حتى اذا اقتربا من شخصه ، قدما اليه احترامهما بان يخرا أمامه على الأرض ساجدين فأمرهما على الفور بالنهوض ، وبأن يقصا عليه الظروف التى أحاطت بهما فى رحلاتهما ، مع جميع ما جرى أثناء مفاوضتهما مع قداسة البابا ـ والى حديثهما الذى روياه بالتسلسل المنتظم للأحداث ، وقدماه بلغة سهلة واضحة ، أصغى الامبراطور فى صمت وانتباه · وعندئذ وضعت بين يديه رسائل البابا جريجورى وهداياه · وعندما قرئت عليه الرسائل ، أنعم بالاطراء الكثير على ولاء سفيريه وحميتهما وشدة جدهما وتلقى بالتوقير الواجب

الزيت المجلوب من القبر المقدس ، ثم أصدر تعليماته بالاحتفاظ به بعناية ملؤها التقوى - وعندما لحظ وجود ماركو بولو واستفسر عمن يكون أجابه نيقولو : « انه خادمك وابني » • وعندها أجاب الخان الأعظم : « مرحبا به ومسرة بمقدمه » وأمر به فضم الى قائمة أتباع الشرف في حاشيته • وأقام لمناسبة عودتهم وليمة كبيرة حفلت بالابتهاجات والتفاريح • ولم يبرح الاخوان المذكوران ومعهما ماركو يلقون ما أقاموا في بلاط الخان الأعظم من التكريم ما يكاد يفوق ما يلقاه رجال بلاطه أنفسهم ، ووضع ماركو موضع الاحترام والتقدير الكبير من كل من ينتسب الى البلاط ، ولم يمض طويل زمن حتى تعلم آداب التتار وأعرافهم وأخذ بها نفسه ، وحذق أربع لغات مختلفة تمكن منها قراءة وكتابة (٣٣) • ولما وجده مولاه صاحب مواهب على هذا النحو رغب في أن يضع مواهبه - بتولى الأعمال - موضع الاختبار ، وبعث به في مهمة هامة للدولة الى مدينة تسمى كارازان (٣٤) ، تقع على بعد رحلة ستة أشهر من المقر الامبراطورى وفى تلك المناسبة تصرف بحكمة وحصافة بالغة في تدبير الشئون التى وكلت اليه بحيث أصبحت خدماته موضع القبول الكبير • وعمد ماركو من جانبه ، وقد أدرك أن الخان كان يجد متعة كبيرة في الاستماع الى كل ما هو طريف حول أعراف الشعوب وعاداتها والالمام بالظروف العجيبة للأقطار النائية الى أن يحاول حيثما ذهب ، الحصول على معلومات صحيحة حول تلك الموضوعات وتدوين الملحوظات حول كل ما رأى وما سمع ، لكي يشبع ما طبع عليه مولاه من حب الاستطلاع • وخلاصة القول أنه تمكن أثناء السنوات السبع عشرة (٣٥) التى قضاها في خدمته من جعل نفسه عظيم النفع ، حتى أصبح يستخدم في مهام سرية تحتاج الى ثقة خاصة بكل أرجاء الامبراطورية وما يتبعها من دول •

وكان في بعض الاحيان يسافر أيضـــا على حسابه الخاص ، ولكن ذلك كان دائما برضـــاء الخـــان الاعظم وباقرار من سلطته ومشيئته ، ففي تلك الظروف أتيحت لماركو بولو فرصة لاكتساب معرفة بأشياء كثيرة لا حصر لهـــا ، اما عن طريق مشاهداته الخاصة أو مما جمعه من الآخرين ، وهى أشياء ظلت حتى زمانه مجهولة ـ عن الاصقاع الشرقية من العالم ، أشياء دونها بقلمه بجد وانتظام ، كمـــا ســيتجلى ذلك فى « سياق » الكتاب وحصل بهـــذه الوســيلة على قدر كبير من التكريم والتشريف أثار غيرة موظفى البلاط الآخرين ·

قسم (٥) الآن وقد أقام هؤلاء البنادقة تلك الســنوات الكثيرة فى البلاط الامبراطورى، وحققوا فى ابان تلك الفترة ثروة طائلة ، قوامها الجواهر النفيسة والذهب الابريز فانهم أحسوا برغبة ملحة فى زيارة وطنهم الأصلى · ومهما يبلغ من اكرامهم وتدليلهم على يد العاهل الأكبر، فان تلك العاطفة كانت متسلطة دواما على عقولهم ثم ازدادت تلك الرغبـــة الحاحا وصارت شغلهم الشاغل ، كلما قلبـــوا الفـــكر حول شيخوخة الخان الأعظم الذى لو حدثت وفاته قبل رحيلهم عن البلاط ، لحرموا من تلك المســاعدة العـامة (الحـــكومية) التى يستطيعون بهـــا وحـــدها التغلب عـــلى ما يقابلهم فى رحلتهم الشديدة الطول من صعوبات لا حصر لها ولا عد ، وأن يبلغوا ديارهم سالمين وهو أمر يحق لهم عقلا أن يؤملوا حدوثه لو تم فى أيام حياته وبفضل مرضاته · وبناء عـــلى هذا انتهز نيقولو بولو فرصة ذات يـــوم وقد لحظ عليـــه انشراحا أكثر من المعتاد ، فانطرح عند قدميه والتمس منه باسمه واسم عائلته أن يحظوا باذن كريم من جلالته بالرحيل· ولكنه بدلا من ابداء الاستعداد لقبول ذلك الملتمس بدا عليه ـ الاستياء من الالتماس ، وسأل عن الدافع الذى يمكن أن يراودهم حتى يرغبوا فى تعريض أنفسهم لجميع المتـــاعب والمخاطر التى سيتعرضون لها فى رحلة قد يفقدون فيهـــا حياتهم قال :

فان كان غرضـــهم الغنم والكسب ، فانه لعلى اســتعداد لاعطائهم ضعف أى قدر امتلكوه ، وأن يغمرهم بالتشريف الى أقصى مدى يرغبونه ولكنه نتيجة للاحترام الذى يكنه لهم ، لابد له من رفض ملتمسهم رفضا باتا ٠

وتصادف أنه ماتت قرب تلك المدة الملكة بولجانا(٣٦)، زوجة أرغون (٣٧) عاهل بلاد الهند ، وعلى سبيل الرغبــة الأخيرة (التي تركتها أيضا بشكل مستند كتابى) ٠ ناشدت زوجها ألا تخلفها أية امرأة أخرى في عرشه وعاطفته لا تكون سليلة من حرائر أسرتها التي كانت تقيم آنذاك في ممتلكات الخان الأعظم(٣٨)، بقطر كاثاى(٣٩)٠ واذ رغب أرغون فى الاستجابة لهذا الرجاء الجاد ، فانه أرسل ثلاثة من أشرافه ، وهم رجال من الحصفاء المتزنين كانت أســماؤهم بولاتيــا وأبوسكا وجوزا (٤٠) ـ تحيط بهم حاشية كثيرة العــدد ، ليكونوا سفراءه الى الخان الأعظم ، مع مناشــدته أن يتلقى على يديه عــذراء تكــون زوجة له من بين أقرباء ملكتـــه المتوفاة ٠ وقوبل الالتماس بقبول حسن ، ووقع الاختيــار تحت اشراف جلالته عــلى آنسة في السابعة عشرة من عمرها بارعة الجمال فائقة التهذيب ٠ اسمها كوجاتين(٤١)، وافق عليهـــا الســـفراء ملء قلوبهم عنــدما عرضــت عليهم ، حتى اذا تمت جميـــع الاســـتعدادات لرحيلهـــم ، وعينت لمصاحبتهم حاشية كبيرة من الأتباع تشريفا للزوجة المقبلة للملك أرغــون تلقوا من الخــان الأعظم وداعا كريمــا ، وخرجوا من رحلة العودة في نفس الطريق التي منها جاءوا على أنهم بعد مسيرة ثمانية أشهر حيل بينهم وبين التقــدم اذ سد الطرق أمامهم ، اندلاع الحروب من جديد بين أفراد التتار (٤٢) ، فأكرهوا على الرغم منهم الى اتخاذ اجراءات العودة الى بلاط الخان الأعظم ، وعرضــوا عليــه المعوقات التي اعترضت سبيلهم ٠٠

وتصادف أن عاد ماركو بولو قرب وقت رجوعهم الى القصر من رحلة قام بها مع بضع سفن تحت امرته ، الى بعض أجزاء الهند الشرقية (٤٣) ، وأبلغ الخان الأعظم ـ الأنباء التى أتى بها فيما يتعلق بالأقطار التى زارها مع تبيان الظروف التى أحاطت برحلته البحرية ، التى قال عنها انها تمت فى تلك البحار بالسلامة التامة · وما كادت هذه الملحوظة الأخيرة تطرق مسامع السفراء الثلاثة ، الذين كانوا فى أشد القلق مدة ثلاث سنوات ـ حتى عقدوا لقاء مع بنادقتنا ، فوجدوهم لا يقلون عنهم رغبة فى العودة لزيارة بلادهم · وتم الاتفاق بينهم أن يلتمس الأولون ومعهم ملكتهم الصغيرة ـ المثول بين يدى الخان الأعظم ـ وأن يعرضوا عليه مدى الراحة والأمن اللذين ستتم فى ظلهما عودتهم بحرا الى مملكة مولاهم وذلك بينما ستكون الرحلة أقل نفقة من الرحلة برا (٤٤) ـ كما تتم فى زمن أقصر · وذلك طبقا لخبرة ماركو بولو ، الذى أبحر فى الآونة الأخيرة بتلك الأرجاء · فلو رأوا من جلالته ميلا الى الموافقة على استخدامهم طريقة الانتقال البحرى تلك ، فان عليهم عندئذ أن يحثوه على السماح للأوربيين الثلاثة بمرافقتهم فى رحلتهم لما هم عليه من مهارة فائقة فى شئون الملاحة ، حتى يصلوا الى ممتلكات الملك أرغون · وبدت على وجه الخان الأعظم عند تلقيه هذا الالتماس علائم الاستياء البالغ وذلك لشدة عزوفه عن الافتراق عن البنادقة · غير أنه قد أحس مع ذلك أنه لا يجمل به الا أن يوافق ولم يسعه الا الاذعان لملتمسهم · ولولا أنه وجد نفسه ملزما بحكم أهمية هذه الحالة الخاصة والحاحها ، لما استطاعوا الحصول منه بأى وجه آخر على الاذن لهم بالانسحاب من خدمته · ومع ذلك فانه أرسل اليهم وخاطبهم فى قدر كبير من الرفق والتنازل، مؤكدا لهم تقديره ومطالبا اياهم بأن يعدوه بالعودة اليه مرة ثانية ، بعد قضاء مدة فى أوروبا والاقامة مع عائلتهم

ردحا من الزمن . وأمر بهم ـ وهذا الهدف أمامه رأى العين ـ فزودوا باللوحة الذهبية (أو النوط الملكى) ـ التى تحمل امره بحصولهم على وسائل الارتحال المجانية وكفالة سلامة الآمن لهم في كل ارجاء ممتلكاته ، وتزويدهم بكل ما يلزمهم من مؤن لأنفسهم وأتباعهم ، ثم أعطاهم بالمثل الحق فى التصرف بصفتهم سفراء لدى البابا ، وملوك فرنسا وأسبانيا وغيرهم من الأمراء المسيحيين (٤٥) .

وفى الحين نفسه ـ أعدت العدة لتجهيز أربع عشرة سفينة ، لكل منها أربع ساريات ولكل منهما القدرة على الاقلاع بتسعة قلوع (٤٦) ، ويحتاج بناؤها وتزويدها بالأشرعة والصوارى الى وصف مسهب ، ولكنه ، رغبة فى عدم الاطالة ألغى مؤقتا . وكان بين هذه السفن اربع او خمس على الأقل عليها بحارة عدتهم مائتان وخمسون أو مائتان وستون .. وفى تلك السفن نزل السفراء وقد وضعوا الملكة فى حمايتهم ومعهم نيقولو ومافيو وماركو بولو ، وبعد ما استأذنوا أولا فى السفر من الخان الأعظم الذى أهداهم كثيرا من أحجار الياقوت ، فضلا عن جواهر أخرى نفيسة كثيرة ذات قيمة عظيمة ، ثم أصدر توجيهاته كذلك بأن تزود السفن بالخزين والمؤن الكافية لمدة سنتين (٤٧) ..

ق ٦ ـ وبعد رحلة دامت ثلاثة أشهر وصلوا الى جزيرة تقع على اتجاه جنوبى ، تسمى جاوة (٤٨) ، وفيها شاهدوا أشياء متنوعة جديرة بالالتفات ، وستكون موضع الملاحظة فى سياق الكتاب . وبانطلاقهم من ذلك المكان استغرقوا ثمانية عشر شهرا فى البحار الهندية قبل أن يتمكنوا من بلوغ المكان الذى يقصدونه ببلاد الملك أرغون (٤٩) ، وفى أثناء هذا الجزء من رحلتهم أيضا ، أتيحت لهم فرصة لاحظوا فيها كثيرا من الأشياء ، سترى بالمثل فيما بعد . على أنه ربما جاز هنا أن نذكر أنه بين يوم رحيلهم ويوم وصولهم لقى

منيتـه من بين ملاحي السـفن وغـيرهم ممن نزلوا فيهـا ما يقارب ستمائة رجل ، كما أنه لم يعش بعد الرحلة من السفراء الثلاثة سوى واحد هو المسمي جوزا ، وذلك بينما لم يمت من بين جميع السيدات وحاشية الاناث الا واحـدة فقط (٥٠) .

وعند رسـوهم على الشاطىء أبلغوا أن الملك أرغـون أدركته المنية قبل ذلك بقليل (٥١) ، وأن حكم البلاد كان يدبر شئونه ، باسم ولده الذى كان لايزال شـابا يافعـا ، شخص اسمه كي أكاتوا (٥٢) ـ وأبدوا رغبتهم في الحصول منه على التعليمات التي ينبغي اتباعها حول طريقة التصرف في الأميرة ، التي نقلوها الى هذا المكان بأمر الملك الراحـل وكان جوابه أنه ينبغي لهم تقديم السيدة الى قاسان (٥٣) ، ابن أرغون الذى كان عند ذلك في مكان ما ، عـلى حـدود فارس ، يستمد اسمه من الشجرة الجافة (Arbor Secco) (٥٤) ـ يحتشـد عنـده جيش عدته سـتون ألف رجل بقصـد حراسة بعض ممرات معينة من غارات العـدو (٥٥) . فتقـدموا لوضع ذلك موضـع التنفيذ حتي اذا فعلوه ، عادوا أدراجهم الي مقر حكم كي أكاتوا ، لأن الطريق الذى يتحتم سـلوكه فيما بعد يقع في ذلك الاتجاه (٥٦) .. على أنهم أخلدوا الي الراحة هنا مدة تسعة أشهر (٥٧) ـ وعندما استأذنوه في السفر زودهم بأربع لوحات ذهبية وطول كل منها ذراع وعرضـها خمس بوصـات وتزن ثلاث أو أربع ماركات من الذهب (يعادل وزن كل مارك منها ثماني أوقيات) (٥٨) ـ وقد بدأ مافيها من نقوش باستنزال بركات القوى القـاهر على الخان الأعظم (٥٩) ـ والدعاء له بأن يصون اسمه مكللا بالتوقير الى أعوام كثيرة والانذار بعقوبة المـوت ومصـادرة الممتلكات لكل من يأبى الخضـوع للأمر الرسمي ؛ ثم مضت اللوحة توجه التعليمات بأنه ينبغي أن يعامل السفراء الثلاثة بوصفهم ممثليه ، في كل أقطار ممتلكاته ، قاصيها ودانيها ،

بالتكريم الوافي وأن تسدد جميع نفقاتهم ، وأن يزودوا بما يلزم من حرس وقد تم الاذعان لذلك كله ، وخرج لحمايتهم من أماكن كثيرة حرس عدته مائتا راكب • هذا الى انه لم يكن في الامكان الاستغناء عن هذا الاحتياط ، نظرا لأن حكم كى أكاتو كان مكروها من الشعب ، وكان الناس ميالين الى توجيه الاهانات اليه بل والانزلاق الى الاعتداءات، وهو مالم يكونوا ليجرؤوا على محاولته تحت حكم ملكهم الأصلى(٦٠) ـ وتلقى رحالونا فى أثناء رحلتهم نبأ عن الخان الأعظم قبلاى بأنه رحل عن هذه الدنيا(٦١) ، وهو نبأ وضع حدا نهائيا لأى احتمال فى المستقبل لعودتهم لزيارة تلك الأقاليم • وواصلوا المضى فى طريقهم الأصلى المقصود حتى وصلوا أخيرا الى مدينة ترابيزون ومنها استأنفوا السفر الى القسطنطينية ثم الى نجروبونت (٦٢) وأخيرا الى البندقية التى وصلوا اليها ، مستمتعين بالصحة والثراء العريض فى عام ١٢٩٥ • وبهذه المناسبة رفعوا صلوات الشكر الى الله العلى الذى تفضل فأراحهم بنعمته من تلك المتاعب المرهقة بعد ما حفظهم من مهالك لا عداد لها ـ ويمكن اعتبار البيان السابق فصلا تمهيديا ، الغرض منه أن يلم القارىء بالفرص التى أتيحت لماركو بولو لاكتساب معرفة بالأشياء التى يصف، أثناء اقامة دامت مثل تلك المدة الطويلة من السنين فى الأجزاء الشرقية من العالم •

الفصل الثانى

عن ارمينية الصغرى ـ وعن ميناء لاياسوس ـ وعن تخوم الولاية ·

يجمل بنا ، حين نشرع في وصف الأقطار التى زارها ماركو بولو فى آسيا ، وما بها من الأشياء الجديرة بالملاحظة التى استرعت نظره فيها ، أن نذكر أن علينا أن نفرق بين أرمينيتين اثنتين : الصغرى والكبرى (١) · ويقيم ملك أرمينية الصغرى بمدينة تسمى سباستوز (٢) ، ويحكم بلاده مراعيا الدقة فى العدالة · وتكثر بها المدن والأماكن المحصنة والقلاع ، كما أنها تزخر بكل ضروريات الحياة ، فضلا عن كل ما يساهم فى وسائل الراحة والجمام · فالصيد بنوعيه ، البهائم والطير ، كثير موفور · على انه ينبغى آن يقال مع ذلك أن هواء ذلك القطر ليس صحيا تماما · وكان أعيانها فى الأزمان السالفة ، جندا محنكة خبراء لهم قدرهم وشجاعتهم ، على أنهم أصبحوا اليوم من كبار المدمنين ومن الجبناء التافهين · وتقع على ساحل البحر مدينة اسمها لاياسوس (٣) ، وهى مكان تدور فيه تجارة ضخمة · ويكثر التجار من ارتياد مينائها ، قادمين من البندقية وجنوة ومن أماكن أخرى كثيرة ، وهم يتجرون فى التوابل وفى العقاقير المختلفة الأنواع ، وفى منسوجات الحرير والصوف ، وغير ذلك من السلع الثمينة · والعادة أن من يبتغون السفر فى داخلية بلاد المشرق (٤) Levant يقصدون ابتداء الى ثغر

لاياسوس ذاك . وحدود أرمينية الصغرى هي في الجنوب أرض الميعاد التي يحتلها الآن العرب المسلمون Saracens (٥) . وتحدها في الشمال كارامانيا ، التي يسكنها التركمان . وتقع في اتجاه الشمال الشرقي مدن قيصرية ، وسيفاستا (٦)، ومدن أخرى كثيرة خاضعة للتتار ، كما يحدها من الجهة الغربية ، البحر الذي يمتد الى شواطيء بلاد المسيحية .

الفصل الثالث

عن مقاطعة تركمانيا ، حيث توجد مدن كوجنى وقيصرية وسيفاستا ، وعن تجارتها •

يمكن تقسيم سكان تركمانيا (١) الى ثلاث طبقـات • والتركمان ، الذين يبجلون محمدا ويتبعون شرعته ، شعب فظ غليظ ، خفيض الذكاء • وكانوا يسكنون بين الجبال ، وفي مواطن وعرة عسيرة الولوج ، وكل همهم العثـور عـلى مرعى طيب لماشيتهم ، وذلك لانهم يعتمـدون فى طعـامهم اعتمادا مطلقا على الغذاء الحيوانى • ولديهم هنـا سـلالة ممتازة من الخيل تسمى بالخيل التركى ، كما أن لديهم بغالا بديعة تباع بأسعار عالية(٢) • فأما الطبقات الأخرى فتتألف من الروم والأرمنيين ، الذين يسـكنون فى المدن والأماكن الحصينة ، ويكتسبون معاشـهم من التجـارة والصـناعة • وتصنع هنا أحسن وأجمل أنواع البسط (السجاجيد) ، كما تصنع كذلك الحراير المصبغة بالأرجوان وغيره من الألوان الزاهية • ومن بين مدنها قونية أو كونى وقيصرية وسيفاستا ، والأخيرة هى التى نال فيها القديس بليز تاج الشـهادة (٣) وهى جميعا خاضعة للخان الأعظم امبراطور التتار الشرقيين ، الذى يعين عليها الولاة (٤) • وسنتحدث الآن عن أرمينيـة الكبرى •

الفصل الرابع

عن أرمينية الكبرى ، التى بها مدن أرزنجان وأرجيرون ودارزيز — وعن قلعة بايبورث — وعن الجبل الذى استقر عليه فلك نوح — وعن تخوم الولاية — وعن نبع عجيب من الزيت ٠

ان أرمينية الكبرى ولاية متسعة ، تقع عند مدخلها مدينة اسمها أرزنجان (١) ، تقوم بها صناعة نسيج قطنى رفيع جدا يسمى البومبازين (٢) ، فضلا عن أنسجة أخرى كثيرة وعجيبة ، قد يمل القارىء من تعدادها ٠ وبها أجمل وأبدع حمامات المياه الساخنة ، النابعة من الأرض ، والتى ليس لها ضريب فى أى مكان آخر (٣) ومعظم أهلها من الأرمنيين الوطنيين ، ولكنهم تحت سيادة التتار ٠ وتضم الولاية مدنا كثيرة ، ولكن أرزنجان أهمها جميعا ، كما أنها مقر كرسى لكبير أساقفة ، وتتلوها فى الأهمية مدينتا أرجيرون (٤) ودارزيز (٥) ٠ وهى ولاية مترامية الأطراف ، كما أنها تصبح فى فصل الصيف مستقرا لجزء من جيش التتار الشرقيين ، بسبب الكلأ الطيب الذى تقدمه لماشيتهم ٠ حتى اذا اقترب الشتاء اضطروا الى تغيير مكانهم ، ومرد ذلك أنه يسقط بها ثلج كثيف جدا ، لا يسمح للخيل بالحصول على قوتها ، ولذا فانهم يتقدمون نحو الجنوب التماسا للدفء والأعلاف ٠ ويوجد داخل قلعة اسمها بايبيرث(٦) وهى قلعة تلتقى بها أثناء ذهابك من ترابيزون الى توريس ، منجم غنى بالفضة (٧) ويقوم فى الجزء الأوسط من أرمينية جبل

شاهق الارتفاع بالغ الضخامة ، وهو الذى استوت عليـه ، فيما يقـال ، فلك نوح • فهـو لهـذا السبب يسـمى جبل الفلك (٨) • ولا يمكن الدوران حول محيط قاعدته فى اقل من يومين • والصعود عليـه يتعذر بسبب ما يتراكم عليـه قرب القمة من الثلوج ، التى لا تذوب آبدا ، بل تواصـل الزيادة مع كل هطول جديد لها • ومع هـذا ، فالمنـاطق السفلى منه قرب السهل ، يعود ذوبان الثلج عليها بخصـوبة التربة ، كما ينبت نباتا هو من الوفرة بحيث تجـد بسـببه جميع الماشية التى تتجمع هناك صيفا من المناطق المجاورة ، مرعى وزادا لا ينضب أبدا (٩) ، وتتاخم أرمينية من الجنوب الغربى منطقتا الموصل وماردين ، اللتين سنصفهما بعـد ، فضلا عن نواح أخرى كثيرة لا يتسع المقام لتفصيل فيهـا • وتقع زورزانيا الى الشمال ، وهى التى يوجد قرب تخومهـا نبع من الزيت يخرج مقدارا يبلغ من ضـخامته أن يشـكل أحمالا لكثرة كبيرة من الابل (١٠) وهو لا يستخدم من أجل أغراض الطعام ، ولكنه يسـتخدم دهانا للأمراض الجلدية فى الانسان والبهائم ، فضلا عن بعض علل أخرى ، وهـو صـالح أيضـا للاحتراق • وهم لا يسـتخدمون فى المنطقة المجاورة أى زيت آخر فى مصابيحهم ، ويتـوافد الناس من مناطق بعيدة للحصول عليه •

الفصل الخامس

**عن ولاية زورزانيا وحدودها ـ
وعن الممر الذى أقام فيه الاسكندر
بوابة الحديد ـ وعن الظروف
المعجزية المحيطة بينبوع فى تفليس ·**

يلقب الملك فى زورزانيا (١) بلقب « داود الملك » David Melik (٢) · ويخضع جزء من القطر للتتار ، كما أن الجزء الآخر ظل فى قبضة أمرائه الوطنيين ، بسبب ما يقوم فيه من قلاع منيعة · وهى تقع بين بحرين ، يسمى أحدهما الواقع فى الجهة الشمالية (الغربية) باسم البحر الأعظم (وهو اليوكسين أو الأسود) ، كما يسمى البحر الآخر الواقع فى الجهة الشرقية ، باسم بحر أباكو (قزوين) (٣) · ومحيط هذا البحر الثانى ألفان وثمانمئة من الأميال ، وهو يشبه فى طبيعته احدى البحيرات ، اذ لا اتصال بينه وبين أى بحر آخر ، وبه جزر كثيرة ، بها المدن والقلاع الرشيقة ، التى منها ما يسكنه قوم فروا أمام التترى الأعظم ، عندما حول مملكة أو ولاية فارس(٤) خرابا يبابا ، ولاذوا بهذه الجزر أو بصياصى الجبال المنيعة حيث رجوا أن يجدوا الأمن والسلامة · وبعض الجزر غير مزروعة · على أن هذا البحر ينتج كميات موفورة من السمك وبخاصة من الحفش والسلمون ، عند مصبات الأنهار ، فضلا عن أسماك أخرى من نوع ضخم (٥) · والشجر المنتشر بالبلاد هو شجرة البقس (٦) · وبلغنى أن ملوك البلاد كانوا يولدون فى الأزمنة الخوالى وقد وسمت كتفهم اليمنى برسم نسر (٧) · والناس هناك قوم أقوياء البنية ، وبحارة شجعان ،

ورماة محنكون وجند ذوو جلد في النزال · وهم مسيحيون، يتبعون شعائر الكنيسة اليونانية ، ولكنهم يقصرون شعورهم على طريقة رجال الدين الغربيين · وتلك هي الولاية ، التي لم يستطع الاسكندر الاكبر اختراقها ، عندما حاول التقدم شمالا ، وكان ذلك بسبب ضيق أحد الممرات وما يكتنفه من صعوبات ، فهو اذ يضربه البحر بأمواجه من ناحية ، ويحده من الجانب الآخر جبال عالية وغابات على امتداد أربعة أميال ، فان بضعة قليلة من الرجال كانت قادرة على الدفاع عنه ولو اجتمع عليها العالم أجمع · ولما خابت آمال الاسكندر في هذه المحاولة ، أمر ببناء حائط ضخم عند مدخل الممر ، وحصنها بالأبراج ، ليمنع من يسكنون وراءها من الحاق المضايقة به · وحصل الممر ، نتيجة لقوته غير المألوفة ، على اسم البوابة الحديدية(٨) ويشاع عن الاسكندر أنه حصر التتار بين جبلين · ومع ذلك فليس من الصواب تسمية هذا الشعب باسم التتر ، لأنهم لم يكونوا في ذلك الزمان من التتار ، بل من جنس يسمى الكوماني (٩) ، مع خليط من أمم أخرى · وتقوم في هذه الولاية مدن وقلاع كثيرة ، وحاجيات الحياة الضرورية موفورة بها ، وتنتج البلاد قدرا عظيما من الحرير ، وبها صناعة لنوع من القز المغزول بالقصب (خيوط الذهب) (١٠) · وهنا توجد نسور ذات حجم ضخم ، من نوع يسمى بالأفيجي ـ ... (١١)· ويكسب الكافة من السكان معاشهم على الجملة بالتجارة والعمل اليدوي · وحالت طبيعة الاقليم الجبلية ، بما لها من خوانق ضيقة وحصينة ، دون تمكن التتار من اتمام الفتح الكامل لها · ويقال انه تحدث الظروف الاعجازية التالية بدير للرهبان مسمى على اسم القديس لوناردو ، اذ توجد هناك بحيرة ملحة ، محيط ساحلها مسيرة أربعة أيام، وتقع الكنيسة على حافتها ولا يبدو السمك بها الا في اليوم الأول من أيام الصوم الكبير ، ومنذ ذلك الوقت حتى ليلة عيد الفصح ، يوجد بوفرة هائلة ، على أنه يعود لا يرى في يوم عيد الفصح

بدا ، ولا في باقي ايام السـنة • وهي تسـمى بحـيرة جيلوتشالات (١٢) • وتصب في بحر اباكو انف الدحر ، لذى تحف به الجبال ، والانهار العظيمة : هرديل (١٣) ، رحيحون وكور وآراز ، وكثير غـيرها • وقد بدا التجـار الجنويون في السفر فيه في الآونة الأخيرة ، فهم يجلبون منه نوع الحرير المسمى بالغلى ghellie (١٤) وتوجـد بهـذه الولاية مدينة جميلة اسمها تفليس (١٥) تحيط بها الضواحي وكثير من المراكز المحصنة • ويسكنها مسيحيون من الأرمن والكرج ، كما يسكنها بعض المسلمين واليهود (١٦) ، ولكن الطائفتين الأخيرتين ليستا ذواتا عـدد كبير • وتدور بهـا صناعات الحرير وغيره من السلع • وسكانها رعايا ملك التتار العظيم (١٧) ومع أننا لا نتحدث الا عن عدد قليل من المدن الكبرى بكل ولاية ، فانه ينبغى لنا أن نفهم أن هناك مدنا أخـرى كثيرة ، ليس من الضرورى ذكرها بالذات ، ما لم يتصادف أن تحتوى شيئا يسترعي الأنظار • على أنه لابد من وصف تلك أيضـا لو دعت الضرورة الى ذلك • والآن وقد تحدثنا عن المدن المتاخمة لأرمينية من الشمال ، فاننا سنذكر الآن ما يقع منها في الجنوب والشرق •

الفصـل السـادس

عن ولاية الموصـل وما بهـا من سكان متنوعين ـ عن الشعب المسمى بالكرد ـ وعن تجارة هذه البلاد ٠

الموصل ولاية ضخمة (١) ، تسـكنها أخلاط شتى من الشعوب لها أوصافها المختلفة ، وتؤمن طائفة منهـا بالنبى محمد وتسمى العرب (٢) ٠ وأما الآخرون فيعتنقون الدين المسيحى ، ولكن ليس طبقا لقوانين الكنيسة (الكاثوليكية) التى يختلفون عنها فى كثير من الحالات، ويسمون بالنساطرة واليعاقبة والأرمن ، ولديهم بطريق ، يسـمونه الجاكوليت وهو الذى يرسم كبيرى الأساقفة ، ورؤساء الأديرة ويرسلهم الى جميع أصقاع الهند والى القاهرة وبلداش (بغـداد) ، والى جميع الأماكن التى يسكنها مسيحيون ، على نفس الشاكلة التى يتبعها بابا الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) ٠ وجميع الأنسجة الذهبية والحريرية التى نسميها بالموسلين (٤) هى من صنع الموصـل ، كما أن جميـع التجـار الذين ينعتون «موسوليني» ، والذين يحملون الأفاوية والعقاقير ، بمقادير ضخمة من اقليم الى اقليم ، ينتمون الى تلك الولاية ٠ ويسكن الأجزاء الجبلية جنس من الناس يسمى بالأكراد ، بعضـهم مسيحيون من النساطرة أو اليعاقبة ، وبعضـهم الآخـر من المسـلمين ٠ وجميعهم قوم لا مبـدأ لهم ، صـناعتهم سـلب

التجار (٥) والى جوار هذه المقاطعة مكانان يسميان موس Mus وماردين(٦) ينتج بهما القطن بوفرة عظيمة ، ومنه يجهزون القماش المسمى البوكاسيني ، فضلا عن منسوجات أخرى كثيرة • والسكان قوم من الصناع والتجار وهم جميعا من رعايا ملك التتار • وسنتحدث الآن عن مدينة بلداش (بغداد) •

الفصل السابع

عن المدينة العظيمة بلداش أو باجادت (بغداد) ، التى كانت تسمى قديما بابل – وعن الملاحة منها بآلسارا (البصرة) ، الواقعة فيما يسمى ببحر الهند ، ولكنه فى الحقيقة الخليج الفارسى – وعن مختلف العلوم التى تدرس بتلك المدينة ٠

ان بلداش مدينة كبيرة ، وكانت فيما سبق المقر الرسمى للخليفة(١) ، أو الحبر الأعظم لجميع المسلمين ، شأن البابا ، بالنسبة للمسيحيين جميعا ، ويمر فى وسطها نهر عظيم(٢)، ينقل التجار بواسطته بضائعهم من بحر الهند واليه ، وتقدر المسافة هنا بملاحة سبعة عشر يوما ، وذلك بسبب كثرة التعاريج فى مجراه ٠ ومن يقومون بالرحلة يرسون بعد مغادرتهم النهر بمكان يسمى كيسى (٣) ، ومنه يتقدمون الى البحر : على أنهم قبل رسوهم هناك يمرون بمدينة تسمى البصرة Balsara (٤) ، تقع بالقرب منها أحراش من النخيل تنتج أجود بلح (تمر) فى العالم ٠ ويقوم ببلداش صناعة الحرير المغزول بخيوط الذهب (القصب) ، وكذلك صناعة الدمقس ، فضلا عن القطيفة (المخمل) المحلاة بأشكال الطير والحيوان (٥) ٠ وتكاد جميع اللآلىء المنقولة الى أوربا من الهند أن تجرى فيها عملية الثقب فى هذا البلد ٠ وتدرس الشريعة الاسلامية بها بكل عناية وانتظام ، كما يدرس السحر والفوزيقى ، والفلك وعلم الفراسة والعرافة (استطلاع الغيب) وهى أجمل وأوسع مدينة توجد فى هذا الجزء من العالم ٠

الفصـــل الثامن

حول أسر خليفة بلداش ، مصرعه ،
وزحزحة احد الجبان بطريقة معجزية ٠

لقى الخليفة سالف الذكر ، الذى يعـــرف عنـــه انه جمع كنورا اعظم واضخم مما جمعه أى ملك اخر على الزمان كله، مصرعه البائس التعس فى الظروف التالية (١) ٠ فى المدة التى شرع فيها أمراء التتار في بسط سلطانهم ، كان بينهم أربعه اشقاء ، يحكم أكبرهم المســـمى مانكو فى المقر الملكى للاسرة ٠ ولما ان اخضعوا اقليم كاتاى وغيره من الاصـــقاع القائمة بتلك الناحية من العالم ، لم تقنع نفوسهم بما فتحوا، بل تطلعت جشعا الى المزيد من الارض ، فصوروا بأخيلتهم فكرة الامبراطور العالمية الشاملة ، واقترحوا ان يقتســـموا العالم فيما بينهم ٠ حتى اذا استقر ذلك الهدف أمام أعينهم ، اتفقوا أن يتقدم أحدهم نحو الشرق ، وأن يقـــوم آخـــر بفتوحاته فى الجنـــوب ، عـــلى حين يوجه الاثنان الآخـــران عملياتهما نحـــو الأصقاع الباقية من العالم ٠ وكان القسم الجنوبى من نصيب أولاءو ، الذى جمع جحفلا جرارا ، ما أن أتم به اخضاع الولايات التى يخترقها طريقـــه ، حتى مضى قدما فى عام ١٢٥٥ لمهاجمـــة تلك المدينـــة بلداش (٢) ٠ وأدرك أولاءو ما عليه بغداد من قوة عظيمة ومن تعداد هائل لسكانها ، فعمد الى استخدام الوسائل الاستراتيجية أكثر منه الى القوة فى اخضاعها ، ولكى يخدع أعداءه عن عدد جنده، وكانوا يأتلفون من مائة ألف راكب فضلا عن المشاة ، وضع

فريقا من جيشه قبالة أحد جوانبها ، ووضع فريقا آخر قريبا من مداخل المدينة ، بحيث تخفيه احدى الغابات ، ووضع نفسه على رأس الفريق الثالث ، ثم تقدم بجرأة حتى أصبح على مسافة قريبة من البوابة ٠

واستخف الخليفة بتلك القوة الظاهرة الضعف ، ولوثوقه فى كفاية الصيحات الاسلامية المعتادة لاثارة الحماسة ، لم يدر بخلده شيء أقل من القضاء عليه قضاء مبرما ، ومن أجل ذلك الغرض خرج الى ظاهر المدينة ومعه حراسه ٠ ولكن ما كاد أولاءو يراه مقتربا ، حتى تظاهر بالتقهقر أمامه الى أن استدرجه بهذه الوسيلة الى ما وراء الغابة ، حيث اتخذ الفريقان الآخران قواعدهما ٠ وعندما أطبق عليه الفريقان من الجانبين أصبح جيش الخليفة محاصرا وهزم ، وأخذ الخليفة نفسه أسيرا ، واستسلمت المدينة للفاتح ٠ وعند دخول المدينة ، اكتشف أولاءو لدهشته العظيمة برجا مملوءا بالذهب ٠ فاستدعى الخليفة أمامه ، وبعد توبيخه على شحه ، الذى منعه من انفاق كنوزه فى انشاء جيش للدفاع عن عاصمته تلقاء الغزو القوى الذى ظلت مهددة به طويلا ، أمر به فزج سجينا فى ذلك البرج نفسه بلا زاد ٠ وهناك انتهت حياته التعسة بين أكداس ما كنز من الثروة والكنوز ٠

وفى رأيى أن الرب يسوع المسيح رأى هنا أن من الخير أن ينتقم لما وقع من مظالم على خلصائه المسيحيين الذين كان مقت ذلك الخليفة لهم بالغا ٠ فمنذ تولى الخلافة فى ١٢٢٥ ، كان شغله الشاغل فى كل يوم تدبير الوسائل لادخال كل من يقيم فى دولته منهم فى دينه ، أو فى حالة رفضهم ذلك ، صياغة الحجج التى يتذرع بها لاعدامهم ٠ وتشاور الخليفة مع علمائه من أجل هذا الغرض ، فاكتشفوا فى الانجيل فقرة هذا نصها : « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك

فينتقل » ، (متى ١٧ : ٢٠) (وذلك يتأتى بالصلاة والدعاء بذلك الى رب الجلالة) • وسر الخليفة بهذا الاكتشاف ، وان اقتنع فى قرارة نفسه بأن الأمر من المحال ، فأصدر الأوامر بجمع جميع المسيحيين النساطرة واليعاقبة الذين يسكنون في بغداد والذين كان عددهم عظيما • ووجه الى هؤلاء هذا السؤال : « هل تؤمنون بأن كل ما ورد في انجيلكم صحيح أم لا ؟ • » فأجابوه بأنه صحيح • فقال الخليفة : « ان كان صحيحا ما تقولون ، فلنر أيكم سيعطينا البرهان على ايمانه ، لأن من المؤكد أنه ان لم يوجد بينكم واحد له ولو جزء ضئيل من الايمان بربه ، قدر حبة خردل ، فسيكون لى الحق ، أن أعدكم ، منذ الآن ، قوما شريرين وفسدة وعديمي الايمان• من أجل ذلك فانى أمنحكم مهلة عشرة أيام ينبغى أن تتمكنوا قبل انقضائها من زحزحة الجبل القائم أمامكم بفضل قوة من تعبدون ، والا فلتعتنقوا شرعة نبينا ، وأنتم على الحالين آمنون • فان لم تفعلوا ، وجب عليكم جميعا أن تتوقعوا نكال وانكر مصرع » • وعند سماع هذه الكلمات ارتعدت فرائص المسيحيين اشفاقا على حياتهم ، لما عرفوه فيه من قلب قاس لا يرحم ومن توق الى اغتصاب ما يملكون من ثروات • ولكنهم مع ذلك ، لامتلائهم بالثقة بفاديهم وأنه سينقذهم مما يتعرضون له من خطر ، عقدوا اجتماعا وأخذوا يتشاورون فيما ينبغى لهم عمله • ولم يخطر على بالهم الا شيء واحد هو الابتهال الى بارئهم أن يمنحهم من لدنه عونا من رحمته • ولبلوغ تلك الغاية انطرح كل منهم كبيرا كان أم صغيرا على الأرض ساجدا ليل نهار ، وهم يذرفون الدمع بغزارة ، دون أن يهتموا بأى عمل آخر عدا الضراعة الى الله • فلما أن واصلوا ذلك مثابرين ثمانية أيام كاملة ، جاء التجلى الالهى آخر الأمر على صورة حلم رآه أسقف يعيش عيشة تقوى مثالية ، ويوجهه الى البحث عن اسكاف (صانع أحذية) معين (لا يعرف اسمه) ليس له الا عين واحدة ، ودعوته الى ذلك الانجيل، على اعتبار أنه شخص قادر على القيام فعلا بزحزحته

عن مكانه ، بفضل الله ونعمائه • فلما أن وجد القـوم ذلك الاسكاف وابلغوه نبا الرؤيا ، اجاب بانه لا يشعر في نفسه أنه جدير بالقيام بذلك ، اذ أن اسـتحقاقاته (جـداراته) ليسـت بالدرجة التي تـؤهله للمـكافأة بمثـل تلك النعمة الزافرة • على انه ، لما الح عليه المسيحيون المساكين المروعون، قبل في نهاية الامر • وينبغي ان يكون مفهوما انه كان رجلا شديد التمسك بالاخلاق الفاضلة والحديث الورع قد احتفظ بنقاء عقله والاخلاص لربه ، واظب على صلوات القداسات وغيرها من الواجبات الالهية ، وأظهر الحميـة في أعمـال الصدقة والبر ، والتشدد في أداء الأصوام • وحدث له ذات يوم أن امرأة حسناء شابة جاءت الى دكانه ليصنع لها حذاء ، وبينما هي تمد له قدمها ، كشفت بالصـدفة عن جـزء من ساقها ، فاستثار فيه جماله رغبة ملحة • ولكنه تدارك نفسه، وصرف المرأة على الفور ، وأخذ يتذكر كلمات الانجيل التى تقول : «ان أعثرتك عينيك فاقلعها وألقها عنك ، خير لك أن تدخل الحياة أعور من أن تلقى في جهنم النار ولك عينان » (متى ١٨ : ٩) ، ومد يده عـلى الفور فقلع عينـه اليمنى باحدى آلات صنعته ، مظهرا بهـذا العمـل ، فوق كل ريب وشبهة ، عظمة ايمانه •

فلما أن وافى اليوم المحدد ، أقيمت الصلوات الدينية في ساعة مبكرة من الفجر ، وانطلق موكب رهيب الى الوادى الذى يقف فيه الجبل ، وقد حمل الصليب المقدس في المقـدمة • ولاعتقاد الخليفة أنه موكب سينتهى الى الفشـل من جانب المسيحيين ، فانه آثر أن يشهده بنفسه ، فحضر ترافقه كوكبة من حرسه ، بقصد القضاء عليهم في حالة فشـل المحاولة ، وهنا أقبل الصانع التقى ، وقد جثـا أمام الصليب ، ورفع أكف الضراعة الى السماء ، فالتمس من خالقه بذلة وخضوع أن يشمل الأرض بنظرة من رحمته ، ومن أجل مجد اسـمه وعظمته ، ومن أجل تأييد الايمان المسيحى وتثبيته ، أن يمد

يد العون لشعبه فى القيام بذلك العمـل المفـروض عليهم وبذلك يظهر جبروته لذل من ينالون من شريعته • ولما ان ختم صلاته صاح بصوت مرتفع : « باسم الاب والابن والروح القدس ، أمرك ايها الجبل ان تزحزح نفسك ! » وعند نطق هذه الكلمات تحرك الجبل ، واهتزت الأرض في الحين نفسه بطريقة مدهشة ومروعة ، وبهت الخليفة وكل من أحاطوا به ومسهم الرعب وظلوا مذهولين أمدا طويلا • واعتنق كثير من رجاله النصرانية ، بل انه حتى الخليفة نفســـه اعتنق المسيحية سرا ، حيث ظل على الدوام يحمل صليبا يخفيه تحت أثوابه ، وجد حول عنقه بعد أن لقى مصرعه • ولهذا السبب لم يدفنوه في مدافن أسلافه • وتخليدا لتلك النعمة الفريدة التى حباهم بها الله ، لا يبرح جميع المسيحيين ، نسـاطرة ويعاقبه ، يحتفلون منذ تلك اللحظة بطريقة وقورة بعـودة ذلك اليوم الذى حدثت فيه المعجزة ، محتفظين كذلك بصوم أثناء سهرهم ليلة الذكرى ، فى التهجد (٣) •

الفصل التاسـع

عن مدينة توريس (تبريز) الفخمة بالعراق وعن سكانهـا من التجـار وغيرهم .

ان توريس مدينــة ضخمة وبالغــة الفخامة تتبع ولاية العراق ، التي تحوى مدنا أخـرى كثيرة ومواقع حصــينة ، ولكن هذه أرفعها شأنا وأكثرها سكانا (١) . ويعتمد السكان في معايشهم بصفة رئيسية على التجارة والصناعات، والأخيرة تشمل صنع أنواع مختلفة من الحرير بعضها مخلوط بخيوط الذهب وله أثمان عالية في الأسـواق . فهى فى موقع بالغ المواءمة للتجارة ، بحيث يفد اليها التجار من الهند وبلداش والموصل وكريميور (٢) ، فضلا عن أصقاع مختلفة من أوربا، ليشتروا ويبيعوا فيها طائفة من السلع. وفى الامكان الحصول في هذا المكان على الأحجار النفيسة واللآلىء بكميـات وفيرة ويحرز التجار المشتغلون بالتجارة الأجنبية ثروات ضخمة ، فأما السكان بعامة فيغلب عليهم الفقر. وهم يأتلفون من خليط من أمم ونحل مختلفة : ما بين نساطرة وأرمنيين ، ويعاقبـة وكرجيين وفرس ومن أتباع محمد المسلمين الذين يشــكلون الكتلة الـكبرى للســـكان ، وهـم الذين يســـمون بحق التبريزيين(٤) . ولكل ضرب من هؤلاء الأقوام لغته الخاصة . والمدينة محاطة بحدائق ذات بهجة ، تنتج أبدع الثمار (٥) . والسكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيـانة والغـدر والتجرد من المبادىء . وهم يعتقدون أن ملتهم ترى (كذا !! ..) ان كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى ، فهو أخـــذ

حلال وأن السرقة ليست جريمـــة ، بينما يعــد كل من لقى مصرعه على يد النصارى ، شهيدا • فلو لم يمنعهم أو يكبحهم اذن السلطان الذى يحكمهم الآن (٦) ، لارتكبوا آفعالا نكراء كثيرة • وهذه المبادىء شائعة بين المسلمين جميعا (كذا !!)• وعندما تحين منيتهم يشهدهم قسيسهم (كذا !) ويسألهم : أيؤمنون بأن محمدا هو رسول الله حقا• فان أجابوا بالايجاب وأنهم يؤمنون بذلك فعلا ، تحقق لهم خلاصهم فى الآخرة ، ونتيجة لهذه السهولة فى التحلة من الذنوب ، وهو أمر يفسح المجال لارتكاب كل معصية شائنة ، نجحوا فى أن يضموا الى دينهم نسبة ضخمة من التتار ، الذين يرون فيه وسيلة تزيح عن كاهلهم كل حظر على ارتكاب الجرائم • (كذا ؟ !! •• ــ المترجم ــ) • والمسافة من تبريز الى فارس مسيرة اثنى عشر يوما (٧) •

الفصــل العاشر

عن دير القــديس برســامو ، قرب مدينة توريس .

يوجد غير بعيــد من توريس دير ، يســتمد اســمه من القديس التقى برسامو (١) ويشتهر أهله بالتقوى . ويقيم به هنا رئيس ورهبان كثار ، يشبهون فى زيهم هيئة الرهبان الكرمليين . ولكيلا يعيشوا عيش الكسل ، يشغلون أنفســهم على الدوام فى نسج الزنابير (التكك أو النطاقات) الصوفية، التى يضعونها عــلى مذبح قديســهم أثناء القيام بالخــدمة الدينية ، وعندما يدورون فى أرجاء الولايات ، يســتجدون الصدقات (على نفس الطريقة التى يفعلهــا رهبــان هيئــة الروح القدس) ، يهدون هذه الزنابير الى أصــدقائهم والى ذوى المكانة من الناس ، لأنها موضع التقدير فى علاج الآلام الروماتزمية ، فهى لهذا السبب تطلبها جميع الطبقــات فى ورع وخشوع .

الفصل الحادى عشر

عن ولاية فارس

كانت فارس فى الزمان الخالى ، ولاية مترامية وفاخرة ، ولكنها الآن تدمرت الى حد كبير علـى يد التتـار • وتوجد بفارس بلدة اسمها سابا ، هى التى وفد منها المجوس الثلاثة الذين جاءوا للسجود للسيد المسيح فى بيت لحم ، وثلاثتهم مدفونون بتلك البلدة فى ناووس جميل ، وأجسام ثلاثتهم مكتملة السلامة بلحاهم وشعرهم • وكان اسم أحدهم بلداسار واسم الثانى جسبار واسم الثالث ملكيور • وأكثر ماركو من الاستفهام بتلك المدينة حول المجوس الثلاثة ، ولم يستطع أحد أن يخبره بشىء عنهم ، عدا أن المجـوس الثـلاثة كانوا مدفونين هناك من سالف الأزمان • وبعـد رحلة ثلاثة أيام نصل الى قلعة تسمى بالاساتا ، ومعناها قلعة عبـدة النار • وفى الحق أن سكان هذه القلعة يعبدون النار ، وذلك هـو السبب الذى يقدم تعليلا لهذا • ويقول أهل تلك القلعة انه حدث فى قديم الزمان أن ملوكا ثلاثة لذلك الاقليم ذهبوا ليمجدوا ملكا معينا ولد حديثا ، وحملوا معهم ثلاث هدايا ، هى الذهب واللبان والمر : فالذهب لكى يعرفوا هل هـو ملك دنيوى ، واللبان لكى يعرفوا هل هو رب ، والمر لكى يعرفوا ان كان انسانا فانيا • ولما قدم هؤلاء المجوس الى المسيح ، سجد له أصغر الثلاثة أولا ، وبدا له أن المسيح كان يعادله قامة وسـنا • ثم جاء الأوسـط فالأكبر ، فبدا لكل منهما كأنما يكافئه قامة وسنا • فلما أن تساروا فيما بينهم حول

مشاهداتهم ، اتفقوا على التقدم للعبادة والسجود على الفور ، وعندئذ بدا لهم جميعا فى سنه الحقيقية • وعند انصرافهم أعطاهم الطفل صندوقا مقفلا ، حملوه معهم عدة أيام ، ثم داخلهم حب الاستطلاع الى تعرف ما أعطاهم ، ففتحوا الصندوق ووجدوا بداخله حجرا ، كان المقصود منه أن يكون علامة على أنه ينبغي لهم أن يظلوا صامدين كالحجر ، في الايمان الذى تلقوه منه • على أنهم عندما رأوا الحجر ، عجبوا وظنوا أنهم خدعوا فألقوا بالحجر في حفرة ، وعلى الفور اندلعت النار في الحفرة ، فلما رأوا ذلك ندموا مر الندم على ما فعلوا ، ثم اقتطعوا قبسا من النار وحملوه معهم الى بلادهم • حتى اذا وضعوها في احدى كنائسهم (معابدهم) فانهم يعنون بالاحتفاظ بها مشتعلة ؛ ويعبدون تلك النار ربا ، ويقربون جميع قرابينهم بواسطتها • واذا تصادف أنها انطفأت ، ذهبوا يلتمسون غيرها من النار الأصلية فى الحفرة التى ألقوا فيها بالحجر ، والتى لا تخبو أبدا ، وهم لا يأخذون أقباسا من أية نار أخرى • ومن أجل ذلك يعبد أهل تلك البلاد النار • وقد علم ماركو ذلك كله من سكان تلك البلاد ، والحق ان أحد هؤلاء الملوك كان ملكا لسابا ، والثانى لديافا ، والثالث ملكا للقلعة (١) والآن نعالج شأن أهالى فارس وبلادهم •

الفصل الثاني عشر

عن أسماء الممالك الثماني التي تؤلف ولاية فارس ، وعن سلالة الخيل والحمير الموجودة هناك .

توجد بفارس ، وهي ولاية عظيمة ، ثماني ممالك(١) ، وأسماؤها كالتالي : ـ فأولى الممالك التي تلتقي بها عند دخول البلاد هي قزوين Kasibin - (٢) ، فأما الثانية ، وتقع الى الجنوب (الغرب) فهي كردستان (٣) والثالثة هي لور (٤) ، والى الشمال ، تقع الرابعة وهي سولستان (٥) ، الخامسة أصفهان (٦) ، والسادسة سيراس (٧) (شيراز) ، والسابعة سونكارا (٨) ، والثامنة تيموكاين (٩) ، وتقع في أقصى بلاد فارس .

وجميع هذه الممالك تقع الى الجنوب عدا مملكة تيموكاين ، التي تقع في الشمال قرب المكان المسمى بالشجرة الجافة Arbor Secco (١٠) . وتمتاز البلاد بسلالة الخيل الممتازة التي تربى فيها ، والتي يحمل الكثير منها الى الهند لتباع هناك وتجلب أثمانا عالية ، لا يقل الواحد منها عن مائتي جنيه تورنوازي (١١) . وهي تنتج أيضا أضخم وأرشق ما في العالم من الحمير ، وهي تباع (بديار مرباها) على الفور بسعر أغلى من سعر الخيل ، لأنها أسهل مطعما ، وأقدر على حمل أثقال أكبر ، وأطول باعا وأمدا في السفر نهارا من كل من الخيل والبغال ، التي لا تستطيع تحمل التعب بدرجة معادلة لتحمل هذه الحمير ، واذن فان التجار الذين تضطرهم الظروف في أسفارهم من ولاية الى أخرى

الى اختراق صحارى مترامية وقطاعات من الرمال ، لا يلتقون فيها بأى نوع من العشب ، وحيث يكون من الضرورى، بسبب بعد المسافات بين الآبار أو غيرها من أماكن السقاية ، القيام برحلات طويلة فى أثناء النهار ، مفضلين اياها على غيرها من دواب الحمل ، وذلك لأنها تمضى أسرع على الأرض وتحتاج الى قدر أصغر من الطعام • وتستخدم الجمال هنا أيضـــا ، وهذه بالمثل تحمل أثقالا عظيمة ، وتعيش على أقل التكاليف ، ولكنها لا تبلغ سرعة الحمير •

ويحمل تجار تلك الأصقاع الى جزيرة قيس (كيس) (١٢)، والى هرمز والى أماكن أخرى على ساحل المحيط الهنـــدى ، حيث يشتريها منهم من يحملونها الى بلاد الهند • عـــلى أنه نتيجة لشدة الحرارة بتلك البلاد ، فانها لا تستطيع العيش طويلا لأنها فى الأصل من قاطنات المناخ المعتدل • والناس فى بعض هذه النواحى متوحشون ، متعطشـــون الى الدم ، شـيمتهم المنتشرة هى جـــرح وقتل بعضـــهم بعضـــا • وهم لا يتورعون عن انزال الأذى بالتجار والمسافرين لولا امتـــلاء قلوبهم رعبا من التتار الشرقيين (١٣) ، الذين ينزلون بهم أقسى العقاب • ونشـــأ أيضـــا نظام خاص ، يقضى فى جميع الطرقات التى يخشى فيها من الخطر ، بالزام السكان ، بناء على طلب التجار ، أن يزودوهم بأدلاء نشطين أمناء ، يقومون على ارشادهم وأمنهم بين كل ناحية وأخـــرى ، ويتقاضـــون أجرا مقداره جروتان (١٤) أو ثلاث ، عن كل دابة محملة تبعا للمسافة • وكلهم من أتباع الديانة المحمدية • ومع هذا فان بالمدن تجارا وعددا غفيرا من الصناع ، الذين يصنعون أنواعا كثيرة من أنسجة الحرير والذهب (١٥) • وينمـــو القطن بوفرة فى هذه البلاد ، كما ينمو القمح والشعير(١٦)، والدخن ، وأنواع أخرى كثيرة من الحبوب ، وذلك فضلا عن الأعناب وجميع أصناف الفاكهة • واذا أكد أى انسان أن

المسلمين لا يشربون الخمر ، لأن شريعتهم تحرمها ، أمكن أن نجيبه عن ذلك بأنهم يهدئون جائشـة ضـمائرهم فى تلك النقطة ، باقناع أنفسهم بأنهم لو احتاطوا فأغلوا الخمر على النار حتى يستهلك منها جزء وتصبح حلوة، فانهم يستطيعون شربها بغير خرق للوصية الربانيـة ، وذلك لأنهم اذ يغيرون طعمها يغيرون اسمها ، ولا يعودون يسـمونها خمرا ، وان كانت كذلك في الواقع (١٧) .

الفصـــل الثــالث عشر

عن مدينة يزدى وصناعتها ، وعن الحيوانات الموجـودة بالاقليم الممتد بين ذلك المكان وبين كرمان ٠

ان يزدى مدينة ضخمة على تخوم فارس تدور فيها تجارة عظيمة (١) ٠ وهنـــاك نـــوع من قماش الحـــرير والقصب (الذهب) يصنع بها ويعرف باسم اليزدى ، ويحمله التجار منها الى جميع أرجاء العـــالم (٢) ٠ وســـكانها مســـلمون ٠ ويســـتغرق من يســـافرون من هـــذه المدينـــة ، ثمانية أيام يقضونها فى اختراق أحد السهول ، لا يجدون فيه على طول تلك المدة الا أماكن ثلاثة تتوفر فيها اللوازم والراحة (٣) ٠ ويمتد الطريق وسط أحراش متراميـــة من نخيـــل البلح ، ويعيش فيها صيد كثير ما بين حيوان وطيور الحجل والسمان ٠ فمن أولع من الرحالة بمتع المطـــاردة ، يســـتطيعون هنـــــا الاســـتمتاع بريـاضـــة رائعـــة ٠ وقد يلتقى المرء كذلك بحمر (٤) : (الحمير المتوحشة) فى كثرة أعداد ورشـــاقة أجسام ٠ وبعد انقضاء ثمانية أيام ، تصل الى مملكة تسمى كرمان (٥) ٠

الفصـــل الرابـــع عشر

عن مملكة كرمـان التي أسماهـا الأقدمون كرمانيا ـ وعن منتجاتهـا الحفرية والمعـدنية ـ وصناعاتها ـ وصـقورها ـ وعن منحـدر عـظيم يشـاهد عنـد الخـروج من ذلك الاقليم ٠

ان كرمان مملكة تقـع عـلى الحـدود الشرقية لبـلاد فارس (١) ، وكان يحكمها فيما مضى ملوكهـا ، في تعـاقب وراثى ٠ ولكن منـذ أن أخضعها التتار لحكمهم ، صـاروا يولون عليها حكاما حسب هواهم ٠ وتوجـد في جبـال تلك البلاد الأحجار النفيسة المسماة بالفيروزج (٢) ٠ وهنـاك أيضا عروق من الصلب (٣) ومن الأثمة (الأنتيمون) (٤) كبيرة المقادير ٠ وهم يصنعون هنا بدرجة عظيمة من الاتقان جميع الأدوات اللازمة لعتـاد الحرب ، كالسروج والأعنـة (اللجم) والمهاميز والسيوف والقسى والسهام والجعب وكل أنواع الأسلحة المستخدمة عند تلك الشعوب ٠

وتعمل النساء والصـغار بالابرة وينتجـون وشيا من الحرير والذهب ، منوع الألوان والرسـوم ، يمثـل الطـير والحيوان ، مع أنماط زخرفية أخرى (٥) ٠ وقد صـممت هذه الأشغال للسـتائر وأغطيـة الفراش والنمارق اللازمة لأماكن نوع الأغنيـاء ، وينفذ العمـل بمهارة وذوق بالغين يثيران كل اعجـاب ٠ ويربى في المنـاطق الجبليـة أحسن ما يطير على جناح من البوازى (الصـقور) ٠ وهى أصـغر حجما من البوازى الجوالة Peregrine وهى محمرة اللون حول

الصدر والبطن وأسفل الذيل ، ولهـا طـيران بالغ السرعة بحيث لا يفلت منها طائر • وعند مغادرتك كرمان ، تسافر سبعة أيام مخترقا سهلا منبسطا ، بطريق لطيف ، يزيد من لطفه كثرة ما فيه من الحجل وغيره من القنائص(٦) • وكثيرا ما تلتقى أيضا بمدن وقلاع ، وكذا بمساكن متناثرة ، حتى تصل في النهاية الى جبل ، ينحـدر منـه بمنحدر شـديد ، يستغرق قطعه يومين • وتوجد بها أعداد لا حصر لهـا من أشجار الفاكهة ، وكانت الناحية آهلة بالناس فيما سلف من الزمان ، وان خلت في الوقت الحاضر من السكان ، الا أن يكونوا من الرعاة فقط ، وهم يشاهدون قياما على أنعامهم ترعى • وفى تلك المنطقة من الاقليم التى تمر بها قبل بلوغ المنحدر ، يشتد البرد ويقسو حتى ان الانسـان لا يستطيع وقاية نفسه منه الا بشق النفس وذلك بارتداء كثير من الثياب والفرجيات (وهى المعاطف الفضفاضة) المبطنة بالفراء(٧) •

الفصـــــل الخــــامس عشر

عن مدينة كاماندو ناحية ريوبارله ـ وعن بعض الطيور الموجودة هناك ـ وعن نوع خاص من الثيران ـ وعن الــكراونيين ، وهـــم قبيـــلة من اللصوص ·

تصــل عنــد نهــاية منحدر هــذا الجبــل الى ســـهل يتسع ، في اتجاه جنوبي ، الى مسافة تبلغ مسيرة خمسة أيام ، توجد عند بدايته مدينة اســمها كاماندو (١) ، كانت فيما سبق ، مكانا عظيم الاتساع ، بالغ الأهمية ، ولكنهــا فقدت ذلك في أيامنا هــذه ، وذلك لأن التتــار دمروها وتركوها بلقعا مرات متكررة · وتسمى الناحية المجاورة ريوبارله (٢) ·

ودرجة حرارة السهل دفيئة جــدا · وهــو ينتج القمح والأرز وغيرهما من الحبوب · وينمو على أقرب جزء منه الى التلال أشجار النخيل والرمان ، والسفرجل وأنــواع عديدة من الفواكه الأخرى ، منها فاكهة تسمى تفاحة آدم(٣) وهي غير معروفة في مناخنا البارد · وتوجد القماري (Turtle-doves) هنا بأعداد هائلة نتيجة لوفرة الفواكه الصغيرة التي تمدها بالطعام ، ولعدم اقبال المسلمين على أكلها لأنهم يعدون ذلك مكروها (٤) ·

وهناك بالمثل كثير من التــدرج والدراج والأخيرة منها لا تماثل مثيلاتها بالأقطار الأخرى ، حيث لونها خليط من الأبيض والأسود مع منقار وأرجل حمر (٥) ·

وتوجد بين الماشية أيضا سلالات من نوع غير مألوف وبخاصة نوع من الثيران الضخمة البيضاء ، لها غلاف قصير الشعر أملسه (وذلك نتيجة للمناخ الحار) ، وقرونها قصيرة وغليظة وغير مستدقة الطرف ، ولها بين الأكتاف قتب محدودب أو سنام ، بارتفاع راحتي كفين تقريبا (٦) . وهي حيوانات جميلة ، ولما هي عليه من شديد القوة فانها تحمل أثقالا ضخمة . وتعودت أن تنيخ على الأرض مثل الجمال أثناء تحميلها ثم تنهض بالأحمال .

ونجد هنا أيضا غنما تعادل الحمار في الحجم ولها ذيول طويلة وغليظة تزن ثلاثين رطلا فما فوق ، وهي سمينة لذيذة الطعم(٧) . وتوجد في هذه المقاطعة مدن كثيرة تحيط بها أسوار عالية وغليظة من التراب (٨) ، بقصد الدفاع عن السكان ، ضد غارات الكراونيين (Karaunus) ، الذين يعيثون في البلاد فسادا وينتهبون كل ما تصل اليه أيديهم (٩) .

ولكي يتمكن القارىء من فهم أي نوع من الناس هؤلاء ، ينبغي له ان يفهم أنه كان هناك أمير اسمه نوجودار وهو ابن أخي زاجاتاي ، الذي كان شقيقا للخان الأعظم (أوقطاي) (أوغاداي) وكان يحكم في بلاد التركستان (١٠) .

وبينما كان هذا النيجودار (نيقودار) ، مقيما ببلاط زاجاتاي (جاغتاي) ، راوده الطمع في أن يكون هو نفسه ملكا ، واذ قد سمع أنه توجد بالهند مقاطعة اسمها مالابار (١١) ، يحكمها في ذلك الحين ملك اسمه عز الدين سلطان (١٢) ، ولم تضم الى أملاك التتار بعد ، فانه جمع سرا حشدا تقارب عدته العشرة آلاف من الرجال ، هم أشد من وجد من الرجال فسوقا ويأسا في الحياة ، واذ انفصل عن عمه دون أن يعطيه أية اشارة الى مخططاته ، فانه تقدم بهم من خلال بالاشان(١٣) الى مملكة كيزمور(١٤)، وهناك فقد كثيرا من قومه وماشيته ، بسبب صعوبة الطرق ورداءتها ، ثم

دخل فى خاتمة المطاف مقاطعة مالابار(١٥)· واذ هبط هكذا على عز الدين على غرة ، أخذ منه عنوة مدينة تسمى دلى Dely فضلا عن مدن آخرى كثيرة تقع بالقرب منها ، وهنـــاك بدأ حكمه وآنتج التتار الذين حملهم الى هناك ، وهم رجال شقر البشرة ، باختلاطهم بالنساء الهنديات السمراوات ، الجنس الذى أطلق عليه اسم الكراونيين ، ومعناها بلغــة البـــلاد ، الهجناء أو الخـــلاسيون (١٧) · وهـــؤلاء هم القـــوم الذين يمارسون منذ ذلك الوقت النهب والسلب ، وليس ذلك فقط باقليم ريوبارله ، بل فى كل اقليم يضعون فيه أقدامهم ·

وقد تعلموا ببلاد الهند الفنون السحرية والشيطانية ، التى تمكنوا بواسطتها من انتاج الظلام ، حيث يخفون نور النهار بدرجة تجعل الأشخاص لا يرون بعضهم بعضا ، الا على مسافة قريبة جدا (١٨) · وكلما خرجوا فى غارات السلب وضعوا ذلك الفن موضـــع التنفيـــذ فلا يراهم أحــــد وهم يقتربون ·

وفى أغلب الأحيان تكون هذه الناحية مسرح عملياتهم، ونظرا لأنه متى اجتمع التجار من مختلف النواحى فى هرمز، انتظارا لمن هم فى الطريق من الهند ، فانهم يرسلون خيولهم وبغالهم فى فصل الشتاء ، وقد أرهقت قواها لشـــدة طــول الرحلة الى سهل ريوبارله ، حيث تجد وفرة من الكلأ وتصبح ســمينة · ولعلم الكراونيين بأن ذلك ســيحدث ، ينتهزون الفرصة للقيام بعملية نهب عامة ، ويأخـــذون من يرعـــون الماشية عبيدا ، ان لم يملكوا ما يفتدون به أنفسهم · وقد أحيط ماركو بولو(١٩) نفسه ذات مرة بستار من ذلك الظلام المصطنع ، ولكنه هرب منه الى قلعة كونسالمى (٢٠) ومع هذا فان كثيرا من رفاقه أسروا وبيعوا، كما أعدم آخرون ولهؤلاء القوم ملك اسمه كوروبار ·

الفصـــــل الســـادس عشر

عن مدينة هرمز ، الواقعة على جزيرة غير بعيدة من الأرض الأصلية على بحر الهند ــ وعن أهميتها التجارية ــ وعن الريح الحارة التي تهب عليها •

هناك عند نهاية السهل المنبسط الذى ذكرنا أنه يمتــد فى اتجاه جنوبى الى مسافة رحلة خمسة أيام منحـدر طوله قرابة عشرين ميلا ، الى جوار طريق مفرط الخطورة ، لكثرة ما به من لصوص يهاجمون المسافرين وينتهبون ما معهم عــلى الدوام(١) • ويقودك هذا المنحدر الى سهل آخر يمتاز بمنظره الجذاب الممتع ، وامتداده رحلة يومين ويسمى وادى هرمز • وهنا تعبر عددا من المجارى المائية الجميلة ، وتشهد اقليمــا يغطيه النخيل ، الذى يعيش بينه طائر الدراج الفرانكولين ، وطيور من نوع الببغاء ، وطيور أخــرى غــير معروفة فى مناخنا • ثم تصل فى نهاية المــكان الى حافة المحيط ، حيث تقف على جزيرة لا تبعد كثيرا عن الســاحل ، مدينــة اسمها هرمز (٢) ، يرتاد ميناءها التجار من كل أرجاء الهند ، وهم يجلبون التوابل والعقاقير ، والأحجــار الــكريمة واللؤلؤ ، ومنسوجات الذهب كما يجلبــون أنيــاب الفيلة (العــاج) وأنواعا أخرى مختلفة من البضائع • وهنــا يبيعــون هــذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار ، يتولون توزيعهــا بكل أرجاء العالم • والحق ان هذه المدينة يغلب عليها كثيرا الطابع التجارى ، ولها بلاد وقلاع تابعة لها ، وتعد المكان الرئيسى

بمملكة كرمان كلها(٣) • واسم حاكمها ركدين أتشوماك(٤)، وهو يحكم حكما مطلقا، ولكنه يعترف في الحين نفسه بسيادة ملك كرمان عليه (٥) ويدين له بالولاء • واذا تصادف أن تاجرا أجنبيا مات في دائرة حكمه ، صادر أملاكه ، وأودع المبالغ المتحصلة في بيت ماله (٦) • والسكان لا يقيمون بالمدينة أثناء فصل الصيف ، لسبب ما بها من شدة الحرارة التي تجعل الهواء ضارا بالصحة ، ولكنهم ينسحبون الى بساتينهم الواقعة على امتداد الشاطىء ، أو على ضفاف النهر، حيث يصنعون لأنفسهم على الماء من أعواد الصفصاف أكواخا وخصاصا ، ثم يحيطون هذه الأكواخ بأعواد تدفع في الماء من جانب وعلى الشاطىء من الجانب الآخر مكونين بذلك عريشة من أوراق الشجر تقيهم قيظ الشمس • وهنا يقيمون أثناء الفترة التي تهب فيها ، منذ قرابة التاسعة صباحا حتى الظهيرة ، ريح أرضية يبلغ من شدة حرارتها أن تعوق التنفس وتؤدى الى الوفاة باختناق الشخص الذى يتعرض لها • ولن يستطيع أحد النجاة من تلك الريح اذا فاجأته على السهل الرملي (٧) وما أن يحس السكان باقتراب هذه الريح ، حتى يغمسوا أنفسهم في الماء الى الأذقان ، ويظلون على هذه الحال حتى تتوقف عن الهبوب (٨) • وتأكيدا للشدة الخارقة لهذا القيظ ، يقول ماركو بولو انه تصادف أن كان بهذه النواحى عندما حدثت الظروف التالية : لما أبداه حاكم هرمز ، من اهمال أداء الجزية لملك كرمان ، اضطر الملك أن يعقد العزم على اجباره على أدائها أثناء الفصل الذى يكون فيه أهم سكان منزله خارج المدينة ، أى على أرض القارة ، وأرسل لهذا الغرض كوكبة من الجنود ، تتألف من ست عشرة مائة فارس وخمسة آلاف راجل ، سارت عبر اقليم ريوبارله لتأخذهم على غرة • ومع هذا ، فنظرا لأن الأدلاء أضلوها فقد فاتهم أن يصلوا الى المكان المقصود قبل انسدال الليل ، وتوقفوا ليأخذوا قسطا من الراحة في أجمة لا تبعد كثيرا عن هرمز ،

ولكنهم عندما عاودوا مسيرهم فى الصباح، فاجأتهم تلك الريح الحارة ، فاختنقوا عن آخرهم، ولم ينج منهم واحد ينقل النبأ المشئوم الى مولاه • وعندما علم أهل هرمز بما حدث، وذهبوا لدفن جيف موتاهم ، حتى لا تفسد رائحتهم المنتنة الهواء ، وجدوهم ناضجين قد خبزتهم شـدة الحـرارة ، بحيث ان الأطراف كانت تنفصل عن الجذوع عنـد الامسـاك بهـا ، وبحيث أصبح من الضرورى أن تحفر القبور فى أقرب مكان من الموقع الذى رقدت فيه الأجسام (٩) •

الفصـــل السـابع عشر

عن السفن المستخدمة في هرمز ـ وعن الفصـــل الذى تثمر فيه الفواكه ـ وعن طرق عيش السكان وتقاليدهم ·

ان السفن التى تبنى في هرمز من أردأ الأنواع ، كمـا أنها خطرة على الملاحة ، حيث تعرض التجـار وغـيرهم ممن يستخدمونها لأخطار جسيمة · وترجـع عيوبهـا الى عـدم استخدام المسامير فى بنائها ، وشدة صلابة الخشب وتمرضه للانشقاق والتصدع كالفخار سواء بسواء · وعنـدما يحاول النجار دق مسمار اذا هو يرتد ثانية وكثيرا ما ينكسر · ومن ثم فان الألواح تثقب ، بكل عناية ممكنة ، بمثقاب حديدى قرب حوافيها وتدق فيها دبابيس أو أوتاد خشبية ، وبهـذه الطريقة تثبت الألواح (فى مقـدم السـفينة ومؤخرها) · وبعد هذا تربط الألواح ما ، أو بمعنى أدق تخاط معـا ، بنوع من الحبل المفتول يؤخذ من ليف جوز الهند ، وهى أشجار ضخمة الحجم وتكسوها مادة ليفية تشبه شعر الخيل · وينقع الليف فى الماء حتى تتعفن أجزاؤه اللينة ، وتظل الخيوط أو الفتل نظيفة ، ومن هـذه يصنعون الحبـل المفتـول اللازم لخياطة الألواح وهو يدوم طويلا تحت الماء (١) · ولا يستخدم الزفت (القار) للمحافظة على قيعان السفن ، ولكنهـا تطلى بزيت مصنوع من شحم السمك ثم تسـد بالمشـاقة · وليس للسفينة أكثر من سارية واحدة ، ودفة واحـدة ، وسـطح واحد (٢) · حتى اذا حملت حمولتها غطيت بالأدم : (الجلود الخام) ، وعلى هذه الأدم يضعون الخيول التى يحملونها الى

بلاد الهند· وليس لديهم مراس حديدية ، ولكنهم يستخدمون بدلا منها نوعا آخر من أجهزة الرباط الأرضية (٣) وهو امر نتيجته أنه كثيرا ما يحدث أثناء الأحوال الجوية السيئة ـ (وهذه البحار شديدة العواصف) ، أن تدفع هذه السفن الى الشاطيء وتدمر ·

وسكان ذلك المكان ذوو بشرة قاتمة ، وديانتهم الاسلام· وهم يزرعون قمحهم وارزهم وغيرهما من الحبوب فى شهر نوفمبر ويحصدون محصولهم في مارس (٤) · وهم يجمعون الفاكهة ايضا في ذلك الشهر ، باستثناء البلح وحده لانه يجمع فى مايو ومن البلح مع عناصر أخرى ، يصنعون نوعا جيدا من الخمر (٥) · ومع هذا ، فمتى شربه من لم يتعودوا عليه أحدث لديهم على الفور اسهالا ، حتى اذا شفوا من آثاره الأولى عاد عليهم بالمنفعة ، وأدى الى زيادة وزنهم · ويختلف طعام الأهالى عن طعامنا ، فانهم لو أكلوا خبز القمح ولحم الحيوان لأضر ذلك بصحتهم · وهم يعيشون بصفة رئيسية على التمر والسمك المملح ، مثل سمك التونة ، والسيبول (Ceplatania) وغير ذلك من أنواع أسماك يعرفون بالتجربة انها صحية · وفيما عدا مناطق المستنقعات ، فان أرض هذا الاقليم ليست مغطاة بالعشب وذلك نتيجة للحرارة الشديدة التى تحرق كل شيء ·

وعند وفاة ذوى المكانة من الرجال، تنوح عليهم نساؤهم معولات بصوت مرتفع ، مرة واحدة كل يوم ، أثناء أربعة أسابيع متعاقبة ، كما أن هناك أيضا أناسا يوجدون هنا يتخذون من ذلك الندب حرفة ، ويؤجرون على النطق به فوق جثث أشخاص لا يمتون اليهم بصلة (٦) ·

الفصـــــــل الثـــامن عشر

عن الاقليم الذى يعبر عند مغـــادرة هرمز ، والعـودة الى كرمان بطريق آخر ، وعن مرارة فى الخبز بسبب نوع الماء •

الآن وقد تحدثت عن هرمز ، فانى سأرجىء الحديث عن الهنـد فى الوقت الحاضر ، منتويا افراد كتـاب منفصـل لموضوعها ، على أن أعود الآن الى كرمان فى اتجاه شـمالى • فانت حين تغادر اذ ذاك هرمز ، وتسلك طريقا مختلفـا الى ذلك المكان ، تدخل سهلا جميلا ، ينتج بوفرة كل مادة من مواد الطعام ، وتكثر به الطيور ، وبخاصة طير الحجل • على أن الخبز المصنوع من القمح بتلك المنطقـة ، يعـافه من لم يعودوا لهواتهم عليه ، اذ أن له طعمـا مريرا يرجع الى نـوع المياه ، وهى بأجمعها مرة ومالحـة • وانك لتشـهد فى كل جانب منها جـداول دافئة وشـافية ، تعالج بهـا الأمراض الجلدية شكايات بدنية أخرى غيرها • ويكثر بها البلح وغيره من الفواكه بوفرة كبيرة •

الفصـــــل التاســـع عشر

عن المنطقة الصـــحراوية بين كرمان وكوبيام ، وعن مرارة طعم الماء ٠

عند مغادرة كرمان والسفر ثلاثة أيام ، تصل الى حـــدود صحراء تمتد الى مسافة رحلة سبعة أيام، تصل في نهايتها الى كوبيام (١) ٠ ولا يلتقى المسافر فى أثنـــاء الأيام الثـــلاثة الأولى (من هذه الأيام السبعة) الا بالقليل من الماء ، وذلك القليل مشبع بالملح ، وهو أخضر بلـــون العشب ، ويـــورث الغثيان حتى ليحجم أى انسان عن استخدامه للشرب ٠ فلو أنه ابتلع منه حتى قطرة واحدة لترتب على ذلك اضطراره لقضاء الحاجة الطبيعية عدة مرات ، كما يحدث نفس الأثر لو تناول المرء حبة من الملح المستخرج من ذلك الماء (٢) ٠ ونتيجة لهذا يضطر الأشـــخاص الذين يســـافرون فى تلك الصـــحراء أن يحملوا معهم ما يلزمهـــم من المـــاء ٠ أما الماشـــية فيضطرها العطش أن تشرب من المـــاء ما تجـــد ، فتصاب عـــلى الفـــور بالاسهال ٠

وفى أثناء هذه الأيام الثلاثة لا يشاهد مسكن واحـــد ٠ فالمنطقة كلها قفر قاحل ٠ ولا توجد بها ماشية اذ ليس بهـــا ما يقيم أودها من طعام (٣) ثم تبلغ فى اليـــوم الرابع نهـــرا عذب الميـــاه ، ولـــكن مجـــراه يسرى فى معظم أجزائه تحت

الأرض · على أنه توجد في بعض الأجزاء فتحات مفاجئة تسببها قوة التيار ، ويبدو فيها النهر ظاهرا للعيان مسافة قصيرة ، وهنا يمكن الحصول على الماء بوفرة · فهنا يتوقف المسافر المتعب لينعش نفسه وماشيته بعد ما مسه من متاعب الرحلة السابقة (٤) وتماثل ظروف الأيام الثلاثة التالية ظروف الثلاثة الأولى وتبلغه في النهاية مدينة كوبيام ·

الفصـــــل العشرون

عن مدينة كوبيام وصناعاتها

ان كوبيام مدينة كبيرة ، يتبع أهلها ملة محمد • ولديهم قدر موفور من الحديد والاكاروم (accarum) والاندانيدـوم (andanicum) ، وهم يصنعون هنا مرايا من الصلب الشديد الصقال ، ذات حجم كبير وجمال بالغ • ويوجد بالبلاد كثير من الاثمد (الانتيمونى) والزنك ، كما أنهم يحصلون عـلى التوتياء (اكسيد الزنك) التى تصنع منهـا قطرة ممتـازة للعيون ، فضلا عن الاسبوديوم ، بالطريقة التاليـة : فانهم يأخذون الخام الغفـل من عرق معـدنى معروف بأنه يعطى ما يتناسب والغرض المنشـود ، ويضعونه فى فرن محمى • ويضعون فوق الفرن سفودا من الحـديد يتكون من قضبان صغيرة مرصوصة رصا متقاربا • فيتعلق الدخان أو البخار المتصاعد من الخام بالقضبان أثناء احتراقه ، فاذا هـو برد أصبح صلبا • فتلك هى التوتياء ، وذلك بينما الجزء الغليظ والثقيـل ، الذى لا يتصـاعد ، بل يبقى رمادا فى الفرن ، يصبح هو الأسبوديوم (١) •

الفصـــل الحـادى والعشرون

عن الرحلـة من كوبيـــام الى ولاية تيموشاين على التخوم الشمالية لبلاد فارس ـ وعن نوع خاص من الشجر •

اذا أنت غادرت كوبيام تقـدمت فوق صـحراء ذرعهـا مسيرة ثمانية أيام معرضة لجدب شديد ، فلن يلتقى المرء فيها بفاكهة ولا بأى نوع من أنواع الشجر ، وما لعله يوجد بهـا من ماء مر المـذاق • ومن ثم يضطر المسـافرون أن يحملوا معهم من المـاء ما يكفى لحفظ أودهم ، ولـكن يكره العطش ماشيتهم على تجرع ما تجده فى تلك الصحراء من ماء ، يحاول أصحابها اساغته لها باضافة الدقيق اليه ، وبعـد انقضـاء ثمانية أيام تصل الى ولاية تيموشـان ، التى تقـع صـوب الشمال على تخوم فارس ، ويوجد بها مدن عديدة ومعـاقل حصينة كثيرة (١) ويوجد هنا سهل فسيح امتاز بانتاج نوع من الشجر يسمى شجرة الشمس، ويسميه المسيحيون بالشجرة الجافة (Arbor Secco) ، أى الشجرة الناشفة أو عديمة الثمر• واليكم بيانا بطبيعتها وصفاتها : فهى شـجرة باسقة ، ذات جزع ضخم ، وأوراقها خضراء فى سطحها الأعـلى ، ولكنهـا بيضـاء بزرقة فى السطح السفلى • وهى تنتج قشـورا أو كبسولات كالتى يوجد القسطل داخلها ، ولكنها علب لا تحمل ثمرا وخشبها متين وقوى وذو لون أصفر يماثل لون خشب البقس (١) •

وليس هنـــاك نوع آخر من الشجر غير هذه الى مســافة مائة ميل ، اللهم الا فى ناحية واحدة توجد فيها الأشجار على بعد يقارب عشرة أميال ٠

ويقول أهالى تلك المنطقة ان معركة دارت رحاها هنــا بين الاسكندر ملك مقدونيا وبين دارا (٢) ٠ والمدن مزودة أجود تزويد لــكل ضرورة من ضرورات الحيـــاة ووســائل الراحة ، اذ المناخ هنــا معتــدل لا يتعرض لمتطــرفات القر والحر (٣) ٠ ويدين الناس فيها بالاسلام ٠ وهم على الجملة شعب وسيم ، وبخاصـــة النســـاء منهم ، اللائى هن فى رأيى أجمل من فى الأرض من النساء ٠

الفصـــــل الثـــانى والعشرون

عن شـــيخ الجبـــل ـ وعن قصره وبساتينه ـ وعن أسره ومصرعه ٠

الآن وقد تحدثنا عن هذا الاقليم ، فسنذكر بعد شـيئا عن شيخ الجبل (١) ٠ وأطلق على الناحية التى يقع فيها مقر حكمه باسم منطقة الملاحدة ، ومعناها بلغة العرب المسـلمين مكان الهراطقة ، كما كان قومه يسمون بالملحدين (٢) أى المؤمنين بالشـعائر المتهرطقـة ، وذلك كما نطلق مصـطلح الباثارين على بعض الزنادقة من المسيحيين (٣) ٠

ويشهد ماركو بولو بأنه سمع المعلومات التالية عن هذا الرئيس من أشخاص متفرقين : كان يسمى علو الدين (٤) ، وهو على دين محمد٠ وهناك فى واد مونق محصور بين جبلين شامخين ، أنشأ بستانا فاخـرا ، جمع فيـه أشـهى الثمرات وأعطر النباتات التى استطاع اليها وصولا ٠

وشيدت قصور متنوعة الأحجام والأشكال بمختلف أرجاء المنطقة ، زينت بزخارف من ذهب ، وملئت حجراتها بالصور الزاهية وبالأثاث المكسو بأفخم الدمقس والاستبرق واستخدمت أنابيب صغيرة صممت فى هـذه المبانى ، وبوسـاطتها كانت أنهار من الخمر ولبن وعسل وماء فرات تشاهد وهى تفيض فى كل اتجاه ٠ وكانت تسكن هذه القصور حوريات رشيقات جميلات دربن حتى أتقن جميع فنون الغناء ، واللعب عـلى جميع أنواع الآلات الموسيقية ، والرقص ، كما أتقن بوجه خاص أفانين الغزل والاغراء والدلال ٠ وكن يشاهدن دوما

وقد ارتدين اثمن الثياب وهن يتلاعبن ويسلين انفسهن في الحديقه وما حوت من جواسق وسرادقات ، اذ كان حراسهن من النساء يبقين داخل المباني ولا يسمح لهن ابدا بالظهور .

وكان الهدف الذى رمى اليه الشيخ من انشاء هذه الحديقة الفاتنه هو التالى : ان النبى محمدا وقد عد من يتبعون ملته ويطيعون ارادته بالحظوة بجنات الفردوس ، التي يوجد بها كل نوع من الاشباع الحسى، في رفقة حوريات فاتنات ، فانه (أى الأمير) رغب فى أن يفهم اتباعه عنه انه هو أيضا نبى وأنه ند لمحمد ، ولديه القدرة فى أن يدخل الى الفردوس كل من شاء أن يسعده .

ولكى يحول دون أن يجد أحد سبيله بغير اذن منه الى ذلك الوادى الممتع ، أمر بانشاء حصن قوى منيع عند مدخله ، كان الدخول من خلاله الى الوادى عن طريق سرداب سرى . وكان ذلك الأمير يجمع في بلاطه كذلك عددا من الشبان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، يختارهم من بين سكان الجبال المجاورة ممن يبدون ميلا الى المرانة والدربة العسكرية وتتجلى فيهم صفة الشجاعة المقدامة .

وجرت عادته بالتحدث اليهم يوميا فى موضوع الجنة التي بشر بها النبى ، وعن قدرته هو على الانعام بالدخول اليها على المقربين ، كما كان يأمر فى بعض الأحيان باعطاء الأفيون لعشرة أو دستجة (اثنى عشر) من هؤلاء الشبان . فاذا صرعهم النوم فأصبحوا نصف موتى ، أمر بحملهم الى الأجنحة العديدة للقصور المتناثرة فى البستان . فاذا استيقظوا من حالة التخدير ، صعقت حواسهم جميع الأشياء البهجة التي سلف وصفها ، ووجد كل منهم نفسه محوطا بأوانس فاتنات يغنين له ويلعبن بالآلات ويستهوين لبه وحواسه بأفتن أنواع المداعبة والعناق ، ويقدمن اليه أيضا أشهى اللحوم وأفخر الخمور ، ولا يزلن به حتي يسكر بما

هو فيه من فرط المتعة وما حوله بالفعل من أنهار ومن لبن وخمر ، حتى يعتقد تماما أنه في الفردوس ، ويحس بعزوف عن التخلى عن مباهجها ، فاذا انقضت بهم على تلك الحال أربعة أيام أو خمسة دفعوا بهم ثانية الى حالة من النعاس وحملوا الى خارج البستان • وعندما يدخلون الى حضرته فيسألهم أين كانوا كان جوابهم :

« في الفردوس بفضل عطف سموكم » ثم يعمدون ، بحضرة البلاط كله الذى يصغى رجاله اليهم بفضول وذهول وتلهف ، الى تقديم بيان تفصيلى عن المشاهد التى شهدوها رأى العين •

وعندئذ يقول الرئيس مخاطبا لهم : « لقد وعدنا رسول الله وكان وعده حقا، بأن الجنة يرثها عبادالله الصالحون الذين يدافعون عن مولاهم ، واذا أظهرتم اخلاصا فى طاعة أوامرى ، فان ذلك المصير السعيد ينتظركم » • حتى اذا سرت فيهم الحماسة بأقوال من هذا النوع ، كان كل فرد فيهم يعد نفسه سعيدا حين يتلقى أوامر سيده ويبدى توقه الى لقاء الموت فى خدمته (٥) •

وكانت نتيجة هذا النظام ، أنه متى جرؤ أى أمير مجاور أو بعيد على اثارة استياء هذا الرئيس ، كان جزاؤه الموت على يد هؤلاء السفاكين المدربين • ولم يكن أحد منهم يحس أدنى رهبة عند مخاطرته بفقد حياته ، التى لم يكن لها عندهم وزن كبير ، ما تمكنوا من تنفيذ ارادة مولاهم •

وبناء على هذا أصبح طغيانه موضع الرهبة فى جميع الأقطار المجاورة ، وقد اتخذ لنفسه أيضا وكيلين أو ممثلين، كان مقر أحدهما بالقرب من دمشق ، ومقر الآخر فى بلاد الكرد (٦) ، واتبع هذان الوكيلان نفس الخطة التى ابتدعها الشيخ ، لتدريب أتباعهما الفتيان •

وهكذا لم يكن هناك شخص ، مهما بلغت قوته ، بمستطيع وقد استنفر عداوة شيخ الجبل ، أن يفلت من الاغتيال . ولما كانت ولايته تقع داخل ممتلكات أولاءو (هولاكو) شقيق الخان الأعظم (مانكو) ، وترامت الى مسامع ذلك الأمير أنباء الفظائع التي كان يرتكبها على الوجه المبين آنفا ، فضلا عن استخدامه بعض الناس لنهب المسافرين أثناء مرورهم داخل ولايته ، فانه في عام ١٢٦٢ جرد أحد جيوشه لمحاصرة ذلك الرئيس في قلعته . على أنها أظهرت قدرة قوية على الدفاع ، بحيث انقضت ثلاث سنوات دون أن يلم بها أدنى تأثير ، حتى اضطر في النهاية الى التسليم بسبب النقص في الأطعمة ، وبعد أن أخذ أسيرا أمر به فأعدم . ودمرت قلعته وخربت جنة فردوسه (٧) . ومنذ تلك اللحظة لم يعد هناك شيخ للجبل .

الفصـــــل الثـالث والعشرون

عن سهل خصيب ذرعه مسيرة ستة أيام ، تعقبه صحراء ثمانية أيام ، لابد من اختراقهما في الطريق الى مدينة سابورجان ـ وعن القـاوون الممتـاز الذى ينبت هناك ـ وعن مدينة بلخ ٠

بعد هذه القلعة ، يؤدى الطريق الى سهل فسيح ثم يمر بعـد ذلك من خـلال اقليم منوع السـطح بين تل وواد ، به العشب والمرعى ، فضلا عن الفواكه بوفرة عظيمة ، استطاع بفضـلها جيش أولاءو أن يظـل بتلك الديار تلك المـدة الطويلة ٠ وتمتد هذه المنطقة الى مسـافة مسـيرة ستة أيام كاملة ٠ وهي تحوى كثيرا من المدن والأماكن المحصـنة (١) كما أن سكانها من المسلمين ٠ وعند هذا تبدأ صحراء ، تمتد أربعين أو خمسين ميلا (٢) ، لا يوجد بهـا أثر للماء ، ومن الضرورى للمسافر أن يتزود بما يلزمه من المـاء عنـد بدء رحلته ٠ ونظرا لأن الماشية لا تجد شرابا حتى يتم اجتيـاز هذه المفازة ، وجب اتخاذ أعظم الاحتياط حتى تصل الى مكان فيه ماء يروى ظمأها ٠ ثم يصل المسافر عنـد انتهاء رحلة اليوم السادس (٣) ، الى مدينة تسمى : سابورجان (٤) ، مزودة بوفرة بكل نوع من أنواع المئونة ، كمـا أنهـا تشتهر بوجه خاص بانبات أجود ما في العالم من القاوون ٠ ويتم الاحتفاظ بهذا القاوون بالطريقة التالية : فانه يقطع لولبيا الى رقائق رفيعة ، كما يقطع القرع عندنا وبعد تجفيفه في الشمس ، يرسل بمقادير كبيرة الى الأقطار المجـاورة ، لكى

يباع بها ، لأنها تلتمسه بشغف ، وذلك أنه شـديد الحـلاوة كعسل النحل (٥) • والصيد وفير هناك أيضا بين حيوان وطير •

واذ نترك هذا المكان فاننا سنتحدث الآن عن اخر اسمه بلخ : وهي مدينة كبيرة وفاخرة (٦) على أنها كانت فيما سلف أعظم كثيرا ، ولكن أصابها التتار بأضرار جسـيمة ، فقـد هدموا شطرا من مبانيها أثناء غاراتهم المتكررة • وكانت بها قصور كثيرة مبنية من الرخام ، وميـادين فسـيحة لا تزال موجودة ، وان أصبحت في حالة متهـدمة (٧) • وطبقـا لما يرويه السكان فان هذه المدينة هي التي اتخذ فيها الاسكندر ابنة الملك دارا زوجا له (٤) • وتنتشر الديانة الاسلامية هنا أيضا (٥) ويمتد سـلطان أمير التتـار الشرقيين حتى هـذا المكان ، واليه تمتد حدود الامبراطورية الفارسية في اتجاه شمال بشرق (١٠) وعنـد مغادرتك بلخ ومواصـلتك نفس الطريق أمد يومين ، فانك تجتاز اقليما تعـوزه كل دلالات السكنى ، حيث لاذ جميع الناس بمواطن منيعة في الجبال ، التماسا للأمان من هجمات قطاع الطرق الخارجين على القانون الذين يجوسون خلال تلك النواحي • فهنا تعزر المياه وتكثر القنائص بشتى أنواعها • كمـا توجد الأسـود أيضـا بتلك الأرجاء (١١) ، وهي كبيرة الجثة وفيرة العدد • ومع ذلك فان المؤن نادرة في منطقة التلال التي يتم اجتيازها أثنـاء هذين اليومين ، وينبغي للمسافر أن يحمل معه طعاما يكفيه هو وماشيته •

الفصـــل الرابع والعشرون

عن القلعة المســـماة ثايكان ـ وعن عادات السكان وعن تلال الملح .

عند نهاية رحلة هذين اليومين تصل الى قلعة تسمى : ثايكان ، تقوم بهـا سوق عظيمة للحبوب ، لانها تقع في قطر جميل كثير التمرات . والتلال التي تقع في جنوبها ضخمة ومرتفعه(١) . وكلها تتكون من ملح أبيض مفرط الصلابة ، يأتي الناس في الدائرة المحيطة به عـلى مسـيرة ثلاثين يوما للتزود منه ، اذ يقدر أنه أنقى ما في العالم من ملح ، ولكنه في الوقت نفسه من الصلابة بحيث لا يستطاع فصله الا بآلات حديدية (٢) . يبلغ من عظم مقـاديره ، أن جميـع أقاليم الأرض يمكن أن تتزود به من هناك .

وثمة تلال أخـرى تنتج اللوز والفسـتق (٣) ، وهما سلعتان يتخذ منهما السكان تجارة عظيمة . فاذا أنت غادرت ثايكان وسافرت ثلاثة أيام ، في اتجاه شمالي بشرق ، فانك تمر من خلال اقليم آهل بالسكان ، جميل المنظر وتكثر فيـه الفاكهة والحبوب والكروم . والناس هناك مسلمون كما أنهم متعطشون للدماء ويتصفون بالغدر والخيانة . وهم شديدو الولع بالفسوق والافراط في الشراب ، الأمر الذى يشجعهم عليه امتياز نبيذهم الحلو (٤) وهم لا يلبسون على رؤوسهم شيئا الا حبلا (عقالا) ، طوله سبعة أشبار تقريبا ، يلفونه حول الرأس . وهم رياضيون ممتازون ، ويصيدون كثيرا من الضوارى دون أن يتخذوا أى ثياب ، عدا جلود ما يصيدون من وحش ، ومنها أيضا يصنعون أحـذيتهم . وهم يتعلمون جميعا كيف يجهزون الجلود .

الفصـــــل الخامس والعشرون

عن مدينـة سـكاسم ، وعن حيوان الشيهم الموجود بها .

فى أثناء رحلة تمتد ثلاثة أيام ، توجـد مـدن وقلاع كثيرة ، وعند تلك المسافة تصل الى مدينة تسمى سكاسم(١)، يحكمها رئيس يعادل لقبه لقب البارون أو الكونت عندنا ، كما أنه يحكم بين الجبال مدنا آخرى ومواقع منيعة . ويمر فى وسط هذه المدينة نهر اتساعه لا بأس به . وهنا توجد الشياهم التى تكور نفسها عندما يطلق الصـائدون عليهـا كلابهم وتبرز بهياج شـديد الأشـواك التى تغطى جلودها ، فتجرح الرجال والكلاب على السواء . ولسكان ذلك القطر لغتهم الخاصـة ، ويقيم الرعاة الذين يرعـون الماشـية بين التلال فى مغارات يصنعونهـا بأنفسـهم . وليست هــذه بالعملية العسيرة على كل حال ، وذلك لأن التلال لا تتكون من الصخر بل من الطين . وعند مغادرتك هذا المكان تبدأ رحلة طولها ثلاثة أيام دون أن ترى أى نوع من أنواع المبانى ، أو تلتقى بالضروريات التى يحتـاج اليهـا المسـافر ، وذلك فيما عدا الماء ، على أنه يوجد للخيـل مرعى كاف . وأنت مضطر تبعا لذلك أن تحمـل معك كل ما تحتـاج اليــه من أشياء على الطريق . وفى نهاية اليوم الثالث تصل الى ولاية بالاشان (٢) .

الفصـــل السادس والعشرون

عن ولاية بالاشان – وعن الأحجار النفيسة التي عثر عليها هناك والتي تصـبح ملكا للملك – وعن خيـول الاقليم وبزاته – وعن الجو الصحي للجبال – وعن الذى تزين به النساء اشخاصهن •

يدين الناس بولاية بالاشان بالاسلام ، ولهم لغة خاصة يتحدثون بها • والولاية مملكة متراميـة الأطـراف ، يبلغ طولهـا مسـيرة اثنى عشر يـوما كاملة ، ويحكمهـا أمراء يتعاقبون عليها بالوراثة ، وكلهم ينحدر من الاسكندر ، عن طريق ابنة دارا ، ملك الفرس • وحمل هؤلاء لقب ذىالقرنين الوارد فى اللسان العربى ، كمعادل للاسكندر (١) •

وتوجد بالاقليم الأحجار الكريمة المسماة بيواقيت البالاس (Balass rubies) ، وهى من صنف ممتاز وذات قيمة عظيمة وتسمى كذلك نسبة الى اسم الـولاية (٢) وهى مدفونة فى الجبال العالية ، على أن القوم لا يبحثون عنها الا فى جبـل واحد يسمى جبل سيكينان (٣) • ففى هذا الجبل يأمر الملك بتشغيل المناجم ، بنفس الطريقة المتبعة فيما يتعلق بالذهب أو الفضة ، وعن هـذه الوسيلة وحـدها يحصـل عليها ، فلا يجرؤ انسان والا عرض نفسه للقتل ، أن يقوم بحفـر لذلك الغرض مالم يحصل على رخصة من الملك كانعام خاص عليه من جلالته •

وقد يحدث بين فينة وفينة أن يهبها الملك هدايا للأجانب الذين يمرون من خلال ممتلكاته ، وذلك لانه لا يمكن الحصول عليها بالشراء من غيره من الناس ، كما لا يمكن تصـديرها بغير اذن منه . وغرضه من هذه القيود هو أن يواقيت بلاده التى يعتقـد أن مكانتـه مرتبطة بهـا ، ينبغى ان تحتفظ بقيمتها وتحافظ على أثمانهـا العاليـة ، وذلك أنه لو أمكن استخراجها جزافا بغير تمييز ، واستطاع كل انسان شراءها واخراجها من المملكة ، وهى ما هى من شدة الوفرة ، فانها سريعا ما تفقد قيمتها . ومنها ما يرسله الملك هدايا لتحية غيره من الملوك والأمراء ، ومنها ما يسـلمه جزية (لمـولاه الأعلى) ، ومنها كذلك ما يبادل عليه بالذهب والفضة وهذه اليواقيت هى التى يسمح بتصديرها .

وهناك جبال يعثر فيهـا بالمثـل على عروق من معـدن اللازورد Lapis Lazuli ، وهو الحجر الذى يعطى اللون الأزرق اللازوردى المسمى بالأزرق الشرقى (Vitra marine) (٤) ، وهو هنا أبدع نوع فى العالم .

ومناجم الفضة والنحاس والرصـاص عظيمة الانتـاج أيضا ، والاقليم يعد من البلاد الباردة . والخيل التى تربى به ذات سلالة ممتازة وتتصف بسرعتها الفائقة . وسنابكها من الصلابة بحيث لا تحتاج الى حدوة (٥) .

وجرت عادة الأهالى بالرمح بهـا عـلى المنحدرات التى لا تستطيع ماشية أخرى أن تجرؤ عـلى العـدو عليها أو تأبى ذلك . وأكدوا أنه منذ زمن غير بعيد كانت لا تزال توجد فى تلك الولاية ، خيول من سلالة خيل الاسكندر الشهيرة المسماة بوكيفالوس (Bucephalus) ، وكلها كانت تولد بغرة مميزة فى جبينها .

وكانت السلالة بأجمعها ملكا لأحد أعمام الملك ، ولمـا أبى ذلك العم تسليمها لابن أخيـه كان الاعـدام جـزاءه ،

وأعمى الحنق على مصرعه أرملته فأمرت بالخيل كلها فأعدمت، وبذلك ضاعت هذه السلالة على العالم • وتوجد فى الجبال بزاة من النوع المسمى بالصقر (Falco Sacer)، وهى طيور ممتاز شديدة فى طيرانها ، فضلا عن نوع يسمى (Falco Lanarius) وهناك أيضا بزاة من نوع ممتاز (Falco astur, or Paiumbarius) وبواشق (Falco nisus).

وأهالى ذلك القطر قناصة خبراء يجيدون طرد كل من البهائم والطيور • وينبت القمح الجيد هناك وكذا نوع من الشعير ليس له القشرة (٦) الخشنة • وهم لا يستخرجون الزيت من الزيتون ، بل يعتصرونه من أنواع معينة من الجوز ومن الحب المسمى بالسمسم (٧) ، الذى يشبه بذر الكتان لولا أنه فاتح اللون ، والزيت الذى يخرجه هذا السمسم أفضل ، وأطيب نكهة من أى زيت آخر ، ويستخدمه التتار وغيرهم من سكان تلك الأرجاء •

وبهذه المملكة كثير من الشعاب الضيقة ، والمواقع الحصينة التى تقلل من الخوف من أية قوة أجنبية تدخلها بقصد عدائى • والرجال فيها رماة نبل مهرة ورياضيون ممتازون ، يكتسون عادة بجلود الحيوانات الضارية ، وذلك لندرة غيرها من المواد اللازمة للكساء • وتوفر الجبال المرعى اللازم لعدد لا حصر له من الأغنام التى تتجول فى قطعان عدتها أربعمئة أو خمسمئة أو ستمئة وكلها برية ، ومع أن العديد منها يؤخذ ويذبح فانه لا يبدو أنها يعتريها أى نقص (٨) •

وهذه الجبال مفرطة الارتفاع ، الى حد أن صعود رجل عليها حتى قمتها يستغرق منه يوما كاملا من الصباح الى المساء • وتقع بينها سهول فسيحة تكسوها الحشائش والأشجار ، وجداول كبيرة من أنقى الماء وأعذبه تهوى بين شقوق الصخور • وتعيش بهذه الجداول أسماك النقط (السلمون الأرقط) وكثير غيرها من أنواع السمك الشهية •

والهواء فوق قمم الجبال بالغ الصحية ، بحيث انه متى وجد من يسكنون المدن والسهول والوديان فى أسفل ، أنفسهم مصابين بالحمى أو غيرها من أمراض الالتهابات ، فانهم ينتقلون على الفور الى هناك ، ويقيمون ثلاثة أو أربعة أيام فى ذلك الموقع ، فيستردون بذلك صحتهم .

ويؤكد ماركو بولو أنه جرب في شخصه آثاره الرائعة ، وذلك لأنه بعد أن ألزمه المرض الفراش بذلك الاقليم زهاء سنة (٩) نصحه الناس بتغيير الهواء بالصعود الى أعلى التلال، فبدأ من فوره دور النقاهة . وينتشر بين نساء الطبقة العليا زى خاص ، فهن يرتدين في أسفل خصورهن ، على مثال السراويل ، ضربا من الرداء ، يستخدمن فى صنعه ، حسب مواردهن المالية مائة أو ثمانين أو ستين ذراعا من قماش القطن الرفيع ، الذى يجمعنه ، أو يثنينه طيات لكى يضخمن الحجم الظاهرى لأردافهن ، اذ تعد صاحبة أضخم عجيزة أجمل النساء جميعا (١٠) .

الفصـــــل السابع والعشرون

عن ولاية باسكيا التى تقع جنوب الولاية السابقة ـ وعن الحلى الذهبية التى يلبسها السـكان فى آذانهم ـ وعن عاداتهم ٠

أنت اذا غادرت بالاشان وسافرت فى اتجاه جنوبى مدة عشرة أيام تبلغ ولاية باسكيا (١) ، التى لسكانها لغة خاصة ٠ وهم يعبدون أصناما ، ولون بشرتهم قاتم وميولهم شريرة ، ويتقنون فن السحر وتعازيم الشياطين ، وهى دراسة يكبون عليها باستمرار ٠ وهم يلبسون فى آذانهم حلقات مدلاة من الذهب والفضة ، ومرصعة باللآلىء والأحجار النفيسة(٢) ٠ ومناخ الولاية مفرط الحـرارة فى بعض أجزائهـا (٣) ٠ وطعام السكان هو اللحم والأرز (٤) ٠

الفصـــــل الثــامن والعشرون

عن ولاية كزمور الواقعة فى اتجاه الجنوب الشرقى • وعن سكانها المهرة فى السـحر ــ وعن مواصلـتهم مع البحـر الهنــدى ــ وعن طائفـة من النساك ، وطريقة عيشهم ، وتقشفهم غير العادى •

ان كزمور ولاية على مسيرة سبعة أيام من باسكيا (١) • ولسكانها لغتهم الخاصة أيضا (٢) • وهم على مهارة تتجاوز كل من عداهم في فتون السحر ، حتى ليمكنهم اجبار أوثانهم على الكلام ، وان كانت بطبيعتها بكماء صماء • ويمكنهم بالمثل أن يغطشوا (يعتموا) النهار ويقوموا بمعجزات أخرى كثيرة • ولهم مكانة بارزة بين الأمم الوثنية ، ومن عنـدهم تصدر الأصنام التى تعبد بمناطق أخرى (٣) • وتمتد من هذا القطر مواصلة مائيـة الى البحـر الهنـدى (٤) وبشرة الأهالى سمراء قاتمة ولكنهم ليسوا سودا بأية حال ، ومع أن النساء سمراوات فانهن وسيمات جدا • واللحم طعامهم (٥)، ومعه الأرز وغيره من الحبوب ، ولكنهم على الجملة أميل الى الاقتصاد • والمناخ حار باعتدال (٦) • ويوجـد فى هـذه الولاية ــ فضلا عن العاصمة ــ مدن ومعاقل أخرى كثيرة • وبها كذلك غابات ومنـاطق صـحراوية وممرات وعرة فى الجبال ، تمنح السكان الأمن من الغزو (٧) • وليس ملكهم تابعا لأية دولة • وفيهم طبقة خاصـة من الأتقيـاء ، الذين يعيشون فى مجتمعات ، ويراعون تقشفا دقيقا فى طعامهم

وشرابهم وعلاقتهم الجنسية ، ويمتنعون عن كل متعة حسية، حتى لا يكدروا ما يعبدون من صنم • ويعيس هـؤلاء الأشخاص حتى يبلغوا سنا عالية • ولهم أديرة كثيرة يمارس فيها بعض الرؤساء أعمال رؤساء الأديرة عندنا ، كما ان جمهرة الشعب الغفيرة توقرهم أعظم توقير(٨) • وأهالى هذا القطر لا يزهقون حياة أى كائن حي ، ولا هم يسفكون دماء ، واذا هم جنحوا الى أكل اللحم ، فلابد أن يقوم المسلمون الذين يسكنون بين ظهرانيهم بذبح الحيوانات (٩) • وتباع مادة المرجان التى تنقل الى هناك من أوربا بسعر أعلى منه فى أى قطر من أقطار العالم •

واذا أنا مضيت في نفس الاتجاه ، قادتنى قدماى الى بلاد الهند ، على أنى رأيت الاحتفاظ بوصف ذلك القطر لكتاب ثالث ، ومن ثم فانى سأعود الى بالاشان ، منتويا أن أسلك من هناك الطريق المستقيم المؤدى الى كاثاى ، وأن أصف ، كما حدث منذ بداية الكتاب ، لا فقط الأقطار التى يخترقها الطريق مباشرة ، بل أيضا الأقطار التى تقع الى جواره عن اليمين واليسار (١٠) •

الفصـــــل التاســع والعشرون

عن ولاية فوخان ـ وعن صـعود مدته ثلاثة أيام يفضى الى قمة جبل عال ـ وعن سـلالة خاصة من الغنم توجد هنـاك ـ وعن أثر الارتفـاع العظيم على النيران ـ وعن حياة الاهالى المتوحشـــة ٠

متى غادرت ولاية بالاشان ، وسرت فى اتجاه وسط بين الشمال الشرقي والشرق ، تمر على كثير من القلاع والمساكن تقوم على ضفتى النهر ، وتتبع شقيق ملك ذلك المكان وبعد مسيرة ثلاثة أيام ، تصل الى ولاية تسمي فوخان ، تمتد هى نفسها طولا وعرضا بمقدار مسيرة ثلاثة أيام (١) ، والناس بها مسلمون ، يتحدثون لغتهم الخاصة ٠ وهم متحضرون فى عاداتهم ، ويعدون من ذوى الاقدام والجسارة فى الحرب ٠ وكبيرهم يحكم بلاده كاقطاعة تابعة لبالاشان٠ وهم يمارسون طرقا عديدة فى اقتناص الحيوانات البرية ٠ فاذا أنت غادرت هذا القطر ، وتقدمت مسيرة ثلاثة أيام أخرى سالكا طريقا شرقيا شماليا بشرق ، متوقلا جبلا بعد جبـــل ، وصلت فى النهاية الى نقطة فى الطريق ، يخيـــل اليك فيها بأن القمم المحيطة بك أعلى ما فى العالم من أراض وهنـــا تشـــهد بين سلسلتين جبليتين ، بحيرة ينساب منها نهر جميل ، يواصـــل مسيره فى وسط سهل رحيب منبسط ، تغطيه أنضر الخضرة ٠ والحق انه من جودة الكلأ بحيث ان أشـــد الماشـــية هزالا لو حولت اليه لأصبحت سمينة فى مدى عشرة أيام ٠ وتوجـــد

فى هذا السهل حيوانات بريه فى أعـداد كبيرة ، وبخاصـه ضرب من الشياه ذات حجم ضخم ، ولها قرون ، طولها ثلاثه واربعه واحيانا ستة اشبار • ومن هذه القرون يصنع الرعاة مغارف واوعيـة يحفظون فيهـا اطعمتهم ، وبنفس المـواد ينشئون السياجات لحصر ماشـيتهم وحمايتهـا من الذئاب ، التى يقولون انها تزعج الاقليم كله بهجماتهـا والتى تقضى بالقتل على كثير من هذه الأغنـام أو الأعنـاز البريه (١) • ونظرا لوجود قرونها وعظامها بمقادير كبيرة ، تجعل منهـا أكواما على جانبى الطريق بقصد ارشاد المسافرين أثناءالموسم الذى يتغطى فيه بالثلوج ، ويمتد الطـريق اثنى عشر يوما على امتداد هذا المنبسط المرتفع ، الذى يسمى البامير(٢) ، ولما كنت فى أثناء ذلك الـوقت كله لا تلتقى بأية منـاطق سكنية ، فمن الضرورى والحالة هذه أن تتزود بالمؤن منـذ البداية • ويبلغ من شدة ارتفاع الجبال ، ألا ترى طيـور قرب قممها ، وهناك شيء تأكد ، رغم أنه قد يبدو غريبـا وغير عادى ، وهو أنه نظرا لشدة برودة الهـواء ، لا تعطى النيران متى أشعلت نفس درجة الحرارة المعتادة فى المـواقع المنخفضة ، ولا هى تنتج نفس الأثر فى طهى الأطعمة •

وبعد قيامك برحلة الاثنى عشر يوما هذه يتبقى أمامك أربعون يوما ترحل فيها فى الاتجاه نفسه ، فوق جبال وعبر وديان ، تجيء فى تعاقب مستمر ، مع عبـور أنهـار كثيرة ومناطق صحراوية دون رؤية أية مساكن أو ظهورأية خضرة، وتبعا لذلك لابد لك أن تحمل معك كل نوع من أنواع المواد الغذائية • ويسمى هذا الاقليم باسم بيلورو (٣) • ويسكن حتى بين أعلى الجبـال ، قبيلة من قوم متوحشـين شرسـين يعبدون الأوثان ، ويعيشـون عـلى ما يقتلون من حيوان ، ويكتسون بجلودها •

الفصل الثلاثون

عن مدينة كاشكار (قشغر) وعن تجارة سكانها •

وأخيرا تصل الى مكان يسمى كاشكار (كشغر) ، يقال انه كان فيماسلف مملكة مستقلة، ولكنها الآن خاضعةلسلطان الخان الأعظم (١) • ويدين سكانها بالاسلام • والولاية فسيحة الأرجاء ضخمة وتحوى مدنا وقلاعا كثيرة ، أكبرها وأهمها (كشغر) (٢) • ولغة الأهالى خاصة بهم • وهم يعيشون من التجارة والصناعة وبخاصة مصانع القطن • ولديهم حدائق مونقة وبساتين وكروم ذات بهجة • وتتبع بلادهم مقادير موفورة من القطن، فضلا عن الكتان والقنب • ويسافر تجار من هذا القطر الى أقطار العالم طرا ، ولكنهم فى الحقيقة جنس جشع دنىء (٣) ، يأكلون الردىء من الطعام ويشربون الأردأ • وفضلا عن المسلمين فان بين السكان كثيرا من المسيحيين النساطرة ، الذين يسمح لهم العيش فى ظل شرائعهم الخاصة والاحتفاظ بكنائسهم • وامتداد الولاية رحلة خمسة أيام •

الفصـــل الحــادى والثلاثون

عن مدينة سمركان ، وعن العمود المعجزى بكنيســـة القديس يوحنـــا المعمدان .

ان سمركان (سمرقند) مدينة فاخرة ، تزينها الحدائق الجميلة ويحيط بها سهل ينتج به جميع ما يشتهيه الانسان من الفواكه (١) . والسكان الذين يعتنق بعضــهم الاســلام وبعضهم الآخر المسيحية ، هم رعايا ابن أخ للخان الأعظم ، ومع هذا فليس بينهما ود ، وانما هما على العكس فى نزاع مستمر وحروب كثيرة (٢) وتقع هــذه المدينة فى الاتجــاه الشمالى الغربى . ويقال ان معجــزة حدثت هنــاك فى ظل الظروف التالية : حدث منذ أمد غير بعيد أن اعتنق المسيحية أمير يسمى زاجاتاى ، (جاغتاى) كان أخا شــقيقا للخــان الأعظم (الجالس على العرش عندئذ) . فابتهج المســيحيون سكان المنطقة أيما ابتهاج ، وانطلقوا بعطف الأمير ورعايته يشيدون كنيسة وكرسوها على اسم القديس يوحنا المعمدان . وكان بناؤها على صورة تجعل كل ثقل السقف (وهو قرص دائرى) مرتكزا على عمود فى الوســط ، وثبتوا فى أســفل العمود حجرا مربعا ليكون له أساسا ، أخذوه من أحد مساجد المسلمين الذين لم يجرءوا على منعهم من فعل ذلك . ولــكن عندما توفى زاجاتاى، ولم يبد ولده الذى أعقبه على العرش ميلا الى اعتناق المسيحية ، فان نفوذ المسلمين عنده بلغ من القوة أن جعلهم يحصلون منه على أمر بأن يرد اليهم خصومهم الحجر

الذى استولوا عليه ، ومع أن المسيحيين عرضوا عليهم دفـع تعويض مالى ، فانهم أبوا الاصغاء الى ذلك الاقتراح ، لعلمهم بأن ازالته ستؤدى الى انهيار الكنيسة • وفى هذه المحنة لم يسع المسيحيين المنكوبين الا أن يستغيثوا ، دامعى الأعين ذليلى الأنفس ، بعون القديس المجيد يوحنا المعمدان • فلما أن وافى اليوم الذى وجب عليهم فيه أن يردوا الحجر ، حدث بفضل شفاعة القديس ، أن رفع العمود نفسه من قاعدته مقدار ثلاث راحات (أشبار) ليسهل عليهم ازالة الحجر ، ولا يزال مستمرا على ذلك الوضع بغير دعامة الى يومنا هذا (٣) • الآن وقد علمنا عن هذا ما فيه الكفاية ، فاننا سننتقل الى ولاية كركان •

الفصـــــل الثاني والثلاثون

عن ولاية كركان ، التي يصـاب
سكانها بتورم الساقين والتهاب الغدة
الدرقية (الجوثر) •

عنـدما تغادر هذه الناحية تدخل ولاية كركان (١) ، التي تستمر مسافة رحلة خمسة أيام ومعظم سكانها مسلمون مع بعض مسيحيين نساطرة ، وكلهم رعايا للخان الأعظم • والمواد الغذائية وفيرة هنـا ، شـأن القطن أيضا • والناس صناع مهرة • وهم مصابون على الجملة بتورم في الساقين ، وأورام في الحلق ، ترجع الى نوع الماء الذي يشربون (٢) • وليس في هذا القطر شيء آخر جدير بالملاحظة •

الفصـــــل الثالث والثلاثون

عن مدينة كوتان ، المزودة بوفرة
بجميع ضروريات الحياة .

اذا أنت اتبعت طريقا بين الشمال الشرقي والشرق ، وصلت بعد ذلك الى ولاية كوتان (١) وامتدادها رحلة ثمانية أيام . وهي تحت سيادة الخان الأعظم ، والنـــاس فيهـــا من المسلمين . وتحتوى عـــلى مدن ومعـــاقل كثيرة ، وان كانت المدينة الرئيسية ، التي يطلق اســـمها عـــلى الولاية ، هي كوتان . وكل شيء لازم لحياة البشر موجـــود هنـــا بأعظم وفرة . وهي تنتج كذلك القطن والكتان والقنب والحبوب والخمور وغيرها من السلع . ويزرع السكان المزارع وحقول الكروم ، ولديهم حدائق كثيرة (٢) . وهم يرتزقون أيضا بالتجارة والصناعات ، ولكنهـــم ليســـوا جنـــدا صـــالحين ، وسنتحدث الآن عن ولاية اسمها بايڽ .

الفصـــــل الرابـع والثلاثون

عن ولاية بـاين ـ وعن العقيق الأبيض واليشـب الموجـودين فى نهرهـا ـ وعن عـادة عجيبة تتعلق بالزواج .

ان باين ولاية امتـدادها مسـيرة خمسة أيام تقع فى الاتجاه الشرقى بشـمال شرق (١) . وهى تحت سـلطان الخان الأعظم وتحوى كثيرا من المدن والمواقع الحصينة التى تسمى المدينة الرئيسية فيها باسم باين أيضا . ويجرى فى هذه الولاية نهر ، توجـد فى قاعه كثير من تلك الأحجـار المسماة بالعقيق الأبيض واليشب (Chalcedonies and Jasper) (٢) ويمكن الحصول على جميع انـواع الأطعمـة وتنتج البلاد القطن أيضا . ويعيش السكان على الصناعة والتجـارة . وهم يمارسون العادة التالية وهى أنه متى سافر رجل متزوج الى منطقـة بعيـدة عن وطنـه وغاب عشرين يوما ، كان لزوجته الحق ، ان وجدت ميلا الى ذلك ، أن تتخـذ زوجا آخر ، كما يعمد الرجال ، عملا بنفس المبـدأ الى الـزواج حيثما اتفق أن أقاموا . وتقع جميع الولايات سالفة الذكر وأعنى بها قشـغر . وكوتان وباين ، الى صـحراء لوب ، داخـل حـــدود التركسـتان (٣) . ثم تعقب ذلك ولاية شارشان .

الفصـــــل الخامس والثلاثون

عن ولاية شـــارشان ـ وعن أنواع الأحجار الموجودة بأنهارهـا ـ وعن حاجة السكان الدائمة ، الى الصحراء عند اقتراب جيوش التتار •

تعد شارشان أيضا ولاية من ولايات التركستان ، تقع في اتجاه شرقي شمالى بشرق (من باين) كانت فيما خلا في الزمان زاهرة مثمرة ، ولكن التتار خربوها وتركوها يبابا • والسكان هنــاك من المســلمين • وقصبتها الكبرى تســمى كذلك شارشان (١) • ويجرى فى هــذه الولاية عدة أنهــار كبيرة ، يوجــد فيهــا العقيق الأبيض واليشب ، اللذان يحمــلان ليباعا فى كاثاى (٢) ، يبلغان من الــوفرة حــدا يجعلهما يشكلان سلعة تجارية مهمة • وأرض الاقليم الممتد من باين الى هــذه المنطقة ، وكذا فى كل امتــداده طــولا وعرضا مكونة من رمال لا نهاية لها (٣) ، ومعظم الماء فيه مر لا يستساغ ، وان كان عذبا وطيبا فى أماكن معينة • واذا مر بهذه البلاد جيش من التتار وكان عدوا سلب أمتعة السكان وأموالهم ، وان كان صديقا ذبح ماشيتهم والتهمها ، من أجل ذلك فانهم متى علموا باقتراب آية تشكيلة من الجند ، يفرون بعائلاتهم وأنعامهم ، الى الصحراء الرملية ، مسيرة يومين ، الى أى مكان يجدون فيه ميــاها حلوة ويتمكنــون بذلك من مواصلة العيش • ونتيجة لذلك الخوف نفســـه فانهم يعمدون حين يجمعون محصولهم الى ايداع الحبــوب فى كهوف بين الرمال ، ويأخــذون من المخــزون كل شهر

ما يلزم استهلاكهم ، وهنـا أيضا لا يسـتطيع أحد عداهم معرفة الأماكن التى يلجأون اليها لذلك الغرض ، لأن الريح تمحو على الفور آثار أقدامهم • وعند مغادرة شاشان يستمر الطريق على الرمال خمسة أيام يكون فيها الماء رديئا عـلى الجملة ولكن ليس بكل مكان • ولا يحدث بعد هذا شىء آخر يستحق الملاحظة • وبعد هذه الأيام الخمسة تصل الى مدينة لوب ، على تخوم الصحراء الكبيرة •

الفصـــــل السادس والثلاثون

عن مدينة لوب ـ وعن الصحـراء المجاورة لها ـ وعن الأصوات الغريبة التي يسمعها من يعبرها •

تقع مدينة لوب ناحية الشمال الشرقى ، قرب بداية الصحراء الكبيرة ، التى تسمى صـحراء لوب (١) • وهى تابعة لممتلكات الخـان الأعظم ، وديانة أهلها الاسـلام • والرحالة الذين ينوون عبور الصحراء ، يتوقفون فى العادة مدة طويلة عند هذا المكان ، ابتغاء الراحة من متـاعبهم ، فضلا عن اعداد العدة اللازمة لاستئناف رحلتهم : ومن أجل تلك الغاية يحملون عددا من الحمير والجمال القوية بالمؤن وبما معهـم من بضـاعة • فان استهلكت المؤن قبل اتمام الرحلة ، ذبحوا الأنعام التى معهم بنوعيها وأكلوها ، ولكن العادة جرت باستخدام الجمال هنا وتفضيلها على الحمير ، لأنها تحمل أحمالا ثقيلة ولا تحصل من طعام الا عـلى قدر صغير من العلف •

وينبغى أن يخزن مخزون المؤن الكافى لمدة شهر ، وهو الزمن اللازم لعبور الصحراء فى أضيق أجزائها • اذ أن قطعها فى اتجاه طولها محاولة فاشلة لا جدوى منها ، وذلك لأن تلك المحاولة تستغرق ما يقل عن سنة بقليل • ولا شك أن حمل مؤن لمثل تلك المدة سيتضح انه شيء غير معقول (٢) •

وفي هذه الأيام الثلاثين تمضي الرحلة بصورة لا اختلاف فيها ما فوق منبسطات من السهول الرملية ، أو مرتفعات من الجبال القاحلة ، ولكنك تتوقف عند نهاية مسيرة كل يوم في مكان يمكنك الحصول منه على الماء ، أجل ان ذلك الماء لا يوجد بمقدار كاف لأعداد ضخمة من الرجال ، ولكن فيه الكفاية لتزويد مئة رجل ومعهم دواب حملهم • والماء مالح ومر عند ثلاث أو أربع من هذه المحطات ولكنه عذب وطيب عند المحطات الأخرى التي تصل الى ما يقارب العشرين •

ولن تلتقي في هذه الشقة المترامية بحيوان ولا طير ، اذ ليس هناك طعام لها (٣) •

ومما يؤكد على أنه حقيقة معلومة جيد العلم أن هذه الصحراء مأوى لكثير من الأرواح الشريرة ، التي تستدرج المسافرين الى حتفهم بكل أنواع الايهام الخارقة للمألوف •

فان حدث أثناء النهار ، أن تخلف أي أفراد في الطريق ، اما لأن النوم أعاقهم أو عطلهم أي داع من دواعي الطبيعة ، حتى تمر القافلة أمام تل وتختفي عن الأنظار ، فانهم يسمعون عن غير انتظار من يناديهم بأسمائهم ، وبصوت ونبرة قد ألفوهما ، فيظنون أن النداء صادر من زملائهم ، فيضللهم ذلك عن الطريق المباشر ، حتى اذا أصبحوا لا يدرون الى أي اتجاه يتقدمون ، يتركون حتى يلاقوا الهلاك • فأما في الليل فانهم يحملون على الاقتناع بأنهم يسمعون صوت مسير جمهرة ضخمة من الفرسان في هذا الجانب أو ذاك من الطريق ، واذ يستنتجون ان الضجة انما هي مواقع أقدام فريقهم ، فانهم يوجهون أقدامهم الى الجهة التي يخيل اليهم أن الأصوات تصدر منها ، ولكنهم يتعرضون فيه للأخطار •

ويحدث أحيانا بالمثل أثناء النهار أن تتخذ هذه الأرواح مظهر رفاقهم في السفر ، فيخاطبونهم بأسمائهم

يحاولون اخراجهم عن الطريق السوى • ويقال أيضا ان بعض الأشخاص يرون ، أثناء مسراهم عبر الصحراء ، ما خيل اليهم انه تشكيلة من رجال مسلحين يتقدمون نحوهم ، فيخافون من أن تهاجمهم تلك التشكيلة وتنهب ما معهم ، فيلوذون بأذيال الفرار • واذ يضيع منهم بذلك الطريق الصحيح ، واذ أنهم يجهلون الاتجاه الذى ينبغى لهم اتخاذه ليعودوا الى سواء الطريق ، فانهم يهلكون جوعا على أسوأ حال • فيالها من حكايات مذهلة ومتجاوزة لكل آفاق التصديق ! • تلك التى تروى عن هذه الأرواح الهائمة فى الصحراء التى يقال انها فى بعض الحين تملأ الهواء بأصوات جميع أنواع الآلات الموسيقية وكذلك بقرع الطبول واصطكاك الأسلحة ، والتى تجبر المسافرين على ضم صفوفهم وتضييق خط سيرهم وعلى المضى فى طريقهم بنظام أشد ترابطا وتراصا (٤) •

وهم يجدون أن من الضرورى أيضا اتخاذ الحيطة قبل هجوعهم للنوم ليلا ، بأن يثبتوا عن بعد علامة متقدمة تشير الى الطريق الذى سيسلكونه فيما بعد ، وأن يعلقوا جرسا بكل بهيمة من دواب الحمل حتى يسهل عليهم منعها من الشرود • تلك هى أشد المتاعب والأخطار التى لا محيص لهم من الالتقاء بها أثناء عبورهم تلك الصحراء •

الفصـــــل السابع والثلاثون

عن ولاية تانجـوث ـ وعن مدينة ساتشيون ـ وعن العادة المتبعة هناك عند ولادة طفل ذكر ـ وعن منسك احراق جثث الموتى .

متى أتممت رحلة ثلاثين يوما عبر الصحراء ، بلغت مدينة تسمى ساتشيون،(١) تابعة للخان الأعظم . وتسمى الولاية تانجوث (٢) . والناس هنا عباد أصنام (٣) .

ومنهم بعض التركمان مع قليل من النساطرة المسيحيين ومن المسلمين : وللوثنيين منهم لغة تختلف عن لغة الآخرين (٤) . وتقع هذه المدينة في اتجاه الشرق الشمالي الشرقي . وشعبها ليس شعبا تجاريا ، انما هو زراعي ، لديه الكثير من القمح . ويوجد بذلك القطر عدد من الأديرة والأبداد (بيوت الأصنام) التي تزخر بأوثان مختلفة الأنواع والأوصاف (٥) . والى هذه الأوثان التي ينظرون اليها بأقصى غاية التوقير ، يقدمون القرابين أيضا ، واذا ولد لهم ابن وكلوه الى رعاية أحد أوثانهم . ويربي الأب تكريما لذلك الرب شاة في بيته حتى اذا انقضى حول ، وحل يوم العيد الخاص بذلك (الصنم) اقتادوا الابن ومعه الشاة الى حضرة الصنم حيث يقرب الحيوان قربانا له . فيسلقون اللحم ثم يحملونه ويضعونه أمام الصنم ، ويقفون بين يديه حتى يفرغوا من صلاة طويلة ، مدارها الابتهال الى الصنم أن يحفظ صحة طفلهم (٦) ، وهم يعتقدون أنه في أثناء هذه الفترة يكون الصنم امتص جميع عصارات اللحم

اللذيذة • فأما ما يتبقى من الشاة فانهم يحملونه الى البيت، ويجمعون كل أقاربهم وأصدقائهم فيتناولونه جميعا في احتفال بالغ التبتل والتقوى• ثم يجمعون العظام ويحفظونها في جرار أنيقة •

وينال كهنة الصنم نصيبهم وهو الرأس والأرجل والأحشاء والجلد ومعها بعض أجزاء من اللحم • ولعبدة الأوثان هؤلاء فيما يتعلق بالموتى مراسم احتفالية خاصة •

فعند وفاة أحد ذوى المكانة من الناس ، ممن تتجه النية الى احراق جثته ، (٧) يدعو الأقارب المنجمين ليجتمعوا ، ويعلمونهم بالسنة واليوم والساعة التى ولد فيها، وعند ذلك يعمد هؤلاء الى استطلاع خريطة البروج ، حتى اذا تحققوا من البرج (الاقتران النجمى) أو العلامة والكوكب المتحكم هناك ، حددوا اليوم الذى سيقام فيه الاحتفال بالجنازة •

فاذا تصادف أن لم يكن نفس الكوكب عندئذ فى الطالع، أمروا بالاحتفاظ بالجثمان أسبوعا آخر أو أكثر ، بل حتى الى مدة ستة أشهر أحيانا قبل السماح باقامة مراسم الحفل •

وأملا في الحصول على ظاهرة مرضية ، وخوفا من التعرض لآثار مؤثرات معاكسة ، لا يجرؤ الأقارب على حرق الجثة حتي يحدد المنجمون الزمن المناسب (٨) واذ يصبح من الضرورى بناء على هذا الاعتبار أن يظل الجثمان طويلا بالمنزل ، ورغبة في التحصن من عواقب التعفن الرمى ، يجهزون نعشا مصنوعا من ألواح الخشب التى سمكها شبر ، والتى تحبك بعضها فى بعض حبكا جيدا وتطلى بالطلاء ، فيضعون فيها الجثة ، ومعها مقدار من الصموغ العطرة والكافور وغيره من العقاقير ، فاما مواضع الأوصال وخطوط الالتحام فانهم يطلونها بخليط من القار والجير ثم يغطى الكل بعد ذلك بالحرير •

وفي أثناء تلك المدة تفرش المائدة كل يوم بالخبز والخمر وغيرهما من المؤن ، وكلها تظل قائمة الزمن الكافي لتناول وجبة ملائمة واللازم كذلك لروح المتوفي ـ التي يزعمون أنها حاضرة تلك المناسبة ـ لاشباع نفسها من روائح الأطعمة •

وفي بعض الأحيان يشير المنجمون على أقارب المتوفي بألا يحمل جثمانه من المنزل من الباب الرئيسي ، وذلك تبعا لاكتشافهم من هيئة البروج ، أو بأية طريقة أخرى أن اتباع مثل ذلك الطريق يجلب النحس ، ومن ثم ينبغي حمله من جانب آخر من المنزل (٩) بل الحق انهم يجبرونهم في بعض الحالات على فتح ثغرة في الحائط الذى يتصادف وجوده قبالة النجم الخير ذى الطالع الموائم ، وحمل الجثة من تلك الفتحة، باقناعهم بأنهم ان أبوا فعل ذلك ، فان روح المتوفي سيثار سخطها على العائلة وتنزل بهم بعض الأذى •

ومن ثم ، فاذا حلت أية نائبة بأحد البيوت ، وأصيب أى شخص ينتسب اليه بحادثة أو خسارة ، أو ألم به موت مبكر ، لم يفت المنجمين نسبة ذلك الحادث الى جنازة لم تتم أثناء صعود الكوكب الذى ولد تحته القريب المتوفى ، بل تمت على العكس عندما كانت الجنازة معرضة لتأثير طالع سيىء ، أو لأنها لم تخرج من الباب الصحيح •

ولما كان الاحتفال بحرق الجسد ينبغى أن يتم خارج المدينة ، فانهم يبتنون بين مسافة وأخرى على الطريق الذى تمر منه الجنازة مباني خشبية صغيرة لها سقائف يغطونها بالحرير، وكلما وصلوا الى واحدة منها وضعوا الجسد تحتها• ويضعون أمامه أنواع اللحم والشراب ، ولا يزالون يكررون ذلك حتى يصلوا الى النقطة المحددة ، معتقدين ، في كل ما يعملون ، أن الروح تنتعش وتكتسب القوة والطاقة على مجابهة الحرق الجنائزى •

وثم مرسم احتفالى آخر يمارس فى هـذه المناسـبات . فانهم يحضرون عددا من قصاصات الورق ، مصنوعا من لحاء نوع معين من الشجر ، وقد رسمت عليها بالألـوان أشـكال الرجال والنساء ، والخيـل ، والجمـال ، وقطـع العملة ، والثياب ، فيحرقونها مع الجثة جميعا ، وهم على اقتناع بأنه فى العالم الآخر سيستمتع الراحل بخدمات ومنـافع الخـدم والأنعام وجميع الأشياء المصورة على الورق (١٠) .

وفى أثناء هذه الاجراءات أجمع ، تتردد أصوات جميع الآلات الموسـيقية التابعـة للمـكان وتملأ الأسـماع بطنين لا ينقطع (١١) . والآن وقد تحدثنا عن هـذه المدينة ، فانا سنذكر بعد ذلك مدنا أخرى ، تقع الى الشمال الشرقى ، قرب رأس الصحراء .

الفصـــــل الثامن والثلاثون

عن منطقة كامـول ، وعن بعض العـادات الغريبة المتعـلقة بضـيافة الغرباء .

ان كامول منطقة تقع داخل الولاية الـكبرى المسـماة تانجوث ، الخاضعة للخان الأعظم ، كما أنها تحوى كثيرا من المدن والقلاع ، تسمى الرئيسية منها باسم كامول ايضا (١) . وتقع هذه المنطقة في المسافة التي تتوسط صحراوين ، واعنى بذلك الصحراء الكبيرة سالفة الوصف ، وأخرى أقل اتساعا ، يقارب قطرها مسيرة ثلاثة أيام (٢) .

والسكان هناك وثنيون يعبدون الأصنام ، ولهـم لغتهم الخاصة (٣) . وهم يعيشون على ثمار من الأرض ، يملكونها بوفرة ، كما يتمكنون من تزويد المسافرين بحاجتهم (٤) .

والرجال منغمسون في الملذات ، ولا يهتمون بشيء عدا اللعب على آلات الموسيقى والغناء والرقص والقراءة والكتابة حسبما جرت به عادة الاقليم ، وبعبارة موجزة الجرى وراء كل نـوع من أنواع التسـلية (٥) . وعندما يصل الغرباء ويرغبون في الحصول على السـكن والراحة والاستقرار في بيوتهم ، فانهم يحصلون هنا على درجات الاشباع . اذ أنهم يعطون زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وغيرهن من أقاربهم من النساء أوامر ايجابية بامتاع ضيوفهم بكل رغبة يرغبونها ، على حين يغادر الرجال بيوتهم وينسحبون الى المدينة فيعيش الغريب في الدار مع الاناث كأنما هن زوجاته ، ويرسل الرجال كل

ما يلزم الدار من الضروريات ، وهو شيء ينبغي أن تفهم أنهم يتوقعون في مقابله مالا ، كما انهم لا يعودون الى بيوتهم مادام الغرباء مقيمين فيها •

ويعد هؤلاء القوم تنازلهم هذا عن نساء عائلتهم لضيوف عارضين ، يتخذون نفس حقوق الزوج ويلقون نفس الاستمتاعات كأنما هي زوجات لهم ، تشريفا وتكريما ورفعا لسمعتهم ، وذلك باعتبار أن حسن وفادة الضيوف ، الذين أصبحوا (بعدما لقوه في رحلتهم من مخاطر ومتاعب) بحاجة الى الراحة والاستجمام ، عمل مستوجب لمرضاة آلهتهم ومحسوب فيه استنزال البركات في عدد أفراد عائلاتهم ، وأن يزيد ما لديهم من مواد وخير ، وأن يعود عليهم بالسلامة من جميع الأخطار ، كما يورثهم عاقبة موفقة في كل ما يعلمون • ونساؤهم بلغن الغاية في الجمال حقا ، والغاية في الشهوة الحسية ، والغاية في الاستعداد للتوافق في هذه الناحية مع ما يوصيهن به أزواجهن •

وقد حدث في وقت أقام فيه مانجو (ما نكو) خان بلاطه في هذه الولاية ، وقد بلغت مسامعه هذه العادة الفاضحة ، أنه أصدر مرسوما يأمر أهل كاسول أمرا جازما بضرورة الاقلاع عن عرف يجللهم بالعار البالغ ، ويحرم على الأفراد تزويد الغرباء بالمسكن ، فيضطر هؤلاء الغرباء أن ينزلوا بدار ايواء عامة أي مسافر خانه (aravanserai) وأطاع السكان بحزن وأسى أمر مولاهم مدة ثلاث سنوات ، ولكنهم اذ وجدوا في نهاية الأمر أن الأرض كفت عن أن تؤتي ثمارها المعهودة وأن كثيرا من الحوادث المحزنة حدثت لعائلاتهم ، صمموا أن يبعثوا الى الخان الأعظم وفدا مفوضا بأسمائهم لكي يرجوه أن يتفضل بالاذن لهم بمعاودة عادة توارثوها بكل اكبار عن آبائهم وأواليهم في أقدم العصور ، وخاصة انهم حينما توقفوا عن ممارسة أعمال الاكرام واشباع الغرباء بالمتعة ، حل بمصلحة عائلاتهم دمار دائم

مطرد . فلما أن استمع الخان الأعظم لهذا الملتمس أجاب بالتالى : « لما يظهر عليكم من بالغ اللهفة على الاستمرار فى شناركم وخزيكم ، عليكم الأمر كما تريدون . فاذهبوا وعيشوا حسب عاداتكم وأعرافكم الدنيئة ، واسمحوا لزوجاتكم بأن يواصلن تقبل الأجور الحقيرة عن بغائهن » .

وبهذا الجواب عاد المندوبون الى بلادهم ، فبثوا فى قلوب الناس جميعا أعظم البهجة ، وهم لا يزالون حتى يومنا هذا ، يراعون عاداتهم القديمة (٦) .

الفصـــــل التاسع والثلاثون

عن مدينة تشنتشيتالاس

بعـد منطقة كامول تجيء منطقة تشنتشيتالاس ، التي تتاخم الصحراء في ناحيتها الشمالية وطولها مسيرة سـتة عشر يوما (١) • وهي تابعة للخان الأعظم ، وتشـمل مدنا وحصونا عديدة •

ويتألف سكانها من طوائف دينية ثلاث : فتؤمن قلة منهم بالمسيح ، على المذهب النسـطوري ، وآخـرون يتبعون ملة محمد ، ثم فئة ثالثة تعبد الأوثان • ويوجد في هذه الناحية جبل ، تنتج مناجمه الفولاذ وكذلك الزنك أو الأثمد (٣) • وتوجد بالمثل مادة لها طبيعة عظاءة (سـحلية) السـمندر ، الخرافية وذلك لأنها متى نسجت قماشا وألقيت في النار ، ظلت غير قابلة للاحتراق (٤) •

وقد علمت الطريقة التالية لتجهيز تلك المادة من أحـد رفاق السفر ، واسمه كورفيكار ، وهو توركماني ذكي جدا تولى ادارة عمليات التعدين بالـولاية لمـدة ثلاث سنوات • وتأتلف المادة الخام المحتفرة المأخوذة من الجبل من ألياف غير بعيدة الشبه من خيـوط الصـوف • حتى اذا عرضت تلك الألياف للشمس لتجف ، تدق في هاون من نحاس ، ثم تغسل بعد ذلك حتى تنفصل عنها كل المواد الترابية • فاذا تم بذلك تنظيف الألياف وفصلها بعضها عن بعض ، غزلت خيـوطا ونسجت قماشا • ولتبييض النسيج ، يضعونه في النـار ،

ويتركونه فيها زهاءالساعة ، حيث يخرجونه غير مضار بالنار وأبيض كالثلج • ثم انهم ينظفونه بعد ذلك بنفس العملية ، كلما تصادف أن ألمت به بقع ، اذ لا ينظفه محلول منظف عدا النار الحارقة (٥) • فأما عن السمندر فى صورة ثعبان ، ويظن أنه يقيم فى النار ، فانى لم أتمكن من اكتشاف أى أثر له فى الأقاليم الشرقية • ويقال انهم يحتفظون فى روما بفوطة منسوجة من هذه المادة ، لف فيها Sudarium محرمة للرب، وقد أرسلت هدية من أحد أمراء التتار الى الحبر الأعظم فى روما •

الفصـــــل الأربعــــون

عن منطقة سكوير ، التى ينتج بها الراوند ، ومنها ينقل الى جميع أقطار العـــالم •

عند مغادرة المنطقة المذكورة أخيرا ، والتقدم مدة عشرة أيام فى اتجاه الشرق الشمالى الشرقى ، من خلال اقليم به قليل من المساكن ، والقليل مما يستحق الذكر من أى شىء ، تصل الى منطقة تسمى سكوير ، تقوم بها مدن وقلاع كثيرة ، تسمى الرئيسية منها سكوير (١) • والسكان عبدة أصناع عــلى وجه الجملة ، يخالطهم بعض المســيحيين (٢) • وهم خاضعون لسلطان الخان الأعظم • والــولاية المترامية التى تضم هذه المناطق والمنطقتين اللتين سيرد ذكرهما بعد ، تسمى تانجوت ، وينتج بكل أرجائها الجبلية أفخر أنواع الراوند بمقادير كبيرة ، والتجار الذين يحصلون على أحمال ضخمة منه يحملونه من موقعه الى جميع أرجاء العــالم (٣) • ومن الحقــائق الدارجة أنهم عنــدما يتخــذون ذلك الطــريق ، لا يستطيعون المخاطرة فى الجبال بأية دواب حمل عدا تلك التى تعودت على الاقليم ، وذلك بســبب النبــات السام الذى ينمو هناك ، والذى لو تناولته البهائم جعل حوافرها تسقط ، ولكن بهائم المنطقة لدرايتها بخطر ذلك النبات تحرص عــلى تجنبه • ويعتمد أهل سكوير فى معاشهم على ما تنبته الأرض من ثمار وعلى لحوم ماشيتهم ، كما أنهم لا يشتغلون بالتجارة • والمنطقة صحية الى أكمل حد ، وبشرة السكان سمراء بنية •

الفصـــــل الحادى والأربعون

عن مدينة كامبيون ، المدينة الرئيسية لولاية تانجوت ـ وعن طبيعة أصنامهم وعن طريقة عيش أولئك الذين يختصون بين الوثنيين بخدمة الدين ـ وعن التقويم الذى يستخدمونه ـ وعن عادات بقية السكان الآخرين بصدد الزواج •

ان مدينة كمبيون ، كبرى مدن تانجوت (١) ، ضخمة وفخمة وسلطانها ينبسط على الولاية بأكملها (٢) • وغالبية السكان تعبد الأصنام ، ولكن فيهم من يتبعون ملة محمد وبعض المسيحيين • وللمسيحيين ثلاث كنائس ضخمة وجميلة بالمدينة (٣) • فأما الوثنيون فلهم بيوت دينية كثيرة ، أى أديرة وأبداد (بيوت الأصنام) قد بنيت على نسق عمارة البلاد ، وفيها يقوم جمع غفير من الأوثان ، منها ما هو من الخشب ، ومنها ما هو من الحجر وما هو من الطين ، وكلها مغشاة بالذهب • وهى منحوتة بأسلوب رائع ، وبعضها شديد الضخامة ، كما أن بعضها الآخر صغير الحجم (٤) ويبلغ طول الأول منها عشر خطوات كاملة كما انها ترقد فى وضع مضطجع ، والتماثيل الصغيرة تقف خلفها وعليها سيماء التلاميذ (أى الحواريين) وهى تؤدى تحية عامرة بالتوقير(٥) • والضخم منها والصغير يلقى اجلالا مفرطا • والأشخاص المختصون بخدمة الدين بين هؤلاء الوثنيين يعيشون ، حسب أفكارهم على الأخلاقيات والفضائل ، عيشة أقوم من الطبقات

الأخـــرى ، اذ يمتنعون عن اســتمراء الشــهوات الجســدية والحسية (٦) ومما يجمــل ذكره أن الاتصـــال الجنسى غــير المشروع ، لا يعد عند هؤلاء الناس على الجملة جريرة خطيرة كما ان المبدأ الســارى بينهم هــو أنه متى كانت الأنثى هى البادئة بالعرض فلا اثم ولا جــريرة فى المبــاشرة ، ولــكن الاتصال يعد اثما ان تقدم بطلبه الرجل • وهم يستخدمون تقويما يماثل تقويمنا فى كثير من الأوجه، يلتزمون بمقتضى قواعده ، أن يمتنعوا أثناء خمسة أو أربعة أو ثلاثة أيام من الشهر عن سفك الدم ، وعن أكل اللحم والطير ، وذلك مثــل عاداتنا فيما يتعلق بيومى الجمعة ، والسبت والسهر للعبادة عشية أعياد القديسين (٧) •

ويتخــذ ســواد الناس من العلمــانيين لأنفسهم عددا من الزوجات يصل الى الثلاثين ، ومنهم من يزيد عن ذلك ومنهم من ينقص ، حسب قدرتهــم عــلى اعالتهن ، وذلك لأنهــم لا يتلقون أية بائنة منهن، بل على العكس يعرضون لزوجاتهم بائنة من ماشية وعبيد ومال (٨) والزوجة الأولى تحتفظ على الدوام بالمنزلة العليا فى العائلة ، ولكن اذا لاحظ الزوج أن واحدة منهن لا تحسن معاملة غيرها من الزوجات ، أو اذا هى أصبحت من ناحية أخــرى منفرة له ، أمكنــه طردها • وهم يأخذون إلى فراشهم أقربهن منهم قرابة دم، بل حتى يتزوجون حمواتهم • وهناك خطايا مميتة أخــرى كثيرة ينظر اليهــا عندهم بغير اكتراث وهم يعيشون فى هذا الصدد كالسائمة فى الحقول • وفى هذه المدينة أقام ماركو بولو مع أبيه وعمه، مدة تقارب العام، وهو أمر حتمته عليهم ظروف مشاغلهم(٩) •

الفصـــــل الثاني والأربعون

عن مدينة ايزينا ـ وعن أنواع الماشية والطيور الموجودة بها ـ وعن صحراء ذرعها مسيرة أربعين يوما نحو الشمال ·

فاذا أنت خرجت من مدينة كامبيون هذه ، ورحلت اثنى عشر يوما فى الاتجاه الشمالى بلغت مدينة تسمى ايزينا(١)، تقع عند بداية الصحراء الرملية ، وداخل ولاية تانجوث · والسكان هنا وثنيون · ولديهم الجمال والكثير من الماشـية بمختلف أنواعها · وهنا تجد صقور الحر (Lanner-falcons) وكثيرا من الصقور الممتازة وتسد ثمار الأرض ولحوم الماشية حاجات الأهالى ، كما انهم لا يشتغلون بالتجارة · والمسافرون الذين يمرون من هذه المدينة يختزنون لأنفسهم مؤنا تكفيهم أربعين يوما ، وذلك لأنهم عندما يغادرونها للتقدم شمالا ، يستغرقون تلك المدة الزمنية في عبورهم صحراء ، لا يبـدو فيها أثر لدار ولا ديار اللهم الا قلة فى فصل الصيف تعيش بين الجبال وفي بعض الوديان · وفى هـذه المراكز ، التى ترتادها حمر الوحش وغيرها من الحيوان الوحشى أيضا(٢)، يجدون الماء وغابات من أشجار الصنوبر · حتى اذا عبرت هذه البيداء ، وصلت الى مدينة تقع عـلى جانبها الشـمالى ، تسمى كراكوران · وتتبع جميع المناطق والمدن سالفة الذكر وأعنى بهـا سـاكيون وكامول وتشـنتشيتالاس وسـكوير وكيمبيون وايزينا ـ ولاية تانجوث الكبيرة ·

الفصـــــل الثالث والأربعون

عن مدينة كاراكوران ، أولى المدن
التي ثبت فيها التتار مقر حكمهم .

يقارب محيط مدينة كاراكوران (١) ثلاثة الأميـال ، وهى أول مكان أسس فيـه التتار مقر حـكمهم فى الأزمنـة السحيقة . ويحيط بها استحكام حصين من الثرى ، نظرا لقلة وجود الحجر بتلك المنطقة . والى خارج ذلك الاسـتحكام ، وعن كثب منه ، تقف قلعة ضخمة ، فيها قصر جميل يشـغله حاكم المكان .

الفصـــــل الرابـع والأربعون

عن أصـــل مملكة التتـار ـ وعن الاقليـــم الذى منه جـاءوا ـ وعن خضوعهم السابق لأون خان ، وهو أمير من الشـمال ، يسـمى أيضـا بريستر جون (القس يوحنا) ٠

سنقص على مسامعك الآن الظروف التي بدأ منها هؤلاء التتار ممارسة السيادة والحكم ٠ كانوا يسكنون فى اقليمى جورزا وبارجو الشماليين (١) ، دون أن تكون لهم مســاكن ثابتة ، أى دون مدن ولا أماكن محصنة ، وهناك كانت تمتد سهول مترامية ، ومرعى طيب وأنهـار كبيرة وماء غـدق : (كثير) ٠ ولم يكن لهم ملك خاص بهم ٠ بل كانوا تابعين لأمير قوى ، كان يســمى بلغتهم الأصـلية ـ فيما بلغنى ـ أونخان(٢)، وهو اسم يظن بعضهم أنه يراد به بريسترجون عندنا (٣) ٠ واليه كان هؤلاء التتار يقدمون عشر ماشيتهم (وهى الزيادة فيها) ٠ وبمضى الوقت زادت القبيلة زيادة مفرطة الى حد أن أون خان ـ أى القس يوحنا ـ وقد خاف قوتهـم ، دبر خطة لتفريق شـملهم شـيعا فحتم عليهـم أن يتخذوا مناطق محددة من الأرض سكنا لهم ٠ وتمشيا مع هذا الرأى أيضا فانه كلما سنحت فرصة ، كشبوب عصيان فى أية ولاية من الولايات الخاضعة له ، كان ينتقى بطريق القرعة ثلاثة أو أربعة فى المائة من هؤلاء القوم ، ليعملوا على القضاء عليه ، وبذلك أخذت قوتهم تضمحل تدريجيا ٠ وكان يعمد

بالمثل أيضا الى ارسالهم فى حملات أخـرى ، ويرسـل بينهم بعض كبار ضباطه ليتحققوا من أن مقاصده نفذت فعـلا •
وأخيرا أدرك التتار ربقـة العبـودية التي كان يحـاول أن يوقعهم فيها ، فصمموا عـلى اقامة اتحـاد صلب بينهم • ولما رأوا أنه لا يدبر لهم الا تدميرهم النهائى، دبروا خطة الانتقال من الأماكن التى كانوا يسكنونها آنذاك ويمموا صوب الشمال عبر بيداء مترامية • حتى اطمأنوا تماما أن المسافة التى تفرق بينه وبينهم تضمن سلامتهم اذا ما رفضوا بعد ذلك أن يؤدوا الى أون خان الجزية المعتادة (٤) •

الفصــــل الخامس والأربعون

عن تشنجيس خان ، أول أباطرة التتار ، وحربه مع أون خان ، وخلعه اياه ، واستيلائه على مملكته لنفسه •

بعد انقضاء ردح من الزمان على هجرة التتار الى هذا المكان ، وقرب عام ١١٦٢ للميلاد (١) ، قاموا باختيار رجل اسمه تشنجيس خان ملكا عليهم ، وهو رجل أوتى استقامة مستحسنة ، وحكمة عظيمة وفصاحة مؤثرة ، وقد برز بينهم بشجاعته • فبدأ حكمه برفع ميزان العدالة والاعتدال في المعاملة حتى أحبه الناس ووقروه ربا معبودا أكثر منه عاهلا حاكما ، ودعا اشتهاره بعظيم السجايا ومكارم الصفات في ذلك الجزء من العالم ، جميع التتار ، على تفرق شملهم ، الى وضع أنفسهم تحت امرته •

فلما أن وجد نفسه هكذا على رأس العدد الوفير من الكماة الشجعان ، امتلأ طموحا في الخروج من الصحارى والبرارى التي تكتنفه من كل جانب ، وأصدر اليهم الأوامر بالتسلح بالقسي وغيرها من أسلحة أتقنوا استخدامها فيما ألفوه من عادات أثناء حياة الرعي • وعند ذلك انتقل الى بسط سيادته على المدن والولايات ، وكان من أثر اتصافه بالعدل وغيره من الفضائل ، أنه حيثما ذهب ، ألفى الناس على استعداد للخضوع له واعتبار أنفسهم من السعداء لو أدخلوا في حمايته وعطفه •

وعلى هذا النحو تملك ناصية تسـع ولايات تقريبـا . وليس في نجاحه أي عجب ، اذا ما تأملنا أنه في تلك الفترة كانت كل مدينة ومنطقة اما محكومة بشعبها نفسه أو بملك صغير أو أمير ، ولما لم يكن قائما بينهم اتحاد عام ، كان من المحال عليهم فرادى مقاومة قوة عاتية كقوته .

وكان عند اخضاعه تلك الأماكن يعين عليها الحكام ، الذين كانوا مثاليين في سلوكهم بحيث لم يكابدالسكان شيئا من العناء ، لا في أشخاصهم ولا ممتلكاتهم ، كما أنه تبنى بالمثل سياسة أخذ كبراء الناس معـه الى ولايات أخرى مـع منحه اياهم الجعول والعطايا (٢) . فلما أن شاهد كيف كانت مغامراته تكلل ببالغ النجاح ، صمم عـلى أن يحـاول القيام بأشياء أعظم وأعظم .

وبناء على هذه الفكرة بعث بالسـفراء الى بريسترجون محملين برسالة مخـادعة ، عـرف مقـدما أن ذلك الأمير لن يستجيب لها ، طالبا يد ابنته (٣) . وعنـدما تلقى العـاهل الطلب صـاح غاضبا : « من أين نشـأت هـذه القحة عنـد تشنجيس خان ، الذي يتجرأ ــ مع علمه بأنه خادمي ــ بطلب يد ابنتي ؟»، وقال : «ارحلوا على الفور، وأعلموه عني بأنه ان عاد ثانية الى هذا الطلب أنزلت به قتلة مهينة » .

وثارت ثائرة تشنجيس خان لهذا الجواب ، فجمع جيشا عظيما ، دخل على رأسه أراضي بريسترجون . وخيم بعسكره في سهل عظيم يسمى سهل التندوك ، وأرسل الى الملك رسالة يطالبه فيها بالدفاع عن نفسه . وتقـدم الأخـير بالمثل الى السهل بجيش عرمرم ، واتخذ موقعه على مسافة تقارب عشرة أميال من جيش عدوه (٤) . وأمر تشنجيس خان وهو في هذه الضائقة منجميه وسحرته أن يعلنوا من سـيكون الفائز من الجيشين في القتال المقبل . وعنـد ذلك تنـاولوا قصبة خضراء ، وقد شقوها بالطول الى قسمين ، كتبوا على أحدهما اسم مولاهم وكتبوا على الآخر اسم أون خان . ثم وضعوهما

علـى الأرض وبينهما مسـافة قريبة ، وأعلمـوا الملك انه أثناء نطقهم تعازيمهم ، سـتتقدم قطعتا القصـب مقتربتين احداهما من الأخـرى وسـيكون النصر نصيب الملك الدى سترى قطعتـه وهى تعلو فوق الأخـرى • واجتمع الجيش كله ليكون شهيدا على هذا الحقل ، وبينما كان المنجمون ـ منشغلين بتلاوة كتبهم فى السحر ، شـاهد الجمع القطعتين تشرعان فى التحرك والاقتراب وبعد فترة زمنية وجيزة ، شـوهدت التى تحمـل اسـم تشنجيس خان تعلو فوق قمـة غريمتها (٥) •

وعندما شـهد الملك وعصبته من التتـار ذلك ، زحفوا مبتهجين لمهاجمة جيش أون خان ، فاخترقوا صفوفه وشتتوا شمله تشتيتا • ولقى أون خان مصرعه ، وأصبحت مملكتـه غنيمة للفاتح ، وتزوج تشنجيس خان ابنته • وبعد هـذه المعركة استمر ست سنوات فى فتح ممالك ومـدن جـديدة وضمها تحت لوائه ، حتى أصابه أخيرا ، أثناء حصاره قلعة تسمى ثايجن (٦) ، سهم فى ركبتـه ، فمات متأثرا بجرحه ودفن فى جبل آلطاى •

الفصـــــل السادس والأربعون

عن ســـــتة أباطــرة متعاقبين للتتار ، وعن الاحتفالات التى تقام عند حملهم ليدفنوا بجبل آلطاى ٠

خلف تشنجيس خان فى العرش ، ســيهن خان ، وكان الخان الثالث هو باثين خان ، فأما الرابع فهــو ايســوخان ، والخامس مونجو خان والسادس قبلاى خان (١) الذى صــار أعظم وأقوى من كل من عـــداه منهــم ، وذلك لأنه ورث ما ملكه أســلافه ثم عاد بعــد ذلك فى مدى حكم دام ســتين عاما (٢) ، فاجتاز ، فيما قد يقال ، سائر ما تبقى من العالم ولقب « خان » أو « كان » هو المعادل لامبراطور فى لغتنــا ٠ وجرت العادة على الدوام ، وبلا أدنى اختــلاف ، أن يحمل جميع الخانات العظام والرؤســاء من جنس تشــنجيس خان ليدفنوا فى جبل ما مرتفع يسمى جبل آلطاى ، ومهما يكن المكان الذى يتصادف موتهم فيه ، ولو كان على مسيرة مائة يوم ، فانهم رغم ذلك يحملون الى هناك ٠

وجرت العادة بالمثل أيضا ، أثناء موكب سـير جنــازة هؤلاء الأمراء ، أن يقوم من عليه من حراس وركب بذبح أى أشخاص يتصادف أن يلتقوا بهم عــلى الطــريق قائلين لهم : « ارحلوا الى العــالم الآخر وهنــاك كونوا فى خــدمة مولاكم المتوفى » ، وذلك لاعتقادهم الراسخ بأن جميع من يقتلونهم

على هذا النحو يصبحون بالفعل خدما له فى العالم الآخر ·
وهم يفعلون نفس الفعل بالخيل ، حيث يقتلون أنجبها عترة
حتى يتمكن من استخدامها هناك · ولما أن حملت جثة مونجو
(مانكو) الى هذا الجبل ، قتل الخيالة الذين رافقوه ، وقد
آمنوا بهذه الفكرة العمياء الرهيبة ، ما يقارب عشرين ألف
شخص ، تصادف وقوعهم فى طريقهم (٣) ·

الفصـــــل السابع والأربعون

عن حياة التجوال التى يعيشها التتار – وعن عاداتهـــم المنزليـــة وطعامهم وما تتصف به نساؤهم من فضيلة وصفات نافعة ٠

والآن وقد بدأت الحديث عن التتار ، فانى ســأزيدكم بيانا عنهم ٠ لا يقيم التتار بأرض واحدة أبدا ، ولكن متى اقترب الشتاء انتقلوا الى ســهول منطقة أدفأ ، لــكي يجدوا مراعى كافية لماشيتهم ، كما أنهم فى الصيف ينتجعون المواقع الباردة فى الجبال، التى يتوافر فيها الماء والخضرة ، وتتخلص فيها ماشيتهم من مضايقة ذباب الخيــل وغيره من الحشرات العضاضة ٠

ولا يزالون أثناء شــهرين أو ثلاثة يصعدون باطــراد أرضا أعلى فأعلى ، وينتجعــون مراعى جــــديدة ، وذلك لأن العشب لا يكون كافيا فى محل واحد بعينه لاطعام الجمــوع الغفــيرة التى تتألف منهــا قطعــانهم (١) ٠ وأكـــواخهم أو خيــامهم مصنوعة من قضبان مغطاة باللباد ، ونظرا لأنها مستديرة تماما وتوضع مع بعضها البعض على صورة لطيفة ، فانهم يستطيعون جمعها فى حزمة واحدة ويحولونها ربطات ، يحملونها معهم أثناء هجراتهم ، على ضرب من العربة له أربع عجلات (٢) ٠ ومتى آن أوان اقامتها مرة ثانية جعلوا واجهة المدخل متجهة الى الجنوب (٣) ٠

وفضلا عن هذه العربات، فلديهم نوع ممتاز من المركبات ذات العجلتين ، وهي مغطاة كذلك باللباد الأسود وبطريقة فعالة جدا ، بحيث انها تحمي من يستقلونها من البلل أثناء يوم كامل من المطر • وهذه كلها تجرها الثيران والجمال ، وتستخدم في حمل زوجاتهم وأطفالهم وجميع ما لديهم من مواعين وما يلزمهم من مؤن (٤) • والنساء هن اللائي يتولين شئونهم التجارية ، فهن اللائي يشترين ويبعن ، ويزودن أزواجهن وخدمهن بكل ما يلزمهم من الضروريات (٥) وذلك لأن وقت الرجال موجه بأكمله للصيد والتصقر وكل ما يتعلق بالحرب وحياتها من أمور • ولديهم خير ما في العالم من صقور وكذلك خير الكلاب •

وهم يقتصرون تماما في طعامهم على اللحم واللبن ، مع تناول ما تصل اليه أيديهم من حصيلة الصيد ، وحيوان معين صغير ، وقريب الشبه من الأرنب ، ويسمي فأر فرعون ، يوجد بوفرة عظيمة في فصل الصيف في منطقة السهول(٦) • ولكنهم يأكلون أيضا اللحم بكل أصنافه وأوصافه : الخيل والجمال ، بل حتى الكلاب ، شريطة أن تكون سمينة • وهم يشربون لبن الأفراس ، الذى يعالجونه بطريقة تجعل فيه صفات النبيذ الأبيض ونكهته • وهم يسمونه في لغتهم «كيمورس» (٧) • ولا يبرز نساءهم في العالم أحد من النساء بما ركب فيهن من عفة واحتشام في الخلق ، ولا من حب لأزواجهن وأداء واجباتهن نحوهم •

والخيانة لفراش الزوجية لا تعد بينهن فحسب رذيلة تعاب وتمس الشرف ، ولكنها أيضا تعد فضيحة شنعاء (٨) ، وذلك بينما يأخذك الاعجاب من ناحية أخرى اذ تلحظ وفاء الأزواج لزوجاتهم ، اللائي وان ربما بلغن في العدد عشرة أو عشرين ، فانه يسود بينهن درجة من الوئام والاتحاد جديرة بأعظم الثناء • فلن تخدش مسامعك لفظة جارحة ، اذ أن تجارتهن تشغل اهتمامهن كله (كما أسلفنا اليك)

فضلا عن مشغولياتهن المنزلية ، كامداد العائلة بالطعام الضروري ، والاشراف على الخدم ، والعناية بالأطفال ، التي هي مشغلة مشتركة بينهن جميعا • وفضائل الحشمة والعفة في زوجاتهم انما هي أجدر بالثناء ، نظرا لأنه يباح للرجال اتخاذ أي عدد يرغبون فيه من النساء (٩) •

ونفقتهن على الزوج ليست بالكبيرة ، كما أن المنفعة التي يحصل عليها من اشتغالهن بالتجارة ، ومن الأعمال التي لا يبرحن يشتغلن فيها على الدوام ، تعد ضخمة في واقع الأمر ، وبناء على ذلك فانه عندما يستقبل شابة كزوجة له ، يدفع لوالديها مهرا (١٠) على أن للزوجة الأولى امتيازا هو الحصول على الاهتمام الأعلى ، كما أنها تعد أكثرهن شرعية ، وهو أمر يشمل أيضا الأطفال المولودين منها • ونتيجة لهذا العدد غير المحدود من الزوجات ، فان الذرية أكثر وفرة منها بين أي شعب آخر • وعند وفاة الأب ، يستطيع الابن أن يتخذ لنفسه الزوجات اللائي يخلفهن أبوه ، باستثناء أمه وحدها • وهم لا يستطيعون أن يتخذوا من أخواتهم زوجات ، ولكنهم يستطيعون عند وفاة اخوتهم التزوج من زوجة الأخ (١١) • ويحتفل بكل زواج بأبهة جليلة ومراسم عظيمة •

الفصـــــل الثـامن والأربعون

عن آلهـــة التتار الســـماوية والأرضية ، وعن طرائق تعبـدهم ـ وعـن ملبسهـــم ، وأسلحتهـــم ، وشجاعتهم فى القتـــال ، وصبرهم على صنوف الحرمان ، وطاعتهــــم لقادتهـــم ٠

اليكم الآن مذهب التتار وعقيدتهم : فهم يؤمنون باله له طبيعة رفيعة وســماوية ٠ وهم يحرقون له البخـور فى المباخر ، ويرفعون اليه الصلوات ابتغاء الاســتمتاع بصحة العقل والبدن (١) ٠ ويعبدون آخر بالمثل يسمى «ناتيجاى»، ويحتفظ كل فرد من أفراد الشعب فى منزله بتمثال له مغطى باللباد أو غيره من قماش ٠ وهم يضمون الى هذا الاله زوجة وأطفالا ، واضعين الزوجة عن يساره والأطفال أمامه ، وهم فى وضع من التحية المترعة بالتوقير ٠

وهو الذى يعدونه الرب الذى يتولى شئونهم الدنيوية ، ويحمى أطفالهم، ويحرس ماشيتهم وحبوبهم(٢) وهم يقدمون اليه احتراما كبيرا ، ولا يفوتهم فى كل وجبة أن يقتطعـوا قطعة سمينة من اللحم يمسحون بدهنها فم الاله ، وكذلك فم زوجته وأطفاله ٠ ثم يقذفون خارج الباب بقليل من الشراب الذى هيىء فيه اللحم ، كتقدمه للأرواح الأخرى (٣) ٠

فاذا تم ذلك ، اعتبروا أن ربهم وأسرته حصلوا عـــلى نصيبهم الواجب ومضوا فى طعامهم وشرابهم بغـير مراسـم

أخـرى • ويرتدى الغنى بين هـؤلاء النـاس ثياب القصب والحرائر مع جلود السمور الأسود والسمور الأبيض(الفاتم) وغيرها من حيوان •

وأسـلحتهم هى القسى والقضـبان (الـدبابيس) الحـديدية والحـراب في بعض الحـالات ، ولـكن القوس هـو السـلاح الذى هم فيـه خبراء يجيـدون اسـتخدامه الى اقصى حـد ، وذلك لتعودهم ، منـذ نعـومة أظفـارهم أطفـالا ، على استخدامه في رياضاتهم (٤) • وهم يرتدون دروعا دفاعية مصنوعة من جلود الجاموس الغليظة وغيرها من البهائم ، بعد تجفيفها بالنار لتصبح بذلك مفرطة الصـلابة والقوة • وهم شجعان فى إعارك الى درجة الاستبئاس الأهوج، اذ لا يقيمون وزنا كبيرا لحيـاتهم ، ويعرضون أنفسـهم بغير تردد لكل أنواع الخطر • وهم قساة القلوب •

كما أنهم قادرون على احتمال كل أنواع الحرمان ، واذا اقتضت الضرورة أمكنهم العيش شهرا كاملا على لبن أفراسهم وعلى ما يتصادف لهـم صـيده من حيـوان وحشى • وتطعم خيولهم الكلأ وحده ولا تحتاج الى الشعير أو غيره من الحبوب •

والرجال معتادون على البقاء عـلى صهوات الخيل يومين وليلتين بغير ترجل ، وينامون على هذا الوضع وخيولهم ترعى الكلأ • ولا يفوقهم شعب على ظهر البسـيطة فى الجلد عـلى الشدائد ، ولا هو يبدى صبرا أكثر منهم على الحرمان بجميع أنواعه • وهم يطيعون رؤسـاءهم طاعة مطلقـة ، ونفقات اعالتهم قليلة •

وبهذه السجايا ، وهى البالغـة الجـوهرية في تكـوين الجند ، تهيأت لهم اللياقة لاخضـاع العـالم ، كما حدث فى الواقع فى شطر ضخم منه •

الفصل التاسع والاربعون

عن جيوش التتار ، والطريقة التى تشكل بها •• وعن نظام زحفهم وعن مؤنهم – وعن طريقتهم فى مهاجمة العدو •

عندما يزحف أحد كبراء الرؤساء من التتار فى حملة عسكرية ، يجعل نفسه عـلى رأس جيش مؤلف من مائة ألف راكب ، ينظمهم بالطريقة التاليـة : فيعين ضابطا عـلى كل عشرة رجال وآخرين لقيادة كل مائة وكل ألف وكل عشرة آلاف على التعاقب •

وهكذا يحدث أن عشرة من الضباط الذين يقودون عشرة رجال يتلقون أوامرهم ممن هو على امرة مائة ، وكل عشرة من هؤلاء يتلقون الأوامر ممن يقود ألفا ، وكل عشرة من هؤلاء الأخرين ممن يقود عشرة آلاف •

وبهـذا الترتيب لا يتحتم على كل ضابط الا أن يرعى تدبير أمور عشرة رجال أو عشرة مجمـوعات من الرجال ، وعندما تحين أمام قائد هذه المائة ألف مناسبة لتجهيز فصيلة لأية خدمة معينة ، يصـدر أوامره الى قادة عشرات الآلاف ، ليزوده كل منهم بألف رجل ، ويصدر هؤلاء أوامرهم بالمثـل الى قادة الألف ، الذين يوجهون أوامره الى من يقودون مائة ، حتى يصل الأمر الى الذين يقودون عشرة ، فيوجهون فورا العدد المطلوب الى رؤسائهم من الضباط الأعلين •

وبهذه الطريقة يسلم مائة رجل لكل ضابط يأمر ألفا ، وألف رجل لكل ضابط يأمر (يقود)عشرة آلاف (١) • وكل مجموعة من مائة رجل تسمى توك Tuc وكل عشرة من هؤلاء يكونون تومان Toman (٢) • وعندما يتقدم الجيش لاداء خدمة ، يرسلون أمامه كوكبة من الرجال تتقدمه مسيرة يومين ، وتوضع فصائل فى جناحيه ومؤخرته رغبة فى الحيلولة دون مهاجمته على حين غرة •

فاذا كانت المهمة بعيدة ، لم يحملوا معهم الا الشيء القليل ، وذلك يكون بوجه خاص ما يلزمهم من وسائل التخييم ، وأدوات الطبخ • اذ هم يعيشون فى معظم شأنهم على اللبن كما أوضحنا ، ولكل رجل فى المعدل ثمانية عشر حصانا وفرسا ، واذا تعب الحصان الذى يركبونه بدلوا به آخر • وهم مزودون بخيام صغيرة مصنوعة من اللباد ، يتقون بها المطر • واذا حزبتهم الظروف ، فى أثناء تنفيذهم مهمة تحتاج الى السرعة ، فان فى مستطاعهم الزحف عشرة أيام طباقا بغير تجهيز أطعمة ، ويعيشون في أثناء تلك المدة على دم خيولهم ، اذ يشق كل رجل عرقا ويشرب من دم ماشيته (٣) • وهم يختزنون اللبن أيضا ويتخذونه مئونة بعد أن يغلظوه ويجففوه حتي يصبح في حالة عجينة يابسة (أو خثارة) تجهز بالطريقة التالية : فانهم يغلون اللبن وبعد أن ينزعوا منه الجزء الدسم أو القشدة عندما تصعد الى السطح ، يضعونها في وعاء منفصل كزبدة ، وذلك لأنه مادام الزبد في اللبن فانه لن يصلب أبدا • ثم يعرض اللبن للشمس حتي يجف •

وعند خروجهم للخدمة العسكرية يحملون معهم ما يقارب عشرة أرطال لكل رجل ، ويوضع من هذه المادة المجففة فى كل صباح مقدار نصف رطل في زق من جلد (أو قربة صغيرة صغيرة) مع القدر اللازم من الماء • وبفضل حركتهم وهم ركوب تهتز محتويات القربة اهتزازا عنيفا ويتكون منها ما يشبه العصيدة الخفيفة فيتناولونها وجبة غداء (٤) •

وعندما يتقدم هؤلاء التتار للاشتباك فى القتال فانهم لا يطبقون على الاعداء ابدا ، وانما يظلون يحومون حولهم ، ويطلقون عليهم سهامهم من هذا الجانب أولا ثم من ذاك بعد ذلك ، متظاهرين احيانا بالفرار . وهم يطلقون السهام الى الخلف أثناء فرارهم على متعقبيهم، فيقتلون الرجال والخيول، كأنما يقاتلونهم وجها لوجه .

وفى مثل هذا الضرب من القتال يتصور الخصم انه احرز نصرا ، بينما هو قد خسر المعركة فى الواقع ، وذلك لان التتار حين يلحظون الضر الذى انزلوه به، يستديرون اليه ثم اذ يجددون القتال يتغلبون على ما بقى له من جند ، فيأخذونهم أسرى رغم الجهود المضنية التى يبذلون . ودربت خيولهم أحسن تدريب على التغيرات السريعة فى الحركة ، حتى انها لتبادر بالدوران على الفور فى كل اتجاه لدن صدور الاشارة اليها ، وبفضل هذه المداورات : (المناورات) السريعة تمت لهم انتصارات كثيرة .

وكل ما روى هنا يدور حديثه حول العادات الأصلية لرؤساء التتار ، ولكنهم فى الزمن الحاضر داخلهم الشىء الكثير من الفساد (٥) . فمن يقيمون منهم فى أوكاكا قد تبنوا ـ وقد نسوا شرائعهم الخاصة ـ عادات القوم الذين يعبدون الأوثان ، كما اتخذ من يسكنون الولايات الشرقية عادات العرب المسلمين (٦) .

الفصـــل الخمســـون

عن قواعد العـدالة التى يرعاها هذا الشعب – وعن نوع خيالى عن الزواج يعقد بين الأطفال الموتى من مختلف العائلات .

تقام شئون العدالة بينهم بالطريقة التالية : فمتى اتهم شخص بسرقة لا تستحق انزال عقوبة الموت به ، حكم عليه بعدد معين من الضربات بالعصا ـ سبعة أو سبعة عشر أو سبعة وعشرون أو سبعة وثلاثون أو سبعة وأربعون أو ما يرتفع الى مائة وسبعة ، حسب قيمة السلعة المسروقة وظروف السرقة ، وكثير منهم يموتون تحت هذه العقوبة(١) . ومتى كانت العقوبة على سرقة حصان أو أى شيء آخر ، الأمر الذى يضع مرتكبها تحت طائلة عقوبة الاعدام ، حكم عليه بالموت ، وينفذ الحكم بشطر جسمه بالسيف شطرين (٢) . ولكن متى كانت لدى اللص الموارد الكافية لسداد تسعة أمثال قيمة السلعة المسروقة ، نجا من كل عقوبة أخرى بعد ذلك . ومن الأمور المألوفة أن كل رئيس قبيلة أو غيره من الناس ممن يملكون قطعانا كبيرة من الماشية ، كالخيل أو الأفراس أو الجمال أو الثيران أو الأبقار ، يميز أنعامه بوسمها بميسمه الخاص ، ثم يتركها ترعى حرة طليقة فى أية ناحية من نواحى السهول أو الجبال ، دون تكليف رعاة برعايتها ، واذا تصادف أن واحدة منها اختلطت مع ماشية الملاك الآخرين ، ردت الى الشخص الذى عليها ميسمه . وعلى العكس من ذلك فان للأغنام والأعناز أشخاصا يقومون عليها . وجميع ما لديهم

من انواع الماشية ضخمة الحجم وسمينة ومفرطة الجمال(٣) ·
واذا كان لرجل في الماضى ابن وكان لرجل آخر ابنة ، وان ربما كانا ميتين منذ بضعة أعوام ، فان لديهم عادة عقد زواج بين طفليهما المتوفيين ومنح البنت للشاب · وهم يرسمون في الوقت نفسه على قطع من الورق آشكالا بشرية ، لتمثل الخدم مع الخيل وغيرها من حيوان ، والثياب من جميع الأنواع والنقود وكل قطعة من قطع الأثاث ، ثم يلقون في اللهب بكل هذه الأوراق ، ومعها عقد الزواج ، الذى يحرر بالطريقة النظامية المقررة ، حتى يمكن نقل هذه الاشياء عن طريق الدخان المتصاعد (فيما يعتقدون) الى أطفالهم فى العالم الآخر ، وحتى يمكن أن يصبحا زوجا وزوجة بالشكل المطابق للعرف · وبعد هذا الحفل يعتبر الوالدان والوالدتان أنفسهم أصهارا ، كأنما قامت رابطة حقيقية بين أطفالهم الأحياء (٤) · الآن وقد أدلينا اليك ببيان عن عادات وأعراف التتار ، وان لم نتعرض بعد للأعمال الباهرة والمغامرات المقدامة التى قام بها خانهم الأعظم ، الذى هو سيد التتار جميعا ، فاننا سنعود الآن الى موضوعنا الأول ، أعنى الى السهل المترامى الذى كنا نعبره عندما توقفنا لنقص تاريخ هذا الشعب ·

الفصـــــل الحادى والخمسون

عن سهل بارجو قرب كراكوران ـ وعن عادات سكانه ـ وعن المحيط الواقع على مسيرة أربعين يوما منه ـ وعن الصقور التى تنتج فى الأراضى الواقعة على حدوده وعن اتجاهات المجموعة النجمية الشمالية كما تبدو لمشاهد بتلك الأصقاع .

اذا أنت غادرت كراكوران وجبال آلطاى ، التى بها كما أسلفنا اليك ، مقابر الأسرة الامبراطورية التترية ، تتقدم باتجاه شمالى من خلال اقليم يسمى سهل بارجو ، يمتد مسافة تقارب مسيرة أربعين يوما (١) . والشعب الذى يفطن تلك المنطقة يسمى المكريتى (Mekriti) (٢) ، وهو قبيلة غليظة الفؤاد ، تعيش على لحوم الحيوان ، الذى يعد أكبره حجما مقارنا للأيل (Stag) فى طبيعته ، وهم يستخدمونه أيضا فى أغراض السفر (٣) . وهم يقتاتون كذلك بالطيور التى ترتاد بحيراتهم ومستنقعاتهم الكثيرة ، كما يقتاتون بالأسماك أيضا . وتلتمس الطيور هذه المياه فى موسم ذوبان الثلوج أى أثناء الصيف . ولأنها تكون آنذاك بسبب خفة (نقص) ريشها ، عاجزة عن الطيران فان الأهالى يقبضون عليها بلا صعوبة .

ويطل هذا السهل على المحيط فى طرفه الشمالى .

وتشابه عادات الناس وأعرافهم مثيلاتها التى سبق صفها عند التتار ، كما أنهم من رعايا الخان الأعظم . وليس

لديهم قمح ولا خمور ، ومع انهم يحصلون على قوتهم في الصيف من الصيد ، الا أن البرد في الشتاء من فرط الشدة بحيث لا يستطيع طير ولا بهيمة أنعام المكث فيه هناك (٤) . وبعد رحيل اربعين يوما ، فيما يقال ، تصل الى المحيط (الشمالى) (٥) .

بالقرب من هذا السهل جبل، تجعل فيه وفي السهل المجاور، النسور والبزاة الجوالة (Peregrine falcons) عشوشها . وليس هناك انسان ولا أنعام ، فأما الطيور فليس منها الا نوع يسمى Bargelak ، والصقور التي تتخذ منه طعاما . والطير الأول يقارب الحجل في حجمه ، وله ذيل كذيل الخطاف (Swallow) ، وبراثن تشبه براثن نوع الببغاء ، وهو سريع الطيران .

وعندما يرغب الخان الأعظم في الحصول على مجموعة من البزاة الجوالة (وهي نوع ممتاز من الصقور) يرسل في طلبها من هذا المكان ، وهناك جزيرة تقع قرب الشاطيء ، توجد بها السناقير بأعداد يمكن معها تزويد جلالته بأية كمية يريدها (٦) .

وينبغي ألا يظن أن السناقير (Gerfalcons) التي ترسل من أوربا ، ليستخدمها التتار تحمل الى بلاط الخان الأعظم . اذ أنها لا تذهب الا الى بعض رؤساء التتار أو غيرهم من الرؤساء ببلاد المشرق ، المتاخمة لأقاليم الأرمن والكومان .

وتقع هذه الجزيرة بعيدا في الشمال بعدا يجعل مجموعة النجوم القطبية تبدو خلفك وكأنما لها ، بشكل جزئي ، اتجاه جنوبي (٧) .

والآن وقد تحدثنا على ما ترى ، عن المناطق الواقعة الى جوار المحيط الشمالي ، فاننا سنصف الولايات الواقعة أقرب الى مقر حكم الخان الأعظم ، ثم سنعود الى ولاية كاميون ، التي ورد ذكرها من قبل .

الفصـــــل الثاني والخمسون

عن مملكـة أرجينول ، المجـــاورة لملكة كامبيون، وعن مدينة سنجوى ـ وعن فصيلة من الثيران مكســـوه بشعر مفرط النعومة ـ وعن شكل الحيوان الذى ينتج المسك ، وطريقة الحصول عليه ـ وعن عادات سكان ذلك الاقليم ـ وجمال نسائهم .

عند مغادرة المسافرين كامبيون ، والتقدم مسيرة خمسة أيام نحو الشرق ، كثيرا ما يصابون فى أثنائها بالرعب لمـا يسمعون أثناء الليل من أصوات الأرواح ، يصلون الى مملكة تسمى : أرجينول (١) ، خاضعة للخان الأعظم ، وداخلة فى ولاية تانجوت . وتقع داخـل حـدود هـذه المملكة امارات عـديدة ، ســكانها عـــلى الجملة من الوثنيين مـع قلة من النساطرة المسيحيين ومن عباد محمد . (كذا ..!!؟..) .

والمدينة الرئيسية بين مدن كثيرة وأماكن حصينة هى أرجينول . ويمضى بك الطريق من هنـا فى اتجاه جنـوبى غربى فيحملك الى كاثاى ، وفى هـذا الطريق تجد مدينـة تسمى سنجوى (٢) تقوم فى منطقـة بذلك الاسم نفسـه ، توجد بها مدن وقلاع كثيرة ، تابعة بالمثل لتانجوت، وخاضعة لسلطان الخان الأعظم ويتألف سكان هذا الاقليم عـلى نحـو رئيسى من الوثنيين ، على أن هنـاك أيضـا بعض المسلمين والمسيحيين .

وهنا يوجد كثير من الماشية البرية التى يمكن تشبيهها ،
من حيث الحجم ، بالافيال ولونها خليط من بياض وسواد.
كما انها بالغة الجمال للناظرين • ويتدلى الشعر على كل جزء
من أجزاء جسمها أملس ناعما ، فيما عدا الكتف ، حيث
ينتصب مرتفعا ما يقارب ثلاثة أشبار • وهذا الشعر أو اقل
الصوف أبيض كما أنه أنعم وأرق من الحرير (٤) •

وحمل ماركو بولو بعض ذلك الشعر الى البندقية ،
بوصفه تحفة عجيبة ، وعلى ذلك الاعتبار نفسه قدره جميع
من راوه • وأخذ كثير من تلك البهائم فى حالة وحشيه ثم
انس ، وجاءت السلالة المنتجة بينها وبين البقرة العادية ،
حيوانات ممتازة ، وأقدر على تحمل التعب من أى نوع اخر •
وهى متعودة على حمل أحمال أثقل وعلى القيام فى الزراعة
بضعف المجهود الذى يستطيع عمله النوع العادى من الثيران،
وذلك لأنها تجمع بين النشاط والقوة (٥) وفى هذا القطر
يتم الحصول على أنقى وأثمن أنواع المسك (٦) •

والحيوان الذى ينتجه لا يزيد عن العنزة حجما ، ولكنه
يماثل الظبى فى شكله • وهو يسمى بلغة التتار جودرى
Gudderi (وهى لفظة قريبة الشبه من كلمة جؤذر العربية)،
وغلافه يماثل غلاف الصنف الأكبر حجما من الغزلان • فأما
أقدامه وذيله فهى نفسها ما للظباء ، ولكنه أجم ليست له
قرونها • وهو مزود بأربع أسنان بارزة أو أنياب ، طولها
ثلاث بوصات ، اثنتان منها فى الفلك الأعلى وتتجهان الى
أسفل ، واثنتان فى الفك الأسفل وتتجهان الى أعلى ، وهى
تعد صغيرة بالنسبة لطولها ، كما أنها بيضاء كالعاج • وهو
على الجملة حيوان جميل •

ويتم الحصول على المسك بالطريقة التالية : فعندما يكتمل
القمر بدرا ، يتكون كيس أو تورم فيحى من الدم المتجلط
حول منطقة السرة ، وعندئذ يعمد الذين يشتغلون فى صيد
الحيوان للاستفادة من ضوء القمر لهذا الغرض ، فيقطعون

الغشاء . ثم يجففونه بعد ذلك، هو ومحتوياته في الشمس(٧) وعنـد ذلك يتجلى أبدع نـوع معروف من المسـك · وتصاد منه أعداد غفيرة ، ويستمرىء الناس أكل لحمه (٨) ·

وأحضر ماركو بولو معه الى البندقية رأس وارجل حيوان منها مجففة · ويشتغل سكان هذا الاقليم بالتجارة والصناعة · ولديهم الحبـوب بوفرة · وامتـداد الولاية مسـيرة خمسـة وعشرين يوما (٩) · ويوجد بها نوع من التدرج : (الفزان (Phesant حجمه ضعف حجم ما عندنا ، ولكنه أصغر شيئا ما من الطاووس · وطول ريش الذيل سـبعة أشبار أو ثمانية (١٠) ·

وهناك أيضا تدارج آخـرى ، تعـادل تدارجنـا حجما ومنظرا ، فضلا عن أضرب جمة من الطيور الأخرى ، التى يمتاز بعضها بالريش الجميل · والسكان وثنيون (١١) · والناس هناك ميالون الى البدانة ، كما أن آنوفهم صغيرة · وشعرهم أسود ، ولا تكاد تنبت لهم لحية أو قد تنبت لهم بضع شعرات متناثرة على الذقن (١٢) · ونسـاء الطبقة العليـا مجردات بالمثل من شعر الجسم ، وبشرتهن شقراء ، كما ان جسومهن جميلة القد ، ولكنهن خليعات منحلات · والرجال كثيرو الولع بمجالس النسـاء · كمـا أنهم طبقـا لشرائعهم وتقاليدهم يستطيعون أن يتزوجوا من النساء ما طاب لهـم من عدد ، شريطة أن يستطيعوا اعالتهن ·

واذا كانت احدى الشابات جميلة ، ولو فقيرة ، أغرى الأغنياء باتخاذها زوجة لهم ، وللحصـول عليهـا ، يقدمون الهدايا النفيسة لوالديها وأقاربها ، اذ أن الجمال هو الصفة الوحيدة التي يقدرها الجميع · والآن سنغادر هذه المنطقة ونتحول الى الحديث عن أخرى ، تقع الى الشرق أكثر ·

الفصـــــل الثالث والخمسون

عن ولاية اجريجايا . وعن مدينة كالاتشا – وعن عادات أهلها – وعن أنسجة الحملة المصنوعة هناك .

متى رحلت عن أرجينول ، وتقدمت شرقا مدة ثمانيـة أيام، وصلت الى اقليم يسمى اجريجايا (لايزال تابعا لولاية تانجوت الكبرى، وخاضعا للخان الأعظم،) وهو يحوى كثيرا من المدن والقلاع ، تسمى الرئيسية منها كالاتشا (١) . والسكان على وجه الجملة وثنيون، على أن هناك ثلاث كنائس للنساطرة المسيحيين . وهم يصنعون بهذه المدينة أنسجة خملة جميلة ، هى أجمـل ما عرف منهـا فى العـالم ، يصـنعونها من وبر الجمل ، كما يصنعونها كذلك من الصوف الأبيض (٢) وهى ذات لون أبيض جميل . ويشترى التجار منها مقادير ضخمة، ويحملونها الى أقطار أخرى كثيرة ، وبخاصة الى كاثاى . والآن اذ نغادر هـذه الولاية فسنتحدث عن أخرى ، تقع فى (الشمال) الشرقى ، وتسـمى تنـدرك ، وبذا ندخـل فى الاقليم التابع لبريسترجون .

الفصـــــل الرابع والخمسون

عن ولاية تندوك ، التى يحكمها أمراء من عترة بريسترجون ، ومعظم سكانها من المسيحيين — وعن رسامة قسوسهم — وعن قبيلة من شعب يدعى الأرجون ، هو أشد أهالى هذه الأقاليم وسامة وأكثرهم علما •

فأما تندوك (١) ، وهى تابعة لأملاك البريسترجون (٢) ، فهى ولاية شرقية ، يقوم بها كثير من المدن والقلاع — تخضع لسلطان الخان الأعظم • وظل جميع أمراء تلك الأسرة خاضعين منذ أن أخضع البلاد شنجيس الامبراطور الأول • وتسمى العاصمة تندوك أيضا • والملك الذى يجلس على العرش الآن من سلالة بريسترجون ، ولا يزال محتفظا بلقب بريستر جون ، واسمه جورج • وهو مسيحى وقسيس فى آن واحد • وكذلك غالبية السكان فانهم أيضا من المسيحيين • ويتولى هذا الملك جورج حكم بلاده اقطاعا من الخان الأعظم ، وهى ليست فى الواقع الممتلكات الأصلية لبريسترجون بكاملها ، ولكنها جزء معين منها ، والخان ينعم عليه دواما ، وكذلك على جميع أمراء بيته ببناته وغيرهن من اناث الأسرة الملكية زوجات لهم • وفى هذه الولاية يتوافر بكثرة الحجر الذى يصنع منه اللون اللازوردى ، كما أنه من أجود الأنواع •

وهنا أيضا يصنعون منسوجات من وبر الجمل • ويكسب الناس معايشهم بها من الزراعة والتجارة والاشتغال بالأعمال الآلية • ومع أنهم يخضعون لسلطان الخان الأعظم ، فانه

نظرا لأن الملك ، كما قلنا ، مسيحى ، توجد حكومة البلاد فى أيدى المسيحيين · على أنه يوجد بين السكان مع ذلك جماعات من عبدة الأوثان وأتباع دين محمد (٣) وهناك بالمثل طبقة من الناس عرفت باسم الأرجــون (٤) ، لأنهــم يولدون عن اختلاط جنســين ، هما أهالى تنــدوك وهم عبــدة أوثان ، والمسلمون ·

ورجال هذا الاقليم أكثر شقرة وأملح وجوها ممن فى الأقاليم الأخرى التى كنا نتحدث عنهــا ، كمــا أنهم كذلك أحسن تعليما وتجار أحسن خبرة وأكثر مهارة ·

الفصـــل الخامس والخمسون

عن مقــر حكم الأمراء من أسرة بريسترجــون ، وقـــوم يأجـــوج ومأجـــوج – وعن عاداتهـم – وعن نسجهم الحرير – وعن مناجم الفضة التى تشغل هناك ·

كان يوجد بولاية تندوك هذه ، المركز الرئيسى لحـكم الملوك الملقبين بريسترجون ، عندما حكموا تتار هذه الولاية وما يجاورها من أقاليم ، وهى التى يحتلهـا خلفـاؤهم حتى هذه الساعة · وجورج سالف الذكر ، هو الرابع فى الانحدار من بريسترجون ، الذى يعد رأسا لأسرته · وهناك منطقتان يمارسون فيهما سلطانهم · وهما يسميان فى قسمنا هذا من العالم (يعنى أوربا) يأجوج ومأجوج ، ولكن الأهالى هنــاك يسمونهما أونج ومونجول ، وفى كل منهما جنس من الناس يتميز عن الآخــر · فهم فى أونج يأجــوج وفى المونجــول تتار (١) · وأنت حين تسافر مسيرة سبعة أيام مخترقا هذه الولاية فى اتجاه شرقى ، الى كاثاى ، تمر عــلى مــدن كثيرة يسكنها وثنيون، فضلا عن المسلمين والنصارى النساطرة(٢) · وهم يكســبون معاشــهم عن طريق التجــارة والصناعات ، والنسيج ، وأنسجة خيوط الذهب المرصعة باللآلىء والمسماة نشتشى Nascici ، فضــلا عن أنواع الحرائر المختلفــة القوام والألوان ، والتى لا تختلف عما يصنع فى أوربا ، الى جانب أضرب جمة من الأقمشة الصوفية · وكل هؤلاء الناس رعايا الخان الأعظم · وهناك مدينة تسمى سنديتشن تشتهر

بصناعة جميع أنواع الأسـلحة وكل مادة وسـلعة ضرورية لتجهيز الجيوش · ويوجد بالمنطقة الجبليـة من الولاية مكان يسمى ايديفا ، به منجم غنى بالفضة ، تستخرج منه مقادير كبيرة من ذلك المعدن (٣) · وهنـاك أيضـا كثير من الطـير والبهائم ·

الفصـــــل السادس والخمسون

عن مدينة تشانجانور ـ وعن أنواع مختلفة من الكركي ـ وعن الحجـل والسماني التي تـربى بتلك المنطقة بأمر الخان الأعظم ٠

تصل عند مغادرتك المدينـة والولاية سـالفة الذكر ، وسفرك ثلاثة أيام ، الى مدينة تسمى تشانجانور ، ومعناها (البحيرة البيضاء) (١) ٠ وللخان الأعظم بهذا المكان قصر فخم أولع بزيارته لأنه محاط بمساحات من الماء وجداول جارية ، تتخذها كثير من البجع مثوى ، كما أن هناك سهلا يانعا يوجد به الكركي والتدرج والحجل وغيرها من الطيـور بأعـداد غفيرة ٠ وهو يستمد أعـلى درجة من التسـلية من التصـقر بالسناقير والبزاة ، وذلك نظرا لوجـود الصيد هنـا بوفرة عظيمة ٠ وهم يعدون في صنف الكركي (Cranes) وحده خمسة أنواع (٢) :

النوع الأول أسود تماما مثل الفحم وله أجنحة طويلة ٠

والصنف الثاني له أجنحة أطول من أجنحة الأول ولكنها بيضاء ، كما أن ريش الأجنحة ممتلىء بنكت مستديرة كنكت الطاووس ، ولكنها ذهبية اللون شديدة اللمعان ، والرأس حمراء وسوداء وجميلة الشـكل ، والعنق أسـود وأبيض ، والمنظر العام للطائر مفرط الجمال ٠

والصنف الثالث في حجم الكركي الذي يوجد عنـدنا (بايطاليا) ٠

أما الرابع فهو كراكي صغيرة ، ريشها مخطط تخطيطا جميلا باللونين الاحمر واللازوردى ٠

والخامس ذو لون رمادى ورأسه أحمر وأسود ، كما انه طائر كبير الحجم (٣) ٠

وبالقرب من هذه المدينة واد ينتابه عدد ضخم من الحجل والسماني ، التى من أجل اطعامها يأمر الخان الاعظم بأن يزرع الدخن والجاورس : (Millet and Panicums) وغيره من الحبوب الملائمة لاطعام هذه الطيور على جانبى الوادى فى كل موسم ، ويصدر الأوامر المشددة بألا يقدم اى فرد على جني الحبوب ، حتى لا تفتقد الطيور التغذية ٠ وينتشر هناك أيضا كثير من الحراس لوقاية الصيد، حتي لا يأخذه أو يدمره أحد ، فضلا عن توليهم القاء الدخن للطيور أثناء الشتاء ٠ وبلغ من اعتياد الطيور تناول طعامها على هذا المنوال ، أنها تتجمع على الفور من كل جدب وصوب عند نثر الحبوب وصفير الرجل لها ٠

ويعطى الخان الأعظم توجيهاته كذلك ببناء عدد من المبانى الصغيرة لتأوى الطيور اليها أثناء الليل ، ونتيجة لهذه الرعاية والاهتمام يجد على الدوام وفرة موفورة من الصيد عندما يزور هذا الاقليم ، بسبب شدة البرد ، يأمر بأن ترسل اليه أحمال جمال من تلك الطيور ، حيثما تصادف أن كان بلاطه فى تلك اللحظة(٤) ٠ واذ نغادر هذا المكان فاننا سنوجه الآن طريقنا مسيرة ثلاثة أيام نحو الشمال الشرقى ٠

الفصـــــل السابع والخمسون

عن سراى الخان الأعظم الجميلة بمدينة شاندو – وعن مجموعته من أفراس الاستيلاد البيضـــاء ، التى يقرب بلبنها قربانا سنويا – وعن العمليـــات العجيبة التى يؤديهـــا المنجمون فى حالة رداءة الجو – وعن المراسم التى يؤدونها فى قاعة السراى الملكية – وعن وضـــعين للسائلين (المتسولين) الدينيين مع ذكر طرائق عيشهم ٠

عند مغادرة المدينة آنفة الذكر ، والتقدم مســيرة ثلاثة أيام فى اتجاه شمالى شرقى تبلغ مدينة تسمى شاندو ، بناها الخان الأعظم قبلاى الذى له الولاية الآن (١) وأصـــدر أمره فبنى له فيها قصر من الرخام وغيره من الأحجـــار الجميلة : قصر ، يجمع بين اثارة الاعجاب لرشاقة تصميمه وبالمهـــارة التى تجلت فى تنفيـــذه ٠ وجميع قاعاته وغـــرفه ممـــوهة بالذهب فائقة الجمال ٠

وللسراى واجهة تتجه نحو داخل المدينة ، وتتجه الواجهة الأخرى نحو السور ، ويمتد من كل طرف من أطراف المبنى سور آخر يمتد ، بحيث يضم ستة عشر ميلا تشـــغل دائرة من السهل المجاور ، لا يمكن الوصول اليها الا من خلل القصر (٢) ٠

وتوجد داخل حـــدود هـــذا البستان الملكى مروج ثرية بنضرتها وجمالها ، تسقيها نهيرات كثيرة ، ترعى فيها أضرب

كثيرة من الحيوان ما بين ابل وأعناز ، لتكون طعاما تغتذى به الصقور وغيرها من الطيور المستخدمة فى الطراد ، وتقوم بيوتها أيضا بنفس الأراضى ٠

ويقارب عدد هذه الطيور المائتين ، كما أن الخان الأعظم يذهب الى هناك بشخصه مرة كل أسبوع على الأقل ليتفقدها ٠ وكثيرا ما يحدث أثناء تجواله على صهوة جواده فى أرجاء هذه الغابة المسورة ، أن يكون معه فهد صغير أو أكثر، محمولة على ظهر جواد خلف حراسها (٣) ، وعندما يروق له اصدار التوجيهات بانزالها ، فانها تصيد على الفور وعلا أو عنزا ، أو أيلا أسمر ، يلقيه لصقوره ، وبهذه الطريقة يبهج نفسه ٠

وبنى الامبراطور جوسقا ملكيا وسط هذه الأراضى ، حيث تنبت أجمة جميلة من الشجر ، يقوم على بهو معمد ذى أساطين جميلة مموهة بالذهب والورنيقى : (الورنيش) ٠ وحول كل عمود يلف تنين ، مذهب هو الآخر ، ذيله ، بينما تدعم رأسه بروز السقف ٠ وقد امتدت براثنه أو مخالبه يمنة ويسرة على امتداد السقف المعمد (٤) ٠

والسقف من عصى البامبو (الخيزران) ، وهو أيضا مموه بالذهب ، كما أنه من مدهون بطلاء خاص بحيث لا يصيبه البلل بأى ضرر ٠ ان محيط (البامبو) أعواد الخيزران المستخدمة فى هذه الأغراض هو ثلاثة أشبار كما أن طولها عشر قامات ، وبعد قطعها عند المفاصل تشق الى قسمين متعادلين ، بحيث تشكل برابخ أى ميازيب ، وبهذه (اذ توضع خلف خلاف مقعرة ومحدبة) يغطى الجوسق ، ولكن لتأمين السقف من فعل الرياح ، تربط كل خيزرانة عند نهايتها بالاطار(٥) ٠ ويطنب البناء من كل جانب من جوانبه (كما تطنب الخيمة) بأكثر من مائتى خيط حريرى شديد المتانة ، والا فانه نتيجة خفة المواد يكون عرضة للانقلاب تحت ضغط قوة الرياح الشديدة ٠

وهذا الجوسق بأجمعه يشاد ببراعة فى التحايل بالغة ، بحيث يمكن تفكيك الأجزاء أجمع ، ورفعهـا ، ثم اقامتها ثانية حسبما يهوى جلالته ٠

وقد اختار هذه البقعة للمسلاة والترويح عن النفس ، بسبب الجو المعتدل والهواء الصحي ، فهو من ثم يتخذ منهـا مقاما على مدى ثلاثة أشهر من السـنة هي يونيـة ويوليـة وأغسطس ، كما أنه دأب كل عام فى اليوم الثامن والعشرين للقمر ، وفي آخر هذه الشهور أن يرحل من هناك ، ويتوجه الى مكان معين ، لكي يقدم بعض قرابين معينة على الطريقـة التالية :

ينبغى آلا يغرب عن فهمنا أن جلالتـه يحتفظ برعائل من الخيل والأفراس تقارب عدتها عشرة آلاف ، وكلها فى بياض الثلج الناصع (٦) ٠ فأما لبن هذه الأفراس فلا يجرؤ احد على شربه ما لم يمت بالقـربى الى الأسرة المنحـدرة من جنكيزخان ، وذلك باستثناء أسرة واحدة أخرى فقط تسمى البوريات ، وهى أسرة منحها ذلك العـاهل هـذا الامتيـاز الشريف ، مكافاة لها على أعمال باسلة مجيدة أتتها فى ميدان القتـال بين يديه (٧) والحق أنه بلغ من شـدة الاحترام ألا يجرؤ امرؤ على وضع نفسه أمامها أى بمعنى آخـر عـلى اعتراض حركتهـا حتى وهى ترعى فى المروج أو الغابات الملكية ٠

وذلك لأن المنجمين ، الذين يسـتضيفهم فى خدمتـه ، والذين يجيدون بتعمق الفن الشيطانى للسحر ، قد أعلنوا أن من واجبه أن يقوم فى اليوم الثامن والعشرين للقمر فى أغسطس من كل عام بنثر اللبن المأخوذ من هذه الأفراس فى الهواء ، عـلى سبيل التكريم لجميع الأرواح والأصنام التى يعبدون ، التماسا لاسترضائها وضمان حمايتها للشـعب ، اناثا وذكرانا وللماشية والدواجن والحبـوب وغـيرها من ثمرات الأرض ، من أجل ذلك يستمسك جلالته بالقاعدة التى

من ذكرها ، ويتقدم في ذلك اليوم المعهود الى البقعة التي يقدم فيها بيديه قربان اللبن ، وفي هذه المناسبات يروح هؤلاء المنجمون ، أو السحرة كما قد يمكن تسميتهم، يعرضون في بعض الأحيان مهارتهم بطريقة مدهشة ، وذلك انه لو تصادف أن تلبدت السماء بالغيوم وبدت نذر سقوط المطر ، يصعدون الى سطح السراى التي يسكنها الخان الأعظم آنذاك ، وبفضل قوة تعزيماتهم يمنعون سقوط المطر ويوقفون العاصفة ، بحيث انه بينما تمر في المنطقة المحيطة عواصف من مطر ورياح ورعد ، فان السراى نفسها تظل غير متأثرة بعناصر الطبيعة (٨) • والذين يقومون بمعجزات من هذا القبيل أفراد من بلاد التبت والكزمير ، وهم طبقتان من الوثنيين أعمق براعة في فن السحر من سكان أى قطر آخر • وقد أقنعوا العوام أن تلك الأعمال انما تتم بفضل ما عليه حياتهم من قداسة وما في تعذيبهم لذواتهم من مزايا ، واذ يستغلون السمعة التي أحرزوها على هذا النحو ، فانهم يظهرون أمام الناس بحالة قذرة وغير محتشمة ، غاضين النظر عما ينبغي لهم من الالتزام نحو أخلاقهم وكذا عن الاحترام الواجب لمن يظهرون في حضرته • فهم يتركون وجوههم قذرة على الدوام بغير غسل ويظل شعرهم أشعث غير ممشط ، ويعيشون في قذارة تامة (٩) • وفوق هذا فانهم مغرمون بهذه الممارسة البهيمية والمرعية وهي أنه متى حكم على أى مجرم بالاعدام ، حملوا جثته وشووها على النار ، ثم التهموها التهاما ، فأما الأشخاص الذين يموتون ميتة طبيعية فانهم لا يأكلون أجسامهم (١٠) •

وفضلا عن التسميات آنفة الذكر التي يتميز بها بعضهم عن بعض ، فانهم يسمون أيضا باسم الباكسى Baksi ، الذى يطلق على طائفتهم أو هيئتهم الدينية، على نحو قولنا الرهبان، والوعاظ وصغار القسس (١١) • وهم من بالغ الخبرة

بفنهم الجهنمي ، بحيث يمكن أن يقال عنهم انهم يفعلون كل ما يريدون ، واليك مثالا لذلك ، وان ظن أنه يتجاوز حدود التصديق فانه متى جلس الخان الأعظم لتناول الطعام، بقاعته الرسمية (وهو الأمر الذى سيوصف بتفصيل أكثر فى الكتاب التالى) ، فان المائدة التى توضع فى الوسط تجعل على ارتفاع نحو ثمانية أذرع ، ويقوم على مسافة فيها مقصف (بوفيه) ضخم ، قد رصت عليه جميع أوعية الشراب · والآن ، فان هؤلاء الرجال يستطيعون بفضل فنهم الخارق للطبيعة أن يجعلوا قناني الخمر أو اللبن أو أى شراب آخر تملأ الكئوس تلقائيا بغير أن تمسها أيدى الأتباع ، كما يجعلون الكئوس تتحرك فى الهواء عشر خطوات حتى تصل الى يد الخان الأعظم · فاذا أفرغها عادت الى أماكنها من حيث أتت ·

ويتم هذا بحضرة من دعاهم جلالته لشهود العملية (١٢) فاذا اقتربت أيام أعياد أوثانهم ، يذهب هؤلاء الباكسى الى قصر الخان الأعظم ، ويخاطبونه على النحو التالى : « مولانا ، ليكن معلوما لجلالتكم ، انه اذا لم تقدم الى أربابنا قرابين فانها فى غضبها ستنكبنا بالمواسم العجاف ، فتصيب حبوبنا بالآفات ، وماشيتنا بالأوبئة ، وغيرها من الأرزاء · وعلى هذا نلتمس الى جلالتكم منحنا عددا معينا من الأغنام لها رءوس سوداء (١٣) ، مع كثير من أرطال البخور ومن نبات الصبر ، حتى نتمكن من أداء المناسك المعتادة بكل ما يجب نحوها من جلال » · على أن كلماتهم لا توجه الى مسامع الخان الأعظم مباشرة ، بل الى بعض كبار الموظفين الذين ينقلون الرسالة اليه · فأما هو فلا يفوته على الاطلاق حين يتلقاها أن يوافق على ملتمسهم بأكمله ، وطبقا لذلك فمتى حل الموعد قربوا الشاه ، حتى اذا صبوا السائل الذى سلق فيه اللحم · أمام أوثانهم يتم قيامهم بمراسم العبادة · وتوجد بهذا القطر أديرة عظيمة، وهى والحق يقال من الرحابة والاتساع بحيث يمكن اعتبارها مدنا صغيرة ، ومنها ما يصل عدد

رهبانه الى ألفين ، كلهم مخلص فى خـدمة آلهتهم . طبقـا لعادات الشعب الدينية المقررة .

ويرتدى هؤلاء الرهبـان ثيابا أفضـل زيا مما يرتديه سائر السكان ، وهم حليقو الرءوس واللحى (١٤) ويحتفلون بأعياد أوثانهم بأقصى ما يمكن من جلال ، ومعهم جوقات من الموسيقى الصوتية والشموع المتقدة .

ويباح لبعض أفراد هذه الطبقة اتخاذ زوجات . على أن هناك كذلك هيئة دينية أخرى ، يسمى أعضاؤها بالسنسيم ، يحافظون على امتناعات دقيقة ويعيشون عيش تقشف بالغ ، اذ لا يتناولون الا نوعا من النخـالة النـاعمة طعاما ، والتى ينقعونها فى الماء الدافىء حتى ينفصل الجزء الدقيقى تماما من النخالة ، ثم يأكلونها وهى على تلك الحال . وتعبد هذه الطائفة النار ، وتعدها بقية الطوائف منشقة ، لأنها لا تعبد الأصنام كما يعبدون (١٥) .

وهناك فارق كبير بينهما فيما يتصل بالقواعد المرعيـة فى هيئتيهما ، وهؤلاء الوارد وصفهم أخيرا لا يتزوجون بأية حال . وهم يحلقون رءوسهم ولحاهم كالآخرين ، ويلبسـون ثيابا من الخيش ذات لون أسود أو كاب ، ولكن حتى لو كانت خامة ثيـابهم من الحـرير ، فان اللون لا يتغير (١٦) وهم ينامون على حصر خشنة ، ويقاسون من شظف العيش أكثر مما يقاسيه أى شعب فى العالم (١٧) . والآن سنترك هـذا الموضوع ونمضى فى سبيلنا متحدثين عن الأعمال العظيمـة والعجيبة للمولى والامبراطور الأسمى قبلاى خان .

الهـــــوامش

◉ هوامش الفصل الأول

ـ التمهيد :

(١) ان هذا التمهيد الذى حذفه مارسدن ، مترجم هنـا عن النص اللاتينى الذى نشرته الجمعية الجغرافيـة الفرنسـية ، وهو موجـود فى الترجمة الفرنسية الأولى التى نشرتها تلك الجمعية عينها ، وفى بعض المخطوطات الايطالية على أنه أدرج بشكل مختصر فى نص بونى الايطالى •

(٢) تذكر الترجمة الفرنسية المبكرة تأريخا بأنه عام ١٢٩٨ وهو امر يبدو أن التمهيدات الايطالية تتفق معه •

ـ الفصـــل

(١) بالدوين الثـانى كونت فلاندرة وابن عـم لويس التاســع ملك فرنسا ، الذى حكم من ١٢٣٧ الى ١٢٦١ ، كان آخر أباطرة اللاتين بالقسطنطينية •

(٢)ان الفترة التى نصها فى نسخة راموسيو

« dove all horo soleva star eun podestà di Venitia, per nome de messer Lo Dose.

والتى كتبت عنها مقـالا خاصا ، يقابلها شىء فى الترجمات اللاتينيـة ولا الفرنسية ولا فى النص الايطالى الذى أصدره بونى • وقد فتحت مدينة القسطنطينية الولايات اليونانية فى ١٢٠٤ ، على يد جيـــوش الفرنســيين والبنادقة المتعـاونة ـ وكان الآخـرون تحت قيـادة دوجهم ذائع الصيت هنـرى داندولو شـــخصيا • وعنـد تقسـيم البلاد والغنائم الهائلة التى وقعت فى حوزتهم ـ خص الجمهورية نصيب (ضم تمثال الخيول البرنزية الشهير لليسبيوس) أعظـم مما خص الامبراطور الذى انتخب فى تلك المناسبة ، أما الدوج العجوز الذى أبى قبـــول اللقب الامبراطورى ، وان قبل لقب أمير رومانيا ، فقد احتفظ بدائرة اختصاص مستقلة تضم ثلاثة من أجزاء المدينة الثمانية مع استقلاله بمحكمـــة منفصلة ، وختم أيامه وهو على رأس جيش كان يحاصر مدينة أدرنة • وليس هناك ما يؤيد أن أى واحد من خلفائه فى المنصب الرفيع لرئيس

الجمهورية اتخذ من المدينة الامبراطورية مقاما · اذ يقول جيبون : « قلما سمح للدوج ، وهو بمثابة عميد للدولة ، بترك دفة الأعمال فى الجمهورية · ولكن كان يقوم بعمله الكفيل أو نائب الملك · الذى كان يمارس السيادة العليا على جالية البنادقة ــ وذلك هو البودستا والذى يسمى أحيانا بالكفيل (Bailo) وأحيانا بالآمر الذى يدور الحديث هنا عن حكمه المعاصر ، والذى كانت أهميته السياسية فى الامبراطورية المنحطة آنذاك . لا تقل الا قليلا عن أهمية بالدوين · وذلك بينما كانت تلك الأهمية فى نظر أسرة بولو ، بوصفهم مواطنين بنادقة ــ أعظم كثيرا فى الراجح · وكان اسم الشخص الذى يتولى أعباء الكفالة فى وقت وصولهما فيما ترويه مخطوطة سورنزو المسيو بونت ده فينيكسيا ــ وفى ١٢٦١ التى استردت فيها الامبراطورية أو بمعنى أخص المدينة ، من قبضة اللاتين ــ كان البودستا هو ماركو جرادنيجو ·

(٣) يقول مارسدن : « ان هناك أسسا قوية تدعو الى الاعتقاد بأن هذا التاريخ ١٢٥٠ · غير صحيح وان ورد بجميع الاصدارات وفى المخطوطة التى توجد منها نسخ فى المتحف البريطانى ومكتبات برلين ــ يحدد بدء الرحلة بعام ١٢٥٢ ، كما أن بعض الأحداث الواردة فى السياق تجعل من الواضح أن رحيل رحالتينا على الأقل ، من القسطنطينية ، لابد أنه جرى بعد منتصف القرن ببضع سنوات ولعل ذلك لم يكن أبكر من ١٢٥٥ ولم يرد شيء عن عدد السنين التى تعطلا أثناءها بتلك المدينة ، ولكن عند أى احتساب لمدة وصولهما أو رحيلهما ، سيأخذنا الدهش لأن جريناوس ، الذى أصدر طبعة بال وباريس فى ١٥٣٢ ومن بعده العلامة مولروبرجيرون ، يدخلان بغض النظر عن الخلط والتناقض التاريخى فى نسختيهما تاريخ ١٢٦٩ الذى يجيء بعد ثمانى سنوات من طرد الامبراطور بالدوين ، وكان فى الحقيقة هو العام الذى عادا فيه الى مسورية من رحلتهما التتارية الأولى ·

(٤) نظرا لأن رخاء دولة البندقية وثراءها وأهميتها السياسية نشأت كلها عن تعاملها التجارى ، (فان مهنة التاجر كانت توضع فى أعلى درجة من التقدير ، كما أن اشرافها كانوا من أشد مغامريها اقداما فى التجارة الخارجية وربما جاز أن يطلق على هذه الدولة الرفيعة ذلك النعت الفاخر الذى جاء على لسان أشعياء عن صور القدومة التى يصفها بأنها : صور المتوجة (بكسر الواو) التى تجارها رؤساء · متسببوها ، موقرو الأرض (أشعياء ٢٣ : ٨) ·

(٥) ان صولدايا هو الاسم الذى أطلق فى العصور الوسطى على المكان الذى يسمى الآن سنوداك الميناء اليورو وهو راسكيزى عند

القدماء) وهو يقع قرب الطرف الجنوبي لشبه جزيرة القرم أو توريك خرسونيوس وهو يوصف بهذه الكلمات « قرب منتصف الولاية المذكورة باتجاه جنوبي ، كأنما على زاوية حادة أو نقطة تقدم مدينة اسمها صولدايا قبالة سينوبوليس مباشرة · وهناك يصل جميع تجار تركيا الذين يمرون الى داخل الأقطار الشمالية ، أثناء رحلتهم الى الخارج ، وعندما يعودون نحو بلادهم من روسيا أيضا ومن الأقطار الشمالية · آنفة الذكر ــ الى تركيا ــ » انظر : برشاش المجلد ٣ ص ٢ ·

(٦) يدعى هذا الأمير التترى عادة باسم بريكه (Bereké) خليفة باتو ويقال انه أخوه أيضا وباتو هو ابن توشي ، الابن الأكبر لجنكيزخان وقد ورث بريكه نصيبه في ممتلكات جده (وان لم يتملكه مستمتعا بولاية تامة عليه) : الأقطار الغربية قابشاق أو كيشاك وآلون وروس وبلجار وتوفى سنة ١٢٥٦) ·

(٧) ان بولجار أو بلجار أو بلغار ، التى ورد ذكرها هنا ، هى اسم لمدينة ومنطقة مترامية الأطراف فى بلاد التتار ، تقع الى الناحية الشرقية من نهر الفولجا ، ويسكنها الآن الباشكير ، وهى تميز فى بعض الأحيان عن بولجاريا الواقعة على نهر الدانوب بتسميتها بولجاريا الكبرى · فأما أسارا فهى مدينة سراى (مع اضافة أداة التعريف فى أولها) الواقعة على الذراع الأيمن لنهر الفولجا ، أو أشتوبا · ولم تكن استراخان التى ذكرها بالدوتشى بيجولتى واقعة فى نفس الموقع الذى تقوم فيه تلك المدينة الآن ، ولكن استراخان القديمة دمرت هى وساراى معا على يد الامبراطور تيمور فى شتاء عام ١٣٩٥ · وكانت مدينة ساراى القديمة قريبة بعض الشيء من مدينة أستراخان القديمة ــ فورستر ·

(٨) ان هؤلاء « التتار الشرقيين » ، كما يسمون بهذه التسمية، وان لم تمتد ممتلكاتهم شرقا الى ما يتجاوز ولايات بلاد فارس وخراسان، انما اطلق عليهم هذا الاسم رغبة فى تمييزهم عن التتار الغربيين (أو بعبارة أصح التتار الشماليين الغربيين) الواردة ذكرهم فى الهامشة السابقة والذين احتلوا المناطق الواقعة الى جوار نهر الفولجا ، ومنها الى تخوم ــ أو الى ما وراء تخوم ــ أوربا · واميرهم هنا الذى اسمه الاءو أو هالاءو ، هو هولاكو ذائع الصيت ، ابن تولى أو تولوى ، كما أنه شأن باتو ومانكو وقبلاى (والأخيرون هم اخوته) هو حفيد جنكيزخان · ونظرا لاناطة أخيه الأكبر مانكو أعباء القيادة به فى الولايات الجنوبية من الامبراطورية غادر قره قورم ، قبل زيارة روبروكيس لتلك العاصمة التترية بزمن قليل ، وفى عام ١٢٥٥ عبر

نهر جيحون (Oxus) بجيش كبير . وفى السنة التالية قضى على جنس أو طائفة الاسماعيلية ، الذين يسمون أيضا بالملاحدة ، وسيقدم عنهم فيما بعد بيان خاص ، ثم وجه جيوشه على مدينة بغداد ، التى أعمل فيها الذهب فى ١٢٥٨ ، وأعدم المستعصم بالله آخر الخلفـــاء العباسيين . وعند وفاة مانكو فى ١٢٥٩ أصبح هولاكو بالفعل صاحب الكلمة العليا والسيادة بالعراق الفارسية والبابلية ومعهما خراسان . ومع ذلك فانه ظل معترفا بولاء اسمى مقترن بالاحترام لأخيه قبلاى ، الذى اعترف به الجميع رأسا للأسرة المغولية وجعل مقر حكمه فى بلاد الصين . ووافته منيته فى ١٢٦٥ بمدينة توريس أو تبريز ، عاصمة ملكه .

(٩) ليس ثمة شك فى أن هذه هى أوكاك التى ذكرها أبو الفدا ، وهى التى يمكن أن يظن أن طريق رحالتينا امتد منها نحو مدينة جايك ، على النهر المسمى بذلك الاسم ، ثم بعد ذلك الى نهر سيحون .

(١٠) الواضح أن النهر العظيم الذى عبره رحالتانا ، والذى ربما جاز لهما ، لشدة عظمه أن يظنا انه خليق بأن يوضع فى مصاف أنهـار الفردوس ، كان نهر سيحون ، الذى يسمى أيضا بنهر سر (سرداريا).

(١١) الصحراء المذكورة هنا هى صحراء كاراك ، الواقعة الى جوار نهر سيحون أوسر ، والتى لا مفر للمسافرين القـادمين من الشمال أن يقطعوها للوصول الى بخارى .

(١٢) لا شك أن هذه المدينة الشهيرة ، التى لا يسهل أن يقع خطأ فى اسمها ، ولم يطمس اسمها الناسخون تقوم بخدمة مادية ثابتة هى تحديد الاتجاه العام لطريقهما . وذلك لأنهما وقد تقدما شمالا من بلاد القرم ، لم يكن فى وسعهما بلوغ بخارى الا بعبور الأنهار العديدة التى تصب مياهها فى القسم الأعلى أو الشمالى من بحر قزوين .

(١٣) يبدو أن هذا هو الأمير الذى يدعوه بتيه ده لاكرواه باسم براك كان ويسميه ده هيربيلوه باراك خان (براق خان) ابن حفيـــد جاغتاى (جاجاتاى) ، الابن الثانى لجنكيز خان ، الذى ورث ما وراء النهر ، Transoxiana أو المنطقة التى يمتلكها الآن تتار الأوزبك . ويروى ده هيربيلوه أن باراك حاول اغتصاب مملكة خراسان من قبضة أباقا ابن هولاكو . ولـكن لابد أن يكون ذلك القـول خاطئا ، وذلك لأن وفاة براق يضعها المؤرخون عامة فى عام ١٢٦٠ (بينما يحددها ده هيربيلوه بعام ١٢٤٠ بغير دقة مسئولة) ، ووفاة هولاكو فى ١٢٦٥ .

(١٤) عين مانكو أخاه قبلاى نائبا للملك ببلاد الصين . ومنـح هولاكو حكم كل ما يستطيع ادخاله فى طاعته من ولايات آسيا الجنوبية .

حتى اذا عاد هو نفسه الى الصين فى ١٢٥٨ ، مات أثناء حصـــار هوتشيو ، بمقاطعة سه تشوين فى العام التالى . وكان قبلاى فى ذلك الوقت بمقاطعة هركوانج ، وهو يواصل جهوده ليجعل من نفسه سيداً على فوتشانج فو ، عاصمتها ، حتى استدعى عنها ليخمـد فتنة اثارها أخوه الأصغر أرتكبغا ، الذى تركه مانكو نائبا عنه فى قره قورم . حتى اذا قنع بارغام امبراطور الصنج ، الذى كان يحكم مانجى ، أو الصين الجنوبية ، على دفع جزية سنوية تراجع الى الشمال ، وفى ١٢٦٠ نودى به خانا أعظم بمدينة شانج تو ، التى أصبحت منذ ذلك الحين مقامه الصيفى . ويروى مع ذلك ، أنه تردد فى حمل اللقب ردحا من الزمان ، ولم يعلن قبوله حتى وصل مبعوث من قبل أخيه هولاكو (الذى يظن بعضهم أنه كان أكبر سنا) ، يحضه على قبول منصب الامبراطورية . ويحق لنا ـ عقلا ـ أن نظن أن هذا المبعوث هو الشخص الذى وصـل الى بخـارى ، فى طريقه من بـلاد فارس الى خاتاى ، فى نفس الوقت الذى تعطل فيه بتلك المدينة كل من نيقولو ومافيوبولو ، وبهذا يتأكد أن المدة كانت قرابة عام ١٢٥٨ .

(١٥) ينبغى أن يفهم أن هذا الابهام فى تحديد مقر حكم الخان الأعظم ينطبق على خاتاى ، أو الصين الشمالية ، التى ندر أن غاب الامبراطور عنها أو عن المنطقة المجاورة المسماة كارتشن ، التى تقع بها شانج تو .

(١٦) المقصود من قوله : امبراطور الرومان هو الامبراطور الذى يحكم بالقسطنطينية ، يونانيا كان أم رومانيا . ويسمى أقصى المشارقة تلك الأقطار التى تشكل الآن ممتلكات الترك فى أوربا وآسيا الصغرى ، باسم مبهم عام هو بلاد « الروم » كما يسمون الواحد من سكانها باسم « رومى » .

(١٧) يحق لنا عقلا أن نشتبه (بغير أن يساورنا أى شك فى البعثة نفسها) فى أن العبارات التى وضعت هنا على لسان الامبراطور، سواء فيما يتعلق بعبادة التتار أو ألوهية المسيح ، قد بولغ فيهما بفعـل حماسة الناسخين المسيحيين . ولا شك ان حالة قبلاى ، الذى يعرف عنه أنه صاحب عقل ناشط مستطلع ، حيث يطلب أن يزود بعـــدد من المرسلين (المبشرين) من أوربا ، ليعلموا رعاياه التتار الجهلة فى شئون الدين ، وبخاصة فى ممارسة الفنون النافعة ، لا تتجاوز كثيراً ما فعله منذ ذلك الحين فى أحيان عديدة أمراء على أمم نصف متبربرة لم ترسخ بينها بالفعل المقدس جذور مبادىء القرآن وتعاليمه . وفيما يتعلق بالزيت المقدس فاننا نجـد شـاردان يذكـر أهميتـه على الوجـه

التالى : « ان ما يبيعونه (يعنى رجال الدين الأرمنيين) بأغلى ثمن هـو الزيوت المقدسة ، التى يسميها الروم باسم « الميرون « Myrone »
وتزعم غالبية المسيحيين الشرقيين أن هذا الزيت بلسم يبرىء السقام البدنية من كل أدواء النفس • والبطرك هو وحده صاحب الحق فى تقديسه • وهو يبيعه للأساقفة والقسس • ومنذ حوالى اثنى عشر عاما صمم بطـريرك فارس على منع رجـال الكنيسة الأرمنيين بكـل أرجـاء الشرق من التزود بالزيت المقدس الا من عنده ، فأما قساوسة تركيا فانهم يتزودون به منذ أمد بعيد من بيت المقدس ، من لدن البطريرك الأرمنى الذى يقيم بها والذى هو فيها الرئيس الأعلى لجميع المسيحيين الأرمنيين بالأمبراطورية العثمـانية » •

انظر Voy. en Perse مج ١ ص ١٧٠ (السطر ٤ من فوق) •

(١٨) كثيرا ما تذكـر الـكتابات الصينيـة « لوحـات الشرف tchikouei التى تسـلم لـكبار الموظفين أو الضباط عنـد تعيينهـم فى مناصبهم • وترصد عليها القابهم بحروف من الذهب ، وهى تخولهم امتيازات جساما أثناء السفر واللوحة التى ورد ذكرها هنـا يمـكن أن تعد من نفس النوع تقريبا • وهى تسمى فى لغة كانتون الأوربية السوقية باسم النوط الامبراطورى الأعظم ، وهى كلمة يعبر بها عن معنى « الخاتم، أو السمة أو الكفالة أو الرخصة أو جواز السفر » •

(١٩) حذف اسم المكان الذى تخلف فيـه خوجاتال بكل من نسـخة مارسدن ومن النص الفرنسى ومن بعض النسخ الايطالية •

(٢٠) أطلقنا هذا الاسم (لاياسوس) نقلا عن النص اللاتينى بدلا من غزة Giazza ، التى أوردتهـا نسخـة مارسدن ، وهـو تحـريف واضح • والمكان المقصود ميناء يقع على الجانب الشمالى من خليج الاسكندرونة ، أو هو اسوس ، التى تسمى فى خرائطنا وكتب الجغرافيا الحديثة عندنا باسماء مختلفة منهـا لاجـازو وأيازو واياسـو ولاءاس ولاياسا •

(٢١) ان Acre وهى عكا بالعربية انما هى مدينة بطليمايس القديمة ، وهى مدينة بحرية بفسلطين ، اسـتولى عليهـا الصليبيون من المسلمين فى ١١١٠ • ولكنها وقعت فى ١١٨٧ فى يد صلاح الدين • ولكنها انتزعت منه عنوة فى ١١٩١ على يد القوات المسيحيـة بقيادة فيليب أوجست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسـد ملك انجلترا • وفى ١٢٦٥ وأيضا فى ١٢٦٩ (أى قرب المدة التى وصل فيها الى هنـاك رحالتانا) هاجمها بيبرس سلطان مصر بغـير طـائل • وفى ١٢٩١

استردت نهائيا من قبضة المسيحيين ، كما دمر شطر كبير منها ، على يد سلطان مصرى آخر هو خليل من دولة المماليك البحرية . على أن عكا ارتفعت فى الأزمنة الحديثة فجأة من التأخر الذى وقعت فيه خمسة قرون ، واصبحت ذائعة الصيت للمرة الثانية بسبب المقاومة الظافرة الصامدة العزيمة التى أبداها حاكمها الجزار باشا فى ١٧٩٨ و ١٧٩٩، بمساعدة عمارة بحرية بريطانية صغيرة وبفضل الشجاعة التى أبداها قائدها الممتاز ، ضد الجهود الشرسة والدموية التى بذلها نابليون الذى غزا مصر .

(٢٢) توفى البابا كلمنت الرابع فى التاسع والعشرين من نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومن هنا تكون وفاته حديثة عندما وصل رحالتانا الى عكا فى أبريل ١٢٦٩ . وربما جاز لنا ان نلحظ أن تاريخ وصولهما يذكر مختلفا فى المخطوطات . فمنها ما يشير الى ١٢٦٠ ، بينما النص اللاتينى يذكر ١٢٧٠ كما تذكر نصوص غيره ١٢٧٢ على أن بعض المخطوطات تحدد الثلاثين من أبريل موعدا لوصولهما .

(٢٣) تثبت سجلات أخرى أن عكا كانت مقاما لمندوب للكرسى البابوى حوالى تلك المدة .

(٢٤) تذكر نسخة بال وكذا الترجمة اللاتينية المبكرة ، والخلاصات الايطالية ، أن عمر ماركو ، الذى قدر له أن يكون مؤرخ العائلة ، لم يزد آنذاك على خمسة عشر عاما فقط . فان كانت هذه القراءة صحيحة ، وما اخالها الا كذلك ، فلابد أن الوالد الذى وصل الى عكا فى ١٢٦٩ ، ويمكن أن يفترض أنه بلغ البندقية فى ١٢٧٠ ، غادر وطنه حوالى عام ١٢٥٥ . (انظر الهامشة ٣ ص ١٣ ويبدو أن سن التاسعة عشرة انما عين لكى يستقيم مع ميعاد السفر الذى يظن أنه عام ١٢٥٠ .

(٢٥) حدث فعلا فى هذه الحالة أن شغر الكرسى البابوى مدة تقارب ثلاث سنوات ، نتيجة لما يدور فى مجمع الكرادلة من مكايد ، ثم رئى فى النهاية أن يفوض اختيار البابا الى ستة من الكرادلة ، فوقع اختيارهم على تيبالدو من بياتشنترا فى اليوم الأول من سبتمبر ١٢٧١ . ورغبة فى الحيلولة مستقبلا دون ما يسببه مثل هذا التأخير من مضايقات وفضائح ، تقرر انشاء نظام : « اجتماع الكرادلة conclave » (على غرار مبدأ يماثل طريقة اختيار المحلفين عن طريق الجدول بانجلترا) .

(٢٦) ونجده قد تسمى فى قائمة الأحبار Ponitiffs ذوى السيادة باسم « ب. جريجوريوس العاشر بلاسنتينوس » وقد تم

انتخابه ، كما ذكرنا ، فى العاشر من سبتمبر ١٢٧١ ٠ وكان عند ذلك يقوم بأعمال القاصد الرسولى فى سوريا ٠ ولكن نظـرا لأن الخبر نمى الى علمه بسرعة ، فانه تمكن من الرحيل من هناك سريعا فى يوم ١٨ نوفمبر التالى ونزل فى برنديزى بالقرب من أوترانتو فى يناير ١٢٧٢ ٠

(٢٧) فى ذلك الحين كان ليون أو ليفون الثانى يحكم فى أرمينية الصغرى ، التى كانت عاصمتها هى سيس كما أن أياس أو أيازو هى ميناؤها الرئيسى ٠ بينما لعب أبوه الذى نسميه هايتون ويسميه كتاب العرب باسـم حاتم ، دورا بارزا فى المفاوضـات والمصافقات الأخيرة ، بعد أن صحب هولاكو من بلاط مانكوخان الى بلاد فارس واشترك فى حروبه مع المسلمين ٠ وكان حصـل فى ١٢٧٠ على موافقـة أباقا أبى هولاكو ، وهو عندئذ مولاه ذو السيادة (Liege Sovereign) على نقل تاج أرمينية الى ولده ليدن بسبب كبر سنه واصابته بالوهن والسقام ، وقد تم تسجيل أهم مآثره وأعماله على يد سميه وقريبه ومعاصره ، الذى اصبح من رجال الكنيسة بعد أن أبلى بلاء طويلا وجليلا فى الأعمال العسكرية ٠ وقد أصدر عمله هذا جرنيايوس فى بال وباريس عام ١٥٣٢ بعنوان : « Haithonis Armeni de Tartaris Liber » ، كما أصدره ثانية أندرياس مولر فى ١٦٧١ تحت عنوان :

«Haithoni Armeni Historia Orientalis : quoe eadem et de Tartars inscribitur ».

وانظر أيضا مختصر التاريخ لأبى الفرج ص٠ص٠ ٣٢٨ ـ ٣٥٧ ، (الشـهيرة بابن العبـرى) (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦) وانظـر : ده جينى Hist. Gén. الكتاب ١٥ ص ١٢٥ ـ ٢٤٩ ٠

(٢٨) وكما يمكن أن يفرض من أن رحالتينا بدءا رحلتهما قـرب الوقت الذى اقلع فيه البابا جريجورى من عكا ، فان الموعد ثابت بحكم بينة لا يكاد الشك يرقى اليها ، بانه نهاية ١٢٧١ او بداية ١٢٧٢ ٠

(٢٩) كان هذا السلطان هو بيبرس والملقب بالبندقدارى ـ سلطان مصر المملوكى (التى عناها المؤلف بكلمة (بابل) ، وقد فتح انذاك الشطر الأكبر من بلاد الشام ، وغزا أرمينية بالفعل (فى عام ١٢٦٦ أو ما يقارب ذلك) وأعمل النهب فى مدينتى سيس وأبيس ٠ وفى ١٢٧٠ بسط سلطانه على أنطاكيـة ، وذبح أو أسر جميـع السكان المسيحيين ، وهدم كنائسها ، وهى أفخم كنائس الشرق وأشهرها ٠ ولابد انه حدث قرب بداية عام ١٢٧٢ ، أن رحالتينا دخلا أرمينية ٠ ومع أنه لم يذكر بوجه خاص أن هجوما تم على يد السلطان فى تلك المدة ، فان من الواضح أنه لم يكف عن ارهاق بلاد الشام المجاورة بغاراته المتلاحقة ٠ وعلى

الرغم من هذا الفتح الجسيم الذى أوردنا ذكره من تونا ، فاننا نجـدد ثانية فى ١٢٧٦ يغزو ولاية الروم المتاخمة لأرمينية الصغرى مباشرة من ناحية الشمال • ولابد أن الهجمات المباغتة كانت دائمة لا تنقطع ، وهى وحدها ربما كان فيها الكفاية لمنع رجلى الدين من التقدم أساعا مع رفيقيهما الأكثر منها مغامرة ، واللذين لم يلتقيا مع ذلك بالعدو •

(٣٠) من المعلوم أن فرسان اسبتالية (مستشفى) القديس يوحنا بأورشليم ، وفرسان الهيكل (أو الداوية) ، هيئتان ديريتان عسكريتـان كبيرتان ، نشأتا عن التعصب الدينى للحروب الصليبية وأصبحتا أشد دعامات القضية المسيحية بآسيا انتظاما وفعالية • وليس بمستبعد أن مجموعة من فرسان الهيكل كانت تعسكر فى هذا الجزء من أرمينيـة التى ينبغى أن نسميها باشاليك مراش) رغبة فى الدفاع عنها ، وأنه كان طبيعيا أن يلتمس الكاهنان حماية قائدها ، الذى ربما كان عميدا لها ، وان كان الأرجح انه ليس سوى فارس من تلك الهيئة •

(٣١) لابد أن مقر حكم قبلاى العادى فى تلك المدة كان مدينة ين كنج (قرب الموقع الذى تقوم فيه الآن مدينة بكين) وذلك بينما كـان منشغلا فى وضع أساسات عاصمته الجديدة تاتو ، التى ستذكر ذكـرا خاصا فى سياق الكلام « Sequel » ، على أن العمليات الحربية ، أو تنظيمات الولايات المفتوحة حديثا ، ربما استدعت مع ذلك زيارة مدن أخرى • وربما وجده رحالونا فى الجزء الغربى من ممتلكاته • يقول دوهالد : « انه أقام بلاطه فى أول الأمر ، فى تاى يوين فو عاصمة ولاية شان سى ، ثم نقله بعد ذلك الى بكين » • انظر مج ١ ــ ص ٤٩٦ • (Descript. de la Chine)

(٣٢) عندما زار تشولا ما التبت (فى ١٧٧٩ ــ ٨٠) امبراطور الصين السابق فى بكين ، استغرقت رحلته (وان جـاءت مما نعـده اقليما مجاورا فى طريق حرسته منذ ذلك التاريخ الجنود الصينية) عشرة أشهر ، تعطل فى أربعة منها بأحد الأماكن بسبب الثلوج المتراكمة •

(٣٣) لعلها : المغولية (أو المنغالية) والايغورية والمانشـوية والصينية • وربما جاز لنا ان نظن أن الأخيرة منها أقلها أرجحية ، ولكن لا يجـوز أن نستنتج أية استنتاجات من هجـائه للأسمـاء الصـينية بالحروف الأوربية ، وبخاصة لو راعينا حالة النص المحرفة • ويقول النص اللاتينى ان ماركو « تعلم التتارية وأربع لغات أخرى » • وتقـول النسخة الفرنسية « انه تعلم لغتهم وأربع طرق مختلفة للكتابة » •

(٣٤) ينبغى لنا وقد عرض علينا هنا الاسم مجردا ، دون ذكـر أية ملابسات عدا شدة بعده من عاصمة الصين ، أن نفترض أن المقصـود

به هو احدى مدن خراسان · وهو أمر لا اعتراض عليه الا فى احتمال مروره فى تلك الولاية عندما زار بلاد التتار لأول مرة ، وأنه لم يذكره هنا كمكان عرفه من قبل · وكانت تلك الولاية (بالاضافة الى فارس) تحت حكم الابن الثانى لهولاكو ، الذى خلف أخاه أباقا واتخذ اسم أحمد خان ، عند اعتناقه الدين الاسلامى · وربما عد من قبل الانتهاك لأصول هجاء الكلمات فى الكتاب ، أن نظن أن المقصود بالاسم هو خورزميا ، الشـاه خوارزم Kharism عنـد الجغرافيين المحدثين ·

(٣٥) ورد فى نسخة راموسيو أن المدة هى « Ventisei anni » أى ست وعشرون سنة ، ويحاول برشاس تفسير الذى ينبغى فهـم هـذا العدد عليه ، ولكنى أفضل فى هذه الحالة ، اعتبار القراءة الواردة فى الترجمة اللاتينية التى بها XVII annos أى سبعة عشر عاما ، أكثر تمشيا مع الواقع · ومن المحقق أن العائلة لم تبارح عكا ، فى عودتها الى الصين ، قبل نهاية ١٢٧١ · ولما كانت هناك أسباب تدعـو الى الاعتقاد بأنهم لم يبلغوا بلاط الإمبراطور قبل ١٢٧٣ أو ١٢٧٤ ، ولا مكثوا هناك بعد ١٢٩١ ، يترتب على ذلك أن مدة خدمة ماركو لا يمكن أن تكون تجاوزت سبعة عشر عاما الا ببضعة اشهر قليلة · فالسنوات الست والعشرون تضم جميع المدة التى انقضت منذ الزيارة الأولى التى قـام بها أبوه وعمه فى ١٢٦٤ أو ١٢٦٥ ·

(٣٦) مع أننا لا نجد فى المراجع التاريخية التى وصلت الى أيدينا لتلك المدة ، أى ذكر لزوجة أرغون خان ، الا أن الاسم الذى كتب هنا وهو « بولجانا » « Bolgana » ، كما أنه ورد فى طبعة بال اللاتينية وكذا فى مخطوطة المتحف البريطانى « بالجانا » يرد ، مع وجود فارق طفيف فى التهجئة ، بين أسماء نساء تلك الأسرة · وكانت ابنة جاغتاى ، ابن جنكيز خان وعم هولاكو ، تدعى بولغان خاتون ، كما يتجلى ذلك من « روضة الصفاء » تأليف ميرخوند · على أن النصـين اللاتينى والفرنسى والنص الايطالى فى اصدارة بولى ، تسمى الملكة بولجارا ·

(٣٧) خلف أرغون خان ، ابن أباقا خان وحفيد هولاكو ايلخان ، عمه أحمد خان نيقودار على عرش فارس ، وخراسان وأقاليم اخرى مجاورة فى ١٢٨٤ · وكان أول عمل فعله ، كمـا ينبئنـا ده جنى De Guignes (LIV. XVII, p. 265) أن أرسل الى الامبراطور قبلاى بوصفه كبير العائلة والعاهل الذى يتلقى ولاءه ، متلمسا تقليده مقاليـد الحكم فى ممتلكاته · واذن لابد أن تكون وفاة ملكته ، المتحدث عنهـا هنا ، حدثت ــ استقاء من الظروف المذكورة فى سياق الكتاب فى قريب من عام ١٢٨٧ ، كما أنه هو نفسه مات ١٢٩١ ــ وتنص جميع ترجمات

العمل بغير استثناء على كتابة الاسم أرغون Argon ، وهى تهجئة تقترب كثيرا من التهجئة الفارسية •

(٣٨) كان الخان الأعظم ، الذى قيل بأن عائلة هذه الملكة تتيم فى بلاطه باقليمى كاتايا ، العم الأعلى (عم الوالد) لأرغون زوجها ، ويحتمل أن الملكة نفسها كانت من نفس الأسرة المالكة المغولية وأنها من نفس العترة التى ينتمى اليها جنكيز خان • فكان قلقها منصبا اذن على ألا يغض زوجها من قدر نفسه ومن ذكراها ، بعقد زواج مع أية انسانة من سلالة أقل نبلا منهم • فلو نظرنا الى الظروف اذن فى ضوئها الحقيقى ، سيتضح أن ما قد يظن لأول وهلة قصة رومانسية ، لملك الهند يرسل سفارة الى امبراطور الصين ، بقصد الحصول على زوجة ، انما هو ببساطة صفقة بسيطة وطبيعية لأحد صغار أفراد أسرة عظيمة يتقدم الى رأس البيت يلتمس منه الاذن له بتقوية أواصره ، بالزواج بواحدة من بين بنات أعمامه من الدرجة الثانية فيما يرجح ، وذلك أنه يجوز لنا أن نزعم أنه لو لم تكن هذه الأنثى واحدة من بنات عترة قبلاى المباشرة ، (كأن تكون حفيدة له مثلا ، نظرا لتقدمه فى السن آنذاك) لما كانت هناك حاجة تدعو الى القيام بطلب بالغ الرسمية كهذا • أما فيما يتعلق بالمسافة الفاصلة بين فارس والصين ، التى قد تتخذ اعتراضا على احتمالية هذه الواقعة ، فان من المعلوم جيدا أنه كانت هناك بين جميع فروع هذه الأسرة المغولية ، مهما ترامت مسافة البعد بين الواحد منها والآخر ، اتصالات مستمرة ، ظلت قائمة حتى تلك المدة ، كما أن أرغون نفسه تقدم الى نفس الملك وتلقى منه قرار تنصيبه • غير أنه ظهر فى هذه الحالة انه لم يعد فى الامكان التغلب على الصعوبات المحيطة برحلة العودة بطريق البر •

(٣٩) كان موقع خاتاى ، أو كاتايا ، (أو كاثاى كما كان يسميها عادة كتاب العصور الوسطى) مثار مناقشات كثيرة بين العلماء • ولكن لا اخال من يرجعون الى من كتبوا من الشرقيين فى تقويم البلدان (الجغرافيا) والتاريخ ، لا من اليونانيين ، يشكون فى أنهم يطلقون الاسم على الولايت الشمالية لما نسميه الآن باسم الصين • وهى الولايات التى فتحها جنكيز خان وابنه اقتاى Oktai منتزعين اياها ، لا من حكومة صينية ، بل من جنس من التتار الشرقيين ، يسمى باسم نيوتشيه وكن ، وهو جنس اخضع تلك الولايات قبل ذلك بمائة وعشرين سنة • وليس من السهل القطع فى هل يقصرون الاسم بدقة على تلك الولايات وحدها ، أو يدخلون فى كاثاى بعض الأجزاء المجاورة من بلاد التتار ، خارج سور الصين الأعظم ، وذلك نظرا لأن بياناتهم عن

تلك المناطق أبعد ما تكون عن الدقة · على أنى أرجح أن الوضع الأول هو الواقع ·

(٤٠) تختلف هذه الأسماء اختلافا بليغا فى الترجمات والاصدارات المختلفة ، حيث تظهر بأشكال بولاتاى وجولاتاى وايوسكا وأيومتــا وبيوسكا ، وأجوزا وكويلا · ولعلهـــا شوهت جميعـا تشويها كثيرا أثناء نقلها من مخطـوطات غيـر واضـحة الكتابة · والنص اللاتينى يسميهم أولاتا واليوسكا وكور · على أنه ليس لهم جميعا أية أهمية تاريخية ·

(٤١) كانت احدى زوجات هولاكو ، وهى أم أحمد خان نيقودار (عم أرغون) ، تسمى كرتاى خاتون ، وهو اسم كوجاتين (وتكتب أيضا جوجاتيم وكوجانين) كانت تحريفا له · وكثيرا ما تلحق لفظـة خاتون ومعناها « السيدة » ، بأسماء الاعلام أو تكون جزءا منها وتطلق على سيدات الطبقة العليا الفارسيات والتتريات ·

(٤٢) لابد أن هذه الحروب شبت حوالى عــــام ١٢٨٩ ، وعلى الأرجح فى بلاد ما وراء النهر ، (Transoxiana) بين أحفاد جاجاتاى أو زاكاتاى (أو جاغتاى أو جغتاى الموسوعة الميسرة) وهم قوم تاريخهم غامض بوجه خاص · ولكن هناك أسبابا كثيرة تدعــو الى الاعتقــاد بأنهم هم أو أى أمير من امراء المغــول ، قلما عاشوا فى هدوء · وأثيــرت الفتن كذلك ، قرب بلاد الصين ، على يد أخ أصغر لقبلاى ، حاول أن ينازعه عرش الامبراطورية ·

(٤٣) ان ما يسمى هنا بالهند الشرقية ، ينبغى الا يفهم على أنه قارة الهند ، بل هو بعض الجزر الواقعة فى الأرخبيل الشرقى ، وربما كانت هى جزر الفليبين ، أو لعلها ســاحل تسيامبا او تشــامبا ، التى يتحدث مؤلفنا ، فى جزء آخر من العمل ، بأنه زارها · والرحلة المذكورة هنا جاءت عقيب الحملة العظيمة والكارثة أيضا التى كانت عبقريــة قبلاى الناشطة سببا فى دفعه الى خوضها على مملكة اليابان ، وينبغى ملاحظة أن النصوص اللاتينية والفرنسية وكذلك الايطالية التى نشرها بونى ، لم تذكر شيئا عن السفن وانما تجترىء بمجرد ذكر أنه كــان عائدا من سفارة بالهند ·

(٤٤) ربما بدت الاشارة الى ذلك الدافـــع الاقتصادى شيئـــا شاذا ، لولا أن التعلق بالمال كان من النقاط الضعيفة فى أخلاق قبلاى ، كما أن الطرق التى كان يستخدمها فى جمعه ، أو أغماضه العين عن عماله حين يستخدمونها ، كانت موضعا للكثير من اللوم ·

(٤٥) ورد فى الترجمة اللاتينية أنه عين سفراء من قبله لدن هؤلاء العواهل ليصحبوا البعثة ٠ ولكن نظرا لأن هؤلاء الأشخاص لم ترد عنهم أية اشارة فيما بعد ، وان وجدت مناسبة واضحة (هى قوائم الوفيات) ، فان النسخة الايطالية تعد أحق بالتفصيل ٠

(٤٦) عما يحدث فى الأزمنة الحديثة ، فى الجزء الشمالى من بلاد الصين ، وبخاصة فى نهر بى هو ، من حيث تزويد السفن المعدة للاستخدام فى الرحلات بالبلاد الأجنبية البعيدة ، « بأربع » ساريات ، نعتمد على « بارو » حيث يقول : « من المحال علينا ألا نعد الملحوظات التى أوردها هذا الرحالة القديم (ماركو بولو) عجيبة ومشوقة وقيمة وبقدر ما تتعلق بالامبراطورية الصينية ، فانها تحمل فى طياتها الدليل على صدقها جملة ٠ فلقد أقلع من الصين بأسطول يتكون من أربع عشرة سفينة ، تحمل كل منها أربع ساريات أو (صوار) وقد قسمت عنابرها الى مقاصير منفصلة ٠٠ وقد شاهدنا مئات عديدة منها أكبر حجما وأوصافا . وهى تستخدم فى الرحلات الى البلاد الأجنبية ، وكلها تحمل أربع « ساريات » ٠ انظر Travels in China ص ٤٥ ٠ وورد فى الترجمة اللاتينية : « ولكل منها أربع صوار كما أن كثيرا منها كان يقلع باثنى عشر شراعا » ٠ ومن المعلوم الآن أن المواعين (السفن) الصينية لا تحمل الآن أى نوع من الشراع الثانى الأعلى ٠

(٤٧) ربما صح لنا أن نستنتج أن اقلاع هذه البعثة المسترعية للاعجاب من بى هو أى نهر بكين ، بناء على الظروف المذكورة فى أجزاء الكتاب المختلفة ، حدث قرب بداية عام ١٢٩١ ، وكان ذلك قبل وفاة الامبراطور قبلاى بثلاث سنوات ، وقبل وصول آل بولو الى البندقية بأربعة أعوام فى ١٢٩٥ ٠

(٤٨) ترد بعض تفاصيل هذا الجزء من الرحلة فى الكتاب الثالث الفصل العاشر ، حيث تسمى الجزيرة المسماة هنا جاوة باسم جاوة الصغرى ، ومن الجلى أن المقصود بها هو سومطرة ٠ وسيتضح أنهم كانوا ينتظرون حدوث التغير فى اتجاه الرياح الموسمية فى ميناء يقع فى شمال تلك الجزيرة ، قرب المدخل الغربى لمضيق ملقه ٠

(٤٩) الموضع الذى بلغته البعثة فى خاتمة المطاف ، لم يرد ذكره بصورة مباشرة فى أى جزء من العمل ، بيد أن هناك أسسا قوية للاستدلال أنها كانت ميناء هرمز (أرمز) الشهيرة ٠ أما عن الأمير المدعو أرغون خان فانظر هـ ٣٧ ص ؟ ٠

(٥٠) لا تزيد نسبة الوفيات هذه عما يمكن توقعه فى سفن مكتظة بأناس لم يعتادوا رحلات على مثل ذلك الطول وقضوا أشهرا كثيرة

راسين فى مضيق ملقه ، ومع أن نسبة الوفيات كان يتوقع أن تصل الى ثلث عددهم بأجمعه ، فانها لم تتجاوز ما لقيه لورد أنسون وملاحـون آخرون ممن عاشوا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

(٥١) توفى أرغون خان ، حسبما تروى الأسناد التى تتبعها ده جينى ، فى الشهر الثالث من السنة التسعين بعد الستمئة للهجرة ، التى تقابل شهر مارس من عام ١٢٩١ لميلاد السيد المسيح ٠

(٥٢) ان الشخص المدعو هنا كيـا أكاتد أو كيــاكاتو Chiacato فى التهجئة الايطالية ، والذى يوصف بأنه حاكم البلاد باسم ابن الملك المتوفى ، كان هو قاى خاتو ، الابن الثانى لأباقاخان ، فهو من ثم أخو أرغون ، الذى قيل انه استولى على العرش عند وفاته (وان جاز أنه لم يكن يؤدى عمله الا وصيا على صاحب العرش أو حاميا له) مثيراً بذلك حقد ابن أخيه الذى كان قاصراً ٠

(٥٣) الاسم الذى يكتب هنا قاسان أو كاسان ، ويدعوه ده جينى كازان ، هو تشازان خان ، الابن الأكبر لأرغون ٠ ولكنه لم يعتل عرش فارس الا فى نهاية عام ١٢٩٥ ، بعد وفاة والده بمـــا يدانى الخمس سنوات ٠ وكان أرسله للاقامة بخراسان ، تحت رعاية أتابك (محافظ) يسمى نوروز ، وهو الذى أقنعه باعتناق الدين الاســلامى فيمــا بعد ، وتسمى باسم محمود ٠ ولا يبدو أنه كان يلقى وهو فى تلك الولايــة تحرشا من عمه قاى خاتو ، وتدل هذه التوصية منه ، بوجوب نقــل الأميرة الى الأول بوصفه ممثلا لأبيه ، على أن العلاقة بينهما لم تكن علاقة عداء فعلى ٠ وفوق هذا يدل الظرف أنه عندما انتقلت مقاليد الحكم عند قتل قاى خاتو الى بايدو (وهو حفيد لهولاكو ينتسب لفرع آخر) ، وزحف غزان بجيش الى الرى (Rages) لتأكيد مدعياته فى الوراثة ، كان أول طلب تقدم به هو تسليم قتلة عمه اليه ٠ وبعد كفاح مشكوك فى عواقبه دام ثمانية أشهر ، أدى خروج أكبر ضباط الغاصب شأنا عن طاعته الى تدميره والقضاء عليه ، واعتلى عرش فارس حوالى السنتين اللتين أعقبتا وصول الأميرة ، التى لم يرد عنهـا بعد ذلك أى خبر ٠

(٥٤) سيرد ذكر تفصيلى أكثر عن هذه الناحية ، وعن الشجرة التى يقال انها استمدت منها اسمها فى الفصل العشرين من الكتاب ٠

(٥٥) هـذا هو الممر المهم المعـروف لدى القدماء باسم المضــيق القزوينى Porta Caspice (تمييزاً له عن ممر رودبار) ، والذى يسميه الجغرافيون الشرقيون مضيق خوار أو خور ، وهى مشتقة من

كلمة فارسية معناها وراد بين جبلين (أى خور بالعربية) ، أو عن مدينة صغيرة · تحمل نفس الاسم قرب المدخل الشرقى - ويقول رنل : « ان هذا الشق العجيب يسمى الآن مضيق أو ممر خوار (وهى تشورا عند القدماء) ، أخذاً من مدينة أو ناحية فى المنطقة المجاورة · وهو يقع عند نهاية الصحراء الملحة الكبرى ، وهى الواقعة الى الشمال تماما من أصفهان ، وعلى بعد حوالى خمسين ميلا شرقا من خرائب الرى دربند وكذا ممر (Rages) ، وقد مر فيه الاسكندر وهو فى طريقه من الرى الى آريا وباكتريا (Bactria) ، وقد وصفه بوجه خاص كل من دللا فالى وهربرت بين المحدثين ، وبلينى بين القدماء · وطوله ثمانية أميال وعرضه على الجملة أربعون ياردة » · انظر :
Geographical System of Herodotus (examined and explianed)
ص ١٧٤ ، هامش ·

(٥٦) ربما دفعنا الجزء السابق من القصة الى الظن بأن مقام قاى خاتو كان يقع فى احدى المقاطعات الجنوبية ببلاد فارس · غير أننا نجد هنا على العكس ، أنه فى تطابق تام مع تواريخ ذلك الزمان - كان يقع على الطريق بين المكان الذى كان فيه غزان معسكراً على الضفة الشرقية لمر قزوين وبين قطر أرمينية ، الذى كان رحالونا يشقون طريقهم اليه · ووفقا لذلك ينبئنا د· هربيلوه وده جنى وغيرهما ، أن قصبة أمراء تلك الأسرة المالكة كانت مدينة تبريز (Tauris) بأذربيجان ، ولكنهم كانوا كثيرا ما يسكنون (وخاصة فى الصيف) بهمذان فى الجبال ، ليكونوا أقرب الى الحدود السورية ·

(٥٧) يمكن أن نستنتج بناء على ما ورد فى الهامشة السابقة ، أن هذا المكان كان تبريز ·

(٥٨) لما كان وزن المارك ثماني أوقيات ، فلابد أن اللوحات كانت عالية النفقة بغير ضرورة كما كانت ثقيلة الوزن الى حد ضجر · على أن الترجمات الأخرى للكتاب لا تحدد لها وزنا ولا حجما ، كما أن بعضها تذكر أنها ليست سوى لوحتين اضافيتين ·

(٥٩) ويدل هذا على أن سيادة رأس العائلة كانت لا تزال معترفا بها من تلك الفروع ، وربما كانت لدى قاى خاتو أسباب خاصة دعته الى المبادرة الى تنفيذه توددا ، اذ يقال ان غزان هو أول من نبذ هذا النوع الطفيف من التبعية الاقطاعية ، وربما لم يرسل سفيرا من قبله الى الصين يطلب اقرار تنصيبه فى عرشه ·

(٦٠) نلمس فى وصف السلوك الوارد هنا برهانا على الشـك العام الذى كان يعتمل فى أنفس الناس حول حقه فى العرش ، وان كان رؤساء المغول يتظاهرون بأنهم يعدونه شيئا متوقفا على انتخابهم . ويجمع المؤرخـون على التشهير بأخلاقه واتهـامه بالفجـوز . ولمـا كان هؤلاء الأمراء (الرؤساء) يستشعرون الغضب لان الذى يحكمهم أمير على مثل هذا الفساد البالغ ، « يكرهه رعاياه بقـدر ما يحتقـره الاجانب » ، فانهم قرروا عزله وعرضوا التاج ، لا على غزان ، الذى ربما ظنوه صغير السن جدا أو بالغ الضعف فى قوة البـدن بحيث لا يتواءم وهدفهم ، بل على بايدو ، وهو حفيد لهولاكو وابن عم للملك الراحل ، وكان آنئذ حاكما على بغداد . ودارت رحى معركة ، وجد فيها قاى خاتو ، وهو شخص شجاع ثبت الفؤاد ، أن قائدا رئيسيا من رجـاله خـانه ، وكان يقود أحد أجنحة جيشه ، فانهزم ثم خنق فيمـا بعد . عن التفاصيل الموسعة لهذه العمليات ، استنادا الى خوند أمير ، انظر La Bibliothèque Orientale تحت مادة « Baidu » ، انظـر أيضا مادة جانجياتو ، « والذى نجد أنه يسمى أيضا كايكتو وكايكاتو » . « يلاحظ خوندمير أن الاسم الحقيقى لهذا الأمير هو آيكاتو أو جايكاتو » . واذن ، فينبغى لنا أن نتعلم منذ هذه اللحظة التردد قبل أن نعيب عـلى مؤلفنا هجاءه ، حيث تختلف طريقة كتابته لهذا الاسم الغريب اختلافا هينا الى أدنى حد ، ان كانت تختلف اطلاقا ، عن بعض هذه المراجع الثقة ومن الظروف الجديرة بالملاحظة حقا ، أن أحـد الدوافع الرئيسـية المنسوب اليها تمرد أمراء المغول على هذا الأمير ، محاولته انشـاء نظام عمـلة ورقيـة فى ممتلكاته يمـاثل المتبـع ببـلاد الصـين ـ انظـر De Guignes, Hist de Huns. الكتاب ١٧ ص ٢٦٧ .

(٦١) نصب قبلاى ، الذى ينطق الصينيون اسمـه هوبيلى أو هوبيليه ، بينما يخلعون عليه فى « حولياتهم » التاريخية اسم « تشى تسو » ، خانا أعظم فى عام ١٢٦٠ ، وأصبح امبراطورا للصـين فى ١٢٨٠ ، عند تدمير أسرة صونج ، وهى أسرة كانت تحكم فى مانجى أو الولايات الواقعة الى الجنوب من نهر كيانج العظيم ، وتـوفى فى أوائل ١٢٩٤ وعمره ثمانون عاما . وليس عجيبا أن نبأ حدث بالغ الأهمية كهذا لدى جميع قبائل المغول أو التتار ، يجد سبيله الى البلاط الفارسى ومن ثم يطرق مسامع رحالينا ، القائمين بتلك البعثة المهمـة .

(٦٢) كان أشد الطرق امامهم قصرا الى تبريز مباشرة يمـر من خلال بدليس ببلاد كردستان ، الى حلب ، ولكن تصادف فى هذا الوقت أن سلاطين مصر ، الذين كان ملوك فارس مشتبكين معهم بلا انقطـاع

فى حروب ، كانوا يسيطرون على جميع موانى سوريا ، وما كانوا ليعبروا جوازى سفـــرهم أدنى احتــرام · على طريقهــم البــرى المـــار بجورجيا (الكرج) الى ترابيزون على ساحل البحر الأسود كان أقصر وأسلم · كما أنهم عندما يصلون الى ذلك المكان يكونون تحت حماية الأمير المسيحى ، الذى حكمت أسرته مملكة ترابيزون المستقلة الصغيرة من ١٢٠٤ الى ١٤٦٢ ·

● هوامش الفصل الثانى

(١) يتطابق هذا التمييز بين الأرمينيتين الى الكبرى والصغرى مع ما نجده عند بطليموس وجغرافيي العصور الوسطى ، وان حدثت تقسيمات أخرى لتلك المنطقة آسيا منذ أن أخضعت للامبراطورية العثمانية · ويحدد بوشنج ارمينية الصغرى بأنها تضم ذلك الجزء من كابادوكيا وكيليكيا ، الذى يمتد على طول الجانب الغربى من أرمينية الكبرى ، وايضا على الجانب الغربى مننهر الفرات أما عن أنها كانت تمتد جنوبى جبال طوروس فى أيام الملك هايتون وكانت تضم كيليكيا (compestris) وهو أمر لم يكن قائما فى الأزمان القديمة ، فان لدينا عن ذلك سندا لا يدحض هو ذلك المؤرخ ·

(٢)تبعا لما يظهر من الفقرة المقتبسة فى الهامشة السابقة ، وكذا من مصادر أخرى من أن سيس كانت هى عاصمة أرمينية الصغرى ، اثناء حكم آل ليون وآل هايتون ، نميل الى الظن بأن « سباستوز » الوارد ذكرها هنا ، وهى الاسم القديم لمدينة سيس تلك ، أو لمدينة قامت فى نفس موقعها · أجل ان من الواضح من جغرافية بطلميوس ، أنه كانت هناك أماكن كثيرة بآسيا الصغرى لها أسماء سباستيا ، وسباسته وسباستوبوليس (بالاضافة الى واحدة فى سوريا) ، كما أنه فى تعداده لمدن كيليكيا (قيلقيا) ، نعثر على مدينة اسمها سباسته ، أضيف اليها نعت « أوجوستا » فى الترجمة اللاتينية التى صدرت بالبندقية فى ١٥٦٢ · وربما يكون ليون الأول — (الذى يسمى العرب البلاد نسبة الى اسمه ، بلاد ليون أو بلاد سيس) قد أقام المدينة الحديثة على أساسات هذه القديمة ، وربما كان الاسم اليونانى لا يزال غالبا · على أنهم ينبئوننا مع ذلك أن المدينة التى قامت قبل سيس عاصمة لأرمينية الصغرى ، كان اسمها سيس أوماسيس ، وهى موبسيوستيا القديمة · وينبغى لنا أن نعترف أنه اذا لم يكن المصدر والسند متناقضا والظن ، فان جرس (بكسر الجيم وسكون الراء) هذه الأسماء ربما ساقنا الى الظن ان الاسم الحديث ان هو الا اختصار لسيس وأن سباستوز بنيل من موبسيوستة · وسيرى القارىء فى جزء تال من الفصل أن مدينة سفاستا أو سيفاسته وهى سيواس او سيفاس العصرية ، يجرى الحديث

عنها فى ظرف يظهر أنها تميزها تماما عن العاصمة الأرمينية · وذلك نظرا لأن المغول انتزعوها حديثا من أمراء السلاجقة ·

(٣) تقع لاجاسو او أياس بمنطقة سبخة منخفضة تكونت من غرين نهرى سيحان وجيحان (بكيليكيا) (المنجد) وهى (كما أوضح لى الكولونيل رنل) تقع عند المصب الحالى للنهر الأخير · وقد انتقلت تجارتها الى الاسكندرونة فى الجهة المقابلة أى الجانب السورى للخليج ·

(٤) ان لفظة بلاد المشرق أو Levant هى ترجمة لكلمة الاناضول نقلا عن اللفظة اليونانية (Aratol'n) المشتقة من Ortus, Oviens التى تدل على القطر الواقع الى « نحو الشرق » من بلاد اليونان · ومن ثم فانها بوصفها اسما لاقليم ينبغى أن تكون معادلة لناتوليا ، بمعناها الأوسع المقبول لدى الناس · ومن البين أن مؤلفنا يستخدمها للدلالة على آسيا الصغرى · وتعد أزمير فى الوقت الحاضر الميناء الرئيسى ببلاد المشرق (اللفيانت) ، ويبدو أن المصطلح يقصر استخدامه الآن على شاطىء البحر ، وعلى الاستخدام فى الشئون التجارية وحدها ·

(٥) عن أرض الميعاد أو فلسطين ، التى لا تمتد شمالا أبعد من مدينة صور ، ينبغى أن يفهم أن المقصود منها هنا هو سوريا أو على الأقل القسم المسمى Coelo-Syria التى تتاخم كيليكيا أو القسم الجنوبى من أرمينية الصغرى · ولما كانت لفظة سوريا (أو الشام) ، وهى التسمية الأعم تضم فلسطين ، كما أن الاسم الثانى كان ابان الحروب الصليبية مألوفا أكثر لدى الأوربيين من الاسم الأول ، فليس عجيبا أن يخلط بينهما فى بعض الأحيان · والعرب (Saracens) المذكورون هنا هم رعايا سلاطين مصر المماليك ، الذين استردوا من قبضة الدول المسيحية بالشام ، ما فقده أمراء أسرة صلاح الدين ، الأيوبيون · على أن الاسم أطلق بأجزاء أخرى من الكتاب للدلالة بغير تمييز على المسلمين عامة ·

(٦) كان تركمان كارامانيا جيلا من التتار ، واستقروا بآسيا الصغرى ، تحت حكم الأمراء السلاجقة ، الذين سنكتب عنهم فى الهامشة التالية بيانا · وكانت قيصرية أو قيساريا وسيفاستا أو سيباسته ، وهى سباستوبوليس كابادوكيا البطلميوسية ، وسيواس أو سيفاس فى العصر الحاضر ، ـ مدنا تتبع نفس الأسرة المالكة ، فقدها المغول فى عام ١٢٤٢ ·

● هوامش الفصل الثالث

(١) ان المقصود بتركمانيا هو على الجملة ممتلكات الأسرة السلجوقية العظيمة فى آسيا الصغرى ، التى تمتد من كيليكيا وبامفيليا، فى الجنوب ، الى شواطىء بحر اليوكسين (الأسود) ، ومن بيسيديا وميسيا ، فى الغرب ، الى حدود أرمينية الصغرى ، بما فى ذلك الشطر الأكبر من مزيجيا وكابادوكيا ، مع منطقة بنطس (بنطش) وبخاصة الولايات الحديثة المسماة كارامانيا وزومية ، أو بلاد الروم ٠ فأما عاصمة الأولى منهما فكانت ايكونيوم التى يحرفها الكتاب الشرقيون الى قونية ، كما يحرفها كتاب الصليبيين الى كوينى (Kogni) أما الثانية فعاصمتها سباسته أو سباستوبوليس التى تنطق محرفة سيواس أى سيفاس ٠ والأمير الذى استقت منه الأسرة السلجوقية اسمها كان بالمولد تركمانيا ، من تركستان ، على الجانب الشمالى الشرقى من نهر سيحون أو Jaxartes ولكنه فى خدمة أمير للخزر (Khozar) على نهر الفولجا ، التى فر منها وأخذ يلتمس حظه فيما وراء النهر ، كما فعل بعض أفراد عائلته فى خراسان ٠ حتى اذا حازوا شهرة عظيمة ، تمكنوا فى النهاية ، بفضل انضمام العديد من القبائل التركمانية الى رايتهم ، من تأسيس دولة ذات سيادة ، تعد من ناحية الاتساع، امبراطورية ، مقر حكمها الرئيسى فارس ٠ وتمكن فرع آخر منهم ، حوالى عام ١٠٨٠ ، من اغتصاب ولايات آسيا الصغرى البديعة من قبضة الأباطرة اليونانيين وكونوا المملكة التى نتحدث عنها الآن ٠ وكثيراً ما شق الأمراء المسيحيون طريقهم من خلال ممتلكاتها عنوة ومراراً متكررة أثناء تقدمهم الى الأراضى المقدسة ، ويقدر المؤرخون عدد من هلكوا فى هذه الحروب التمهيدية بما لا يقل عن ستمائة ألف رجل ٠ وأخيراً خضعت قوة السلاجقة للنفوذ الجارف لأسرة جنكيزخان، حتى لقد أصبحوا فى عهد مؤلفنا مجردين من كل أهمية ٠ ولكن قامت من بين أنقاضهم امبراطورية العثمانيين ، التى كان مؤسسها تابعاً لأحد أواخر سلاطين ايكونيوم (قونية) ٠

(٢) لا يزال التتار التركمان يحافظون الى يومنا هذا ، على عاداتهم الرعوية القديمة ، حتى فى آسيا الصغرى نفسها ، كما أن التمايز بين

قبائلهم لا يزال قائما ايضا · وتلقى سلالة الحصان « التركى » التقدير بكل أرجاء الشرق لما تتصف به من ذكاء وحيوية وقوة احتمال ·

(٣) يقول قاموس التراجـــم (The Biographical Dictionary) لقى بليز ، أسقف سباستا ، احدى مدن كابادوكيا فى القرنين الثانى والثالث ، مصرعه فى عهد الامبراطور (دقلديانوس ، بقطـع الــراس ، بعد أن ضرب بالسياط ومزق لحمه بأمشاط الحديد ·· ومن العسيـــر تحديد كيف أصبح اختراع (تمشيط الصوف) ينسب اليه · ولكن لعله شىء ليس له تعليل أحسن من ظرف تعذيبه بالآلات المستخـــدمة فى تمشيط الصوف) ·

(٤) ان أسرة هولاكو والقبائل التى تبعت رايته من الشمال ، هم الذين يلقبهم مؤلفنا على الدوام باسم التتار الشرقيين ، تمييزاً لهم عن سلالة باتو ، الذين كانوا يقيمون قرب الفولجا ، على الجانب الشمالى الغربى من بحر قزوين ثم بسطوا فتوحاتهم نحو أوربا · على حين دخل الأول فارس من الناحية الشرقية عن طريق ما وراء النهر وخراسان ·

◉ هوامش الفصل الرابع

(١) ان أرزنجان أو كما يكتبها العرب الذين ليس لديهم الجيم الفارسية أرزنجان ، مدينة تقع قرب حدود رومية ، ولكنها تقع داخل حدود أرمينية الكبرى مباشرة · يقول ده هربيلوه : « ان هذه المدينة تتبع على الأصح بلاد أرمينية ، واستولى عليها المغول أو التتار فى عام ٦٤٠ للهجرة (١٢٤٢ الميلادية) بعد هزيمة قايخسرو بن علاء الدين السجوقى ، كما استولوا على مدينتى سيباسته وقيصرية » · ويقول عنها أحد الجغرافيين العرب :

Oppidum celeberrimum, elegand, amoenum, copiosum bonis rebus, incolisque opertinens ad

ويتحدث جوزافات بربارو ، أحد البنادقة ، وقد سافر الى فارس فى القرن الخامس عشر ، عن مدينة اسمها أرسنجان ، قائلا انها مكان كان له من الماضى شأن عظيم ، ولكن معظمها كان آنئذ متهدما ·

(٢) ان اسم نوع من القماش الذى ترجمته هنا باسم «بمبازين » ورد فى نسخة راموسيو الايطالية bochassinidi bambagio كما ورد فى الترجمات اللاتينية buchiraonus buchyramisand bucaramus ولا توضح معاجمنا مادته ولا تكوينه · ويعرف معجم Cotgrave المطبوع في ١٦١١ البوكاسين buccasin بأنه نوع من البركيرام الرقيق ، كان يشبه التافتاه (الديباج) ويستخدم كثيرا فى تبطين الثياب، ويشبه كذلك نسيج كاليمانكو · ولكن هذا ، كما هو واضح ، لا يمكن أن ينطبق على صناعة البومباجيو أو القطن · كما أن معجمى Vocabolaria della cruscà, Glossary يتحدثان عن « البوشيرام » و « البوشيرام بامباجينو » وكلاهما يشير الى انه تنقل عن مؤلفنا استخدامه لهذه الكلمة · وجميع الأمثلة تحمل فكرة قماش قطنى رفيع وأبيض وناعم ، وهو عكس ما يسمى الآن بوكرام · وتتحدث النسخة اللاتينية المبكرة عن البوكرام والبمباتشى بأنهما شيئان مختلفان ·

(٣) توجد الحمامات الساخنة الطبيعية بأجزاء كثيرة من آسيا الصغرى ، وبخاصة قرب أنكيره ، وهى أنقره فى العصر الحديث ، ولا يزال الناس يرتادونها كثيرا · ويشار الى موقعها بكلمة ثرماى Thermae فى خريطة رنل الموضحة « لتراجع العشرة الآف » ·

ويتحدث عنها كذلك أهالى تفليس ببلاد الكرج (جورجيا) على أنى لم أستطع أن أجد أية اشارة الى وجودها بمدينة أرزنجان فى أعمال الجغرافيين الشرقيين ·

(٤) ان أرجيرون أو أرجوزون ، هى تحريف للفظة أرضروم · أو أرزوم ، أو أرض الروم ، وهو اسم مميز أطلق على مدينة تسمى ارزن ، يصفها آخر مكان منيع فى ذلك الاتجاه ، يتبع امبراطورية الروم · يقول أبو الفداء فى كتابه : « المختصر فى تاريخ البشر » :

« Arzerrûm est extremus finis regionum Rumacorum ab oriente. In ejus orientali et septentrionali latere est fons Euphratis ».

(٥) ان دارزيز التى وردت فى الطبعة اللاتينية الأقدم أرزيو ، وفى الملخصات الايطالية أرتشيرى وأرزيرى ، هى المدينة التى تسمى الآن باسم أرجيس ، والتى تقع على حافة بحيرة فان ، وكانت تسمى قديما أرسسا بالموس · يقول ماكدونالد كنيار : « أرجيش مدينة تحوى ستة آلاف نسمة ، وتقع على الجانب الشمالى الغربى للبحيرة ، على مسيرة ثلاثة أيام من فان · وفى البحيرة أربع جزر ، يوجد على واحدة منها دير أرمنى ، وثلاثمائة قسيس » انظر

Memoir of the Persian Emp.

ص ٣٢٨ و ٣٢٩ · ولعلنا نلاحظ أن هذه الأماكن كانت تقع فى طريق عودة مؤلفنا من توريس (تبريز) الى ترابيزون ·

(٦) تقع بابيرث (وهى بايبيرث فى خرائط دانفيل ورنل) بين الجبال ، فى اتجاه شمالى من أرضروم ، ولما كانت كلمة بيرت Purt معناها فى الأرمينية قلعة ، ولما كان الجغرافيون العرب مضطرين لعدم وجود حرف الـ أ الفارسية فى لغتهم أن يستبدلوا به حرف الباء العربى فان الراجح ان النطق والهجاء الأول بالباء الفارسية هو الأصح · ويلحظ جوزافات باربارو هذه القلعة على نحو خاص ويقول عنها :

Partendo d'essa (Trabisonda)

Pen ander à Thauris ... il primo luogo notabile che si trova, è uno castello in piano in una valle d'ognitorno circondata monti.

انظر : Viaggio in Persia ص ٤٨ طبعة ١٥٤٥ ·

(٧) مع أن هذا المنجم بالذات ربما يكون استنفد ، فان من المعروف أن بهذا الجزء من أرمينية مناجم للفضة ·

(٨) ان جبل أرمينية (وهو المسمى أرارات فى الكتاب المقدس) ، والذى استوت عليه سفينة نوح فيما يعتقد مسيحيو تلك البلاد ، موجود غير بعيد من مدينة اريفان أو اروان · ولكن المسلمين يرون أن استواء

الفلك تم في موقــع آخــر . يقــول ده هربيــلوه : « الرأى الشــائع بين الشرقيين هــو أن فلك نوح اســتوت على جبــــل الجــــودى (Gioudi) وهو أحد قمم جبل طوروس أو جورديوس ببلاد أرمينية ، ويؤيد هــذه الرواية بتلك البلاد كثير من كتب التاريخ التى تقترب كثيرا من الأسطورة . يقول ابن حوقــل ان الجودى جبــل قرب نصيبين . ويقال ان فلك نوح (عليه السلام) ، استوت على قمة هذا الجبل . ترجمة أوستلى ص ٦٠ . ويلاحظ الماجور رنل أن الجودى جزء من جبال الكردوش ، التى تقع قبالة جزيرة ابن عمر ، وأن الدراويش يحتفظون بنار مشتعلــة هناك ، تكريما لنوح وفلكه .

(٩) ويلحظ موسى الخوارزمى فى كتابه « صورة الأرض » هذه الخصوبة للأرض المجاورة للجبال فيقول :

Habet antem Araratia montes atque omnem foecunditatem ».

انظر : Geographia ص ٣٦١ .

(١٠) ان ينابيع البترول أو الزيت الأرضى (أو الصخــرى) ، توجد بأصقاع كثيرة من العالم . والنبع أو العين التى يدور حولهــا الحديث هنا هى نبع باكو فى شرفان على ساحل بحر قزوين . يقول جون كارترايت ، فيما يسمى (Freacher's Travels) برحلات الواعظ : يقع بالقرب من هذا المكان ينبوع عجيب ومدهش جدا تحت الأرض ، تنبع منه وتخرج كمية مدهشة من الزيت الأسود ، تشعله جميع أجزاء فارس فى بيوتها وهم يحملونه عادة فى جميع أرجاء البلاد على ظهور البقر والحمير ، التى كثيراً ما نلتقى بها فى أسراب مجتمعة عددها ثلاثمئة أو أربعمئة . انظر Oxford Coll. of Voyages مج ١ (ف ٧) ص ٧٣١ . ويتحدث استراهلنبرج عن هذا النبع على أنه نبع نفط أبيض (Naphtha) ويميز بينه وبين النوع الأسود من البيتومين (القار) ، على أن أحسن بيان عن كل من النفط الأبيض والأسود بتلك الناحية هو الذى يقدمه كايميفر فى كتابه Amoenitates Exoticae ص ص ٢٧٤ ـ ٨١ .

● هوامش الفصل الخامس

(١) يقصد بزورزانيا مملكة الكرج أو جورجيا ، التى تتاخم أرمينية تماما وكانت عاصمتها هى تفليس ، وابدال الجيم المعطشة « زايا » من خصائص اللهجة البندقية القديمة ، وهى اللهجة التى من المفهوم أن النسخة الأصلية لعمل مؤلفنا كتبت بها ، كما أن طريقة الهجاء بقيت محتفظا بها فى بعض الترجمات اللاتينية وكذا الايطالية العامية · والذى ورد فى النص اللاتينى المبكر هو جورجيا (بالجيم المعطشة) ·

(٢) كثيرا ما يرد اسم دافيد أو دافيت (داود) بين قوائم الملوك الذين حكموا فى جورجيا ، اذ أن ميل هؤلاء الناس الى ذلك الاسم ، يمتد فى أعماق التاريخ آمادا بعيدة جدا · فليس عجيبا اذن أن يظن رحالة أن أسماء ملوك الكرج هي داود على الدوام · ويدل لقب « ملك » أن معلومات مؤلفنا مستقاة من العرب أو المغول الذين من الطبيعى أن يتبدلوا منه اللقب الوطنى مبيه Meppe .

(٣) كان بحر قزوين ، الذى يطلق عليه كتاب الشرق اسم بحر الخزر ، يسمى أيضا عند الفرس بحر باكو ، وبهذا الاسم نفسه (Mardi Bachan) يبدو فى الخرائط جميعا حتى احدى طبعات بطليموس الجغرافى التى طبعت بالبندقية فى ١٥٦٢ · وهو يستمد تلك التسمية من مدينة وميناء باكو الشهير الواقعة عند ساحله الجنوبى الغربى ·

(٤) يشير هذا الى فتح فارس وتخريبها التام بجيوش جنكيز خان ، قرب عام ١٢٢١ · فأما الجزر ، التى لا يستبعد أن عددا من السكان التعساء فروا اليها التماسا للسلامة ، فانها خالية من السكان فى الزمن الحاضر ، أو لا يرتادها الا صائدو الأسماك دون غيرهم ·

(٥) كانت مصايد الأسماك فى بحر قزوين ، وبخاصة حول مصبات الفولجا ، بالغة الأهمية فى جميع الأعصر · يقول البروفسور هـ· بروس : « يعد الحفش ، بين الأضرب الوفيرة العدد من الأسماك ، التى يمتلىء بها ذلك النهر ، من الأنواع الجسيمة الوفرة حقا ، وببيضه

(أو بطارخه) يعطينا ما يسميه الروس ايكارى ونسميه نحن كافيار ، وكذلك البلوجـا ، أو الدلفين الأبيض (وهـو ضرب أبيض من الحفش الروسى) فانه أيضا يستحق أن يذكر ، وكل واحدة منها تتراوح بين خمسة أو ستة أقدام فى الطول ، كما أن سمكها وتخانتها ضخمة بنفس النسبة • وفضلا عن هذين الصنفين ، يصاد منه أيضا سمك الأوسوترين (Osotrin) وهـو سمك آخـر بالغ الضخامة ، شديد السمنة واللذة • ويزخر ذلك النهر أيضا بالسلمون ، والحفيش أو الاسترلتز ، وهو لذيذ للغاية ، وذلك فضلا عن أنواع أخرى لا حصر لها قد يكون فى ذكرها املال » • انظر (Memoirs) ص ٢٣٦ • وتسترعى البلوجا نظـر استراهلنبرج كذلك حيث يصفها بأنها « أضخم سمكة نهرية فى العالم يمكن أكلها ، ويذكر انه شاهد واحدة طولها سـتة وخمسطن قـدما ومحيطها ثمانية عشر » • ص ٣٣٧ •

(٦) يقتصر الرحالة المحدثون على مجرد تعداد شجيرة البقس بين المنتجات النباتية للبلاد ، دون اشارة الى غلبة انتشارها ، ولكـن امبروجو كانتارنيو ، الذى قام بأسفاره فى القرن الخامس عشر ، لاحظها ملاحظة خاصة اكثر « Eva indetta pirura » حيث يقل عن منجر :

« di molti arbori in modo di bussi, ma motto maggiori »

ص ٦٥ ، ١٢ •

(٧) يمكن أن يفهم من هذه الرواية التاريخية المدعاة أنهم كانـوا يعتبرون أو يتظاهرون بأنهم يعتبرون فرعا من الأسرة الامبراطوريـة بالقسطنطينية ، التى كانت تضع النسر الرومانى بين شاراتها •

(٨) ذلك هو الممر المشهور الممتد بين سفـح جبـــل القوقـــاز (كاوكاسوس) وبحر قزوين ، الذى تقوم فيه مدينة ربند الصـغيرة والحصينة أيضا ، التى يسميها العرب « باب الأبواب » ويسميها الترك « Demir Capi » أى باب الحديد • ويسميها الفرس « دربانه » ، أى « الحاجز » بين جورجيا وبين ولاية شيروان الفارسية يقـــول البروفسور هـ• بروس : « ان الاهالى بعامة يعتقدون أن مدينة دربنت بناها الاسكندر الأكبر ، وان السور الطويل الذى كان يمتد الى البوكسين (الأسود) انما بنى بأمره لمنع اغارات الاسكيذيين على فارس » • ـ انظر Memoirs ص ٢٨٤ • ويقال ان السور رممه يزدجرد الثـانى من الأسرة الساسانية ، وقد حكم قرب منتصف القرن الخـــامس ، كما رممـــه أنوشروان ، من نفس الأسرة ، وهو الذى توفى فى ٥٧٩ م •

(٩)ان الملحوظات التى لدينا بوجه عام عن الشعب المســـمى بالكومانى أو الكومانيين انما هي ملحوظات غامضة ومبهمة • على

انه يبدو مع ذلك انهم كانوا فى أثناء القرن الثالث عشر هم سكـــان الأقاليم التى تقع على الجانب الشمالى الغربى من بحر قزوين . وتمتد من الفولجا نحو اليوكسين وقد أخضعهم فيما بعد وحـل محلهم فى ارضهم التتر القبشاقى • يقـول جبون : « ان الكومانيين كانـوا قبيلة تترية أو تركمانية عسكرت فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر على حافة مولدافيا • وكان معظمهم من الوثنيين ، ولكن بعضهم كانـــوا مسلمين ، واعتنقت القبيلة بأكملها المسيحية فى (١٢٧٠ للميلاد) على يد لويس ملك هنغاريا (المجر) » •

(١٠) اشتهرت بعض ولايات جورجيا وأرمينية ومـا جاورهما من أجزاء فارس ، فى كل العصور ، بتربية دودة القز والاتجار فى الحرير •

(١١) لست أدرى أى أنواع النسور هو المقصود هنا ، ولا نحن نستطيع أن نتأكد من صحة هجاء كلمة أفيجى • على أن شهرة الاقاليم بطيور من هذا الصنف ، شيء يبدو من كتابات كثير من الرحالة • فعندما وصل شاردان الى منجريليا ، وجد أن الضرورة تحتم عليه مخادعة الترك ، بادعائه أنه تاجر ، غرضه من زيارة البلاد هـو الحصول على الطيور الكاسرة ليبيعها فى السوق الأوربية •

(١٢) لم أتمكن من العثور داخل حدود جورجيا ذاتها ، على هذه البحيرة الملحة الكبيرة المســماة جيلوتشالات • ولكن يقف عـلى جزيرة فى البحيرة الواقعة قرب اريفان ، ويسميها دانفيل باسم غوق شا أى الماء الأزرق ، دير عتيق جداً ينبئنا شاردان بأنه أنشيء قبل زمانـــه بستمئة عام ، أى فى القرن الحادى عشر ، ولابد تبعا لذلك أن يكـون موجودا فى أيام مؤلفنا ، ولكن مياهها توصف ـ من جهة أخرى ـ بأنها عذبة وحلوة ، كما أنها تفصلها عن جورجيا سلسلة من الجبال • وهناك أسباب أقوى تدعو الى الظن بأنها هى البحيرة المسماة الآن فان أو وان ، وكانت تسمى أرجش فيما مضى ، وان كانت بحيرة فان هذه تقع أبعد من ذلك فى داخل حدود أرمينية • وكانت تقع الى جوارها مدينة أوتيت بعض الشهرة تسمى خلاط وأخلاط • ويصف أبو الفداء محيطها بأنه يستغرق مسيرة أربعة أيام ، ويقول انها تشتهر بنوع خاص من السمك يسمى الشرناج ، الذى يقال انه يشابه الرنجة •

(١٣) يطلق العرب والترك اسم ايتول على نهر الفولجا ، وقـــد حرف هنا الى هرديل • وهذا النهر يأتى ، حسبما يروى ابن حوقل ، من بلاد الروس والبلغار ، ويقال انه يصبح فى الفصل الذى تتجمع فيــه مياهه ، أعظم من نهر جيحون حيث يندفع الى البحر زاخرا فياضـــا .

حتى ليبدو كأنما يغزو مياه قزوين · انظر ترجمة أوسلى ص·ص· ١٨٥ ـ ٧ · على أن أسماء ، جيحـون أو أوكسوس ، (أو مأوراريا) وكور ، كوروس ، وآراز و أراكسس ، لا تحتاج الى تعليق خاص ·

(١٤) نظرا لأن ولاية غلان (التى تسمى أيضا الغيل) ، على بحـر قزوين . تشتهر بتجارتها فى الحرير ، فاننا لا نكاد نشك فى أن هـذه الكلمة « الغلى » انما هى اسم أطلق على السلعة لهذا السبب · وذلك شأن الفلورنتين وهو ضرب من الحرير حيث استقى أو يمكن أن يفرض أنه استقى اسمه من قلورنسا · ويذكر نيبور حرير غيلان الأحمر ، كما أن ألفنستون اذ يتحدث عن تجارة كابول مع فارس يقول : « ان الواردات هى حرير غليون ورشت الخام ، والانسجة الحريرية المصنوعة فى يزد وكاشون » ص ٢٩٥ ·

(١٥) عن بيان خاص عن مدينة تفليس ، عاصمة جورجيا ، انظر شاردان ، ص ٢٢٠ ع ع · مع اللوحة · على أن طريق مؤلفنا من تبريز الى ترابيزون لم يحمله الى هذه المدينة ، وهناك أسباب تدعو الى استنتاج أن القدر القليل الذى يقوله عنها مستقى عن آخرين ·

(١٦) كانت هذه المدينة فى زمن شاردان تحوى أربع عشرة كنيسة، منها ست تابعة للمسيحيين الكرجيين ، وثمان للأرمنيين · ونظرا لأنهـا كانت خاضعة آنذاك للحكم الفارسى ، فقد بذلت محاولات كثيرة لتشييد المساجد بها ولكنها أخفقت جميعا ، حيث لم يفت السكان مرة واحدة أن يهدموا المبنى ·

(١٧) ينبغى أن يفهم هنا أن المقصود بملك التتار (المغول) هـو سليل هولاكو ، الذى كان يحكم فارس والأقاليم المجاورة ، ـ وليس المقصود هـو الخان الأعظم ·

(١) تقع مدينة الموصل (بضم الميم) أو الموصل بفتح الميم وسكون الواو طبقا للنطق العربى ، وكانت فيما مضى عاصمة أرض الجزيرة وهى الآن فى الولاية (الباشاليك) التركية التى تحمل اسمها ، على الضفة اليمنى او الغربية لنهر دجلة ، تلقاء الموقع القديم لينينوى البائدة ، التى تتصل بهـا بجسر من الزوارق · ويصـفها أبو الفـداء وجميـع الجغـرافيين الشرقيين بأنها من أهم وأميز المدن الواقعة تحت الحكم الاسلامى · ومع ان مؤلفنا يدعـوها بالولاية فقـد يتبادر الى الذهن أنه انمـا يصـفها على الأغلب باعتبارها مدينة ، ولكن المنطقة ذاتها يسميها العرب ديـار الموصل وديار الجزيرة أيضا ·

(٢) معظم السكان فى هذه الأيام من العرب ، كما أن العربية هى وسيلة التفاهم بعامة بين الأهالى ، مهما يكن أصل قوميتهم أو ديانتهم ·

(٣) لا شك أن هذه الكلمة ، التى كتبت فى بعض النسخ جاكوليش، انما تعد مثالا صارخا على درجة التحريف التى تعرض لها نص مؤلفنـا لسوء الحظ ، اذ أنهـا ليست سوى لقب « كاثوليكوس » أو الجاثاليق الذى يعرف به بطـارقة الكنيســة اليـونانية فى جورجيا وأرمينية · ولم أستطع التحقق من مدى امتداد دائرة سلطاتهم ، ولكن علينا أن نفترض أنها تضم جميع المجتمعات التابعة لنفس الملة حيثما حلت · ويشـيـر شاردان الى جاثاليق جورجيا أو بطريقها ، الذى كان فى الوقت نفسه شقيقا لأمير البلاد المسلم ·

« Mussolo e mussolino, sorta di tela bambagina, cosi detta dal nome del paese dove per lo più si fabbrica ».

(٤) هنا يتم بطريقة مرضية ايضاح الأصل فى لفظة « الموسلين » فى اللغة الفرنسية وفى الايطالية (التى منها اقتبست الألفاظ الأخرى) ·

على أن مؤلفنا ، ان لم يسىء ناشروه عرض مـا قصـد اليه من معنى · يضم تحت تلك التسمية سلعا تختلف طبيعتها اختـلافا بعيدا عن المعنى الذى نطلق عليه ذلك الاسم · على أنه ليس من المستبعـد أن مدينة الموصـل ، وكانت فى ذلك الوقت من اكـبر مستودعات التجـارة الشرقية ، كما كانت فى حد ذاتها مستقرا لصناعة ضخمة ، وربمـا

المتوسط ، وان جرى فى عهود تالية أن كلمة الموسلين كانت تطلق بوجـه اضفت اسمها على منتجات كثيرة للنول وتحمل من هنـاك الى البحر قاطع على النسيج الهندى الذائع الصيت أو على تقليداته • وعنـدما يخبرنا ايفز فى بيانه عن رحلته أن : « صناعة هذه المدينة هى الموسلين (أو الموصلى) . (وهـو قمـاش من القطن) ، يصنعونه شديد المتانة بالغ النعومة ويبيعونه للأسواق الأوربية وغيرها ، » فان من الجلى انه لا يصف قماشا له ذلك القوام الرقيق أو الشفيف الذى نسميه بالموسـلين، وانما هو يصف على الأصح ذلك النسيج الذى حصـل عندنا على اسـم الكاليكو (أى البفتـة أو الذبلان على اسـم مدينـة فاليقـوت بالهنـد (الشرقية) •

(٥) ان كردستان ، التى كانت تؤلف الجزء الشمالى من بـلاد أشور القديمة ، منطقة جبلية تقع الى الشرق من نهر دجلة وراء أقاليم الموصل ونصيبين وماردين مباشرة وتتكلم أغلبية السـكان بلهجـة فارسية محرفة ، وأن ماثلوا فى عاداتهم وأحوالهم البدو الأعراب ، كمـا يشبهونهم فى ممارسة سلب القوافل التى ليست لها حراسـة كافية • وينعتهم كارترايت بأنهم « شعب لص سراق الى اقصى حد » ، وتتفق جميع بيانات كل من أعقبه من الرحالة فى وصفهم بأنهم نهابون محترفون، وهو وضع لمجتمعهم ينجم عن موقعهم المحلى ، وذلك نظرا لأنه منطقة جبلية لا بد للرحالة بالضرورة من اختراقها فى عبورهم من اقليم غنى الى آخـر • ويبـدو أن اهم السلع التجارية بتلك البلاد هى العفصـة الجوزية gall-nuus ، (الناتئة على شجر البلوط) • والقطن ونوع من الحرير يسمى كاس أوقز يصفه نيبور بأنه ينمو على الأشجار • (انظر ص ٢٦٨ Voyage, tom II) •

(٦) عن بيان عن ماردين ؛ وهى مدينة بأرض الجزيرة ، بناحية ديار ربيعة ، انظر رحلة نيبـور • وهـو يتحدث عن صناعات الكتـان والقطن بها • فأما موش (بالشين المثلثة) ، فمدينة على حدود كردستان وأرمينية ، بين بدليس والفرات فى الجزء الأعلى من مجراه •

● هوامش الفصل السابع

(١) شيد الخليفة أبو جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين مدينة بغداد فى قريب من عام ٧٦٥ ، وظلت مستقراً لحكم خلفائه الى يوم وفاة آخر خليفة من تلك الأسرة ، فى عام ١٢٥٨ عندما وقعت تحت سلطان المغول ·

(٢) هذا النهر هو Tigris الذى يسميه العرب دجلة الذى يصب فى نهر الفرات ، وعند ذلك يكتسب مجراهما المتحد اسم شط العرب ، ويصبان مياههما فى الخليج الفارسى · ومدينة بغداد العصرية تقوم على الضفة الشرقية وتتصل بالضاحية القائمة على الضفة الغربية للنهر بجسر من الزوارق · ولكن توجد فى ذلك الجانب أيضا خرائب المبانى التى كانت قائمة بالمدينة القديمة مقر حكم الخلفاء · واذن يكون مؤلفنا على صواب حين يصفها بأن النهر يشطرها شطرين فى زمانه · ويتحدث عنها أبو الفداء بأنها تشغل جانبى نهر دجلة كليهما ·

(٣) ان كيسى أو تشيزى Chisi فى التهجئة الايطالية ، جزيرة صغيرة على الجانب الشرقى لخليج فارس وتسمى قيس ، كانت تنقل اليها تجارة سيراف ، وهى ميناء على أرض القارة المجاورة للجزيرة ، ولها شهرة كبيرة عند الجغرافيين الشرقيين ، وكان ذلك النقل راجعا ، كما هو واضح ، الى الحروب الناشبة بتلك النواحى والكوارث التى يقاسيها التجار · وليست هناك أية آثار تدل على الموقع المضبوط لمدينة سيراف هذه ·

(٤) ان بالسارا ، والاشيع أن تكتب بلسورا ، ولكن صحتها هى البصرة ، انما هى مدينة ذات أهمية تجارية مهمة ، تقع على الجانب الجنوبى الغربى لشط العرب ، فى منتصف المسافة تقريبا بين ملتقى الدجلة والفرات ، والخليج الفارسى · وهى تقع نتيجة لهذا فى طريق من يبحرون من بغداد الى جزيرة كيس (كما يلاحظ مؤلفنا) ·

(٥) ربما جاز لنا أن نشتبه فى أن يكـون المقصود بدلا من كلمـة « Tappeti » أى القطيفة هو كلمة Velluti أى البسط والسجاجيد، وهى أشياء اشتهرت فارس بصناعتها على الدوام • أما فيما يتعلق بصور الحيوانات فان مسلمى الشيعة لم يظهروا نحوها ـ مثلما عـرف عن أهل السنة ـ ، أى تشدد فى تحريم تمثيل الحيوان والطير بالصور فى أعمـالهم الزخرفية •

● هوامش الفصل الثامن

(١) تولى المستعصم بالله ، آخر خلفاء بني العباس ، مقاليد الحكم فى ١٢٤٢ ، وأعدم فى ١٢٥٨ · كان أميرا ضعيفا كسولا فاسقا ، كما أنه كان شحيحا كذلك ، أهمل شئون الحكم ، وتركها في يدى وزير شرير ، انتهى به الأمر الى أن خانه وأسلمه الى عدوه اللدود ·

(٢) ورد هذا التاريخ فى النسخة اللاتينية القديمة · على أن مارسدن يرى أنه ١٢٥٠ ، ولكنه يضيف أنه طبقا لما أورده أصح المؤرخين الشرقيين رواية ، فان هولاكو لم يكن حتى سنة ١٢٥٥ (ويسميه هايتون هاؤلانوس أو هاؤلو ، ويدعوه البروفسور جويل هولايو ، ومؤلفنا أولاءو) قد عبر نهرا بعد نهر جيحون (أمودارايا) (OXUS) وفى ١٢٥٦ طالب المستعصم بمساعدته فى القضاء على الاسماعيلية ، وفى ١٢٥٨ استولى على بغداد · وان البروفسور جويل ليعمد ، استنادا الى الحوليات الصينية ، الى ارجاع تلك الحادثة الى ١٢٥٧ ·

(٣) ان هذه المعجزة المدعاة مفصلة هنا تفصيلا أدق منها فى الترجمات الأخرى كما أن النسخة اللاتينية تذكر أنها حدثت فى توريس (تبريز) ، وليس فى بغداد وان لم يستقم ذلك مع حضور الخليفة · (والنسخة اللاتينية القديمة تذكر أنها حدثت فى ١٢٧٥ ، « بين بلداش والموصل » · وتتفق معها النسخة الفرنسية) ·

◎ هوامش الفصل التاسع

(١) تقع مدينة توريس التى ينطق اسمها الفـــرس وغيرهم من الشرقيين « تبريز » ، فى ولاية أزرنجـان التى تتـاخم ولاية الجبـل أى العراق الفارسى ، وكانت تشكل معها مملكة الميديين القديمة • وظلت على امتداد العصور مركزاً ذا أهمية كبيرة • وعندما غزا المغول فارس قرب عام ١٢٥٥ ، أصبحت المقر الرئيسى لهولاكو وسلالته حتى يـوم انشاء مدينة السلطانية ، عن بداية القرن الرابع عشر •

(٢) ليست كريسيسور التى تكتب أحيانا كريموسور أو كورموزا أو كريموز أو كَرموزَ سـوى مدينة أرمـز أو هرمز الشهـيرة التى كان القدماء يسمونها هارموزا ، والواقعة عند مدخل الخليج الفارسى • وسترد مناسبات أخرى للحديث التفصيلى عنها فيما بعد • ان بلداش كما رأينا آنفا ، هى مدينة بغداد •

(٣) يذكر شاردان سوقا (بازار بالفارسـيـة) معينـــة (هى « أجمل الأسواق ») تباع فيها الجواهر وسلع أخرى لها قيمة بالغـــة النفاسة • ويبدو أن اللؤلؤ ، المستخرج من مصـايد سـيلان والبحرين بخليج فارس جميعا ، كان ينقل أولا الى بغداد حيث يتم صقله وثقبــه ، ثم ينقل منها الى غيرها من أسواق آسـيا وأوربا ، وبخاصة القسطنطينية •

(٤) لابد أن هؤلاء الفرس ، مميزين عن المسلمين ، كانوا السكان الصـــليين لبـــلاد فارس (Farsistan) الذين احتفظوا بدين زرادشت القديم (Zo) وكانت أهم خصيصة لذلك الدين عبادة النار ، وهم الذين نسميهم (فى حالة اغترابهم العصرية عن وطنهم) باسم الفارسيس• وهم يؤلفون فى زماننا هذا أغنى وأذكى طبقة من السكـان الوطنيين الذين يعيشون تحت الحماية الانجليزية فى بمباى •

(٥) يمتدح أبو الفـداء حـدائقها ، كمـا أن وفرة فواكهها وتعـدد أنواعها استرعت نظر شاردان •

(٦) أى التتار المغوليون ، سادتهم الجدد .

(٧) ينبغى أن يفهم أن المقصود بذلك هو بلاد فارس الأصـلية ، وهى فارستان ، التى كانت مدينة برسيبوليس (اصطخــر بالعربية) عاصمتها القديمة ، مثلما ان سيراز هى العاصمة الجديدة ، ولكن يرجح أنه يعنى المسافة بين تبريز وكاسبن (قزوين) التى يتحدث عنها فى الفصل التالى على أنها أول مدينة ترى عند الدخول الى فارس .

● هوامش الفصل العاشر

(١) لا شك أن هذا القديس هو القديس بارسيمايوس أسقف الرها (Edessa) فى القرن الثانى .

● هوامش الفصل الحادى عشر

(١) لا شك أن قصة المجوس هذه ذات أصل شرقى ، وذلك لأنها لا تتفق والأساطير الغربية · والاسم يكتب فى مخطوطات اخـــرى : كالاساتا برينستا · ومن البين ان فكرة بئر أشعلته نار سماوية مؤسسة على وجود آبار أو كهوف مشتعلة بأجزاء مختلفة من آسيا ، وبخاصة بجوار باكو قرب بحر قزوين ، وعلى ساحل كرمانيا ، حيث شهدها الكابتن بوفورت · ولكن اسم المكان يقدم للعالم بالدراسات الفارسية أقـــوى محك للصـــدق اذ لابد له أن يدرك أن كلمـــات كاساتا برينستا ، انمـــا يقصد بها كالات برستان أو ربما كالاه اتيش برستان ، ومعناها الحرفى هو « قلعة عبدة النار » · أما اسم ســـابا أو صـــبأ التى من المحقق أنه لا يكتشف بين مدن فارس ، فربما ظن أن له علاقة ما بمبادىء الصابئة والصباية ، وهو المذهب القريب الاتصال بمذاهب الجوبرية أو الجهبرية (وهم البقية الباقية من عبدة النار بفارس) ·

● هوامش الفصل الثانى عشر

(١) من المفهوم فى الاستخدام العادى لهذه المصطلحات أن المملكة تتألف من ولايات ، ولكن الذى حدث عند تقسيم الامبراطورية الهائلة التى ورثها أحفاد جنكيز خان ، أن الولاية المعطاة (اقطاعا) لكل من أبنائه أو أحفاده تشمل ما كان قبل فتوحه ، ممالك مستقلة ·

(٢) عند دخول العراق الفارسية من ناحية تبريز ، فان أول مدينة عظيمة هى قزوين (اذ لم تكن السلطانية بنيت بعد) ، وهى مدينة ظلت فى آناء كثيرة من تاريخها مقراً لحكم الملوك · ان مؤلفنا فى تعداده لهذه الممالك الثمانى يلجأ أحيانا الى ايراد اسم العاصمة ، كما فى هذه الحالة ، ويورد فى أحيان أخرى اسم الولاية أو الناحية كما هو الشأن فى الحالات التى تتبع ذلك مباشرة · ويبدو أنه دون الأسماء أو أملاها حسبما طرأت على ذاكرته ، بغير نظام ثابت وبأقل اهتمام بالترتيب ·

(٣) ما كان ينبغى لنا أن نتوقع أن نجد بلاد كردستان ، التى كانت تابعة لآشور القديمة ، تذكر على أنها أحد الأجزاء المؤلفة لمملكة فارس ، وان حدث فى آناء عدة أن كثيراً من اجزائها كان يخضع لتلك المملكة · ولا هى حتى ، لو ضمت ، يمكن أن يقال انها تقع فى الجنوب · وربما أمكن مع ذلك الذهاب الى أن الناحية المقصودة هى خوزستان (وكثيرا ما تكتب خورستان) وهى سوسيانا القديمة ، التى تقع عند رأس الخليج الفارسى ، فهى تبعا لذلك فى جنوب قزوين ، وليس كردستان التى تقع فى الغرب · انظر أبو الفداء فى « تقويم البلدان » ·

(٤) اذا كان المقصود من كردستان هو خورستان ، فالأحرى أن يمكن أن يقال ان لور أو لير تقع فى شمالها وان كانت بالنسبة لقزوين وفارس بوجه عام ، اقليما جنوبيا · يقول ده هربيلو : « ينبغى عدم الخلط بين اقليم لور واقيلم لار أو لارستان التى تمتد على طول الخليج الفارسى · فأما اقليم لور فهو جبلى ، وكان يتبع فى الزمان الماضى الولاية المسماة خوزستان وهى سوسيانا القديمة » « Biblioth. Orient » .

(٥) من العسير علينا تكوين أية فكرة ظنية عن سولستان ، ولكن عثورنا على الاسم فى ترجمات أخرى ، مكتوبا سيلستام أو سيليستام

وفى الخلاصة الايطالية القديمة سيبيستان ، لا يجعل عندى أقل شك فى أن المقصود بها هو سيجستان ، التى تكتب أيضا سيستان ، وهى ولاية تقع فى الجهة الشرقية من فارس

(٦) ان مدينة اصبان أو أصبهان ، التى يسميها العرب اصفهان ، التى تقع فى الجزء الجنوبى من العراق الفارسى ، معروفة بأنها العاصمة الفاخرة لملوك الأسرة الصفوية التى فاقت ابان حكم الشاه عباس الثانى فى الأبهة وسعة الرقعة معظم المدن الآسيوية ٠ وقعت فى قبضة المغول فى ١٢٢١ ، ثم استولى عليها تيمور لنك فى ١٣٨٧ وانتهبها ودمرهـا تقريبا ٠

(٧) ان شيراز عاصمة ولاية فارس نفسـها وكذلك أيضـا عاصمة الامبراطورية الفارسية كلها فى بعض الفترات ٠ معروفة هى الأخـرى تماما ، عن طريق أوصاف الرحالة لها ، بحيث لم يعد من الضرورى أن يقال فيها هنا أكثر من انها تجىء فى المرتبة الثانية بعد أصفهان بين المدن الملكية ٠

(٨) لقى هذا الاسم تحريفا كثيرا ، فهو سونكارا فى نسخـة راموسيو ، وسوخام فى طبعة بال ، وسنتارا فى اللاتينية الأبـكر ، وكونكارا فى مخطوطة المتحف البريطانى ، وسونكارا (طبقـا لرأى مرار) فى مخطوطة برلين ، وكوركاتا فى الخلاصات الايطـالية ، وكورتشارا فى الترجمة الانجليزية القديمة ، وليس فى الواقع الا قورقان أو جورقان الذى أورده الجغرافيون الشرقيون ، كما أنه واضح الارتباط بمدينة هيركانيا عند الأقدمين ٠ وموقعها عند النهاية الجنوبية الشرقية لبحر قزوين ، الى الشمال من سلسلة جبال دمغـان وولاية قوميس أو كوميسين ٠

(٩) مهما تباعد التشابه بين الأسماء فان تيموكاين (التى وردت تيموتشايم فى نسخة بال تيماتشايم فى الطبعة اللاتينية الأقدم) فان المقصود منها هـو دمغـان بغير شك ، عاصمة ولاية قوميس الصغيرة ، فى الناحية الشمالية الشرقية من فارس ٠ على أن جوزافات بربارو ، سفير البندقية لدى ذلك البلاط ، يسميها تريمجيان ؛ كما يسميها مواطننا توماس هربرت ديورجومنت ٠ على أننا نكتشف أن هذا التحريف ليس صادرا عنه ، وذلك لأن بيترو ولافالى فى احـدى رسائله ، يشكو من هذا الانتهاك وضعف التأكد اللذين يبدوان فى أسماء الأماكن :

« Come per essempio, quel Diargument, che l'Epitome Geographica dice esser nome moderno de l'Hircania ».

(١٠) سبقت الاشارة الى الناحية التى أطلق عليها الشجرة الجافة ، وسيعود ذكرها بتفصيل أكثر فى فصل تال ٠

(١١) لا شك ان امتياز نوع الخيول الفارسية ، الذى لعلها تدين به الى التهجين بين السلالتين العربية والتركية ، معروف مشهور ٠ وقد كتب شاردان بيانا تفصيليا عن صفاتها الممتازة (المجلد ٢ ف ٨ ص ٢٥ ، س ٤ . كما كتب فى ذلك مالكولم فى Hist of Persia مج ٢ ص ٢ ٥١٦) ٠ ولما كان الجنيه التورنوازى أو الليرة (نسبة الى تور (numuds) كانت له فى القرن الرابع عشر قيمة نسبية تعادل ٢٥ الى ليرة واحدة من ليرات العصر الحاضر ، فانه يترتب على ذلك أن السعر الذى كان يباع به الحصان الفارسى ببلاد الهند كان يتراوح بين ألف وخمسمائة روبية الى ألفين ٠

(١٢) سبق أن أوضحنا أن كيسى أو تشيزى هذه انما هى جزيرة قيس التى كانت تنقل اليها تجارة سيراف فى داخل الخليج الفارسى ٠ أما ميناء هرمز الشهيرة ، فسنتحدث عنها فى مناسبة أخرى فيما بعد ٠

(١٣) المقصود بالتتار الشرقيين ، هو التتار المغول ، الذين دخلوا فارس من الجانب الشرقى لبحر قزوين ٠

(١٤) ان (الجروسى) الايطالى أو الجروت كانت عملة فضية صغيرة ، اختلفت وزنا وقيمة باختلاف الأزمان ٠

(١٥) يقول شاردان : « لن أتكلم مطلقا عن الجمال المطلق لنوع من النسيج مصنوع من الحرير الخالص ولا عن أقمشة الحرير المخلوط بالقطن ٠٠ اذ لن أتكلم الا عما ينتجون من ديباج مقصب (Bumm) وهم يسمونه الديباج الابريزى (Perdrix) ، أى المغزول بالقصب ٠٠ وليس ثمة نسيج بهذا السعر الفادح بكل أرجاء العالم » ٠ (مج ٢ ص ٨٦ ، ٤ من فوق) وحين يتحدث بوتنجر عن صناعات قاشان يقول : « ان السلع الرئيسية بها هى المصنوعات النحاسية ، والبسط ، والحرائم الملونة والمنقوشة بالزهور ، والأخيرة منها بديعة الجمال ٠ وقد شربت بعضا منها مصنوعا فى مناديل عنق (ايشارب) ، وهى تصنع على غرار اثمن شيلان الكشمير » ٠ انظر : (Trav. in Beloochistan) ص ٢٤٤ ٠

(١٦) يزرع القمح بولايات فارس الشمالية ، كما يزرع بالجنوبية كذلك ، وان بدرجة أقل ٠ يقول مالكولم : « ان الشعير كثيرا ما يباع

فى فارس بفارزنج واحد للرطل ، كما أن القمح فى المتوسط لا يزيد عن ثمن الشعير الا بمقدار الثلث » · انظر : History of Persia مج ٢ ، ص ٥١٩

(١٧) ان طريقة اغلاء الخمر شائعة بين الشعوب الشرقية . ولكن يجــــوز لنا أن نرتاب مترددين بين التعليلين : فهــل الدافــع المســـمى مهنا هــو الدافع الحقيقى أم أنه لا ينبغى لنــا بعبــارة أخرى أن نستنتج أنهم كانوا يفضلون طعمها بعد الاغــلاء · وقد ظل الفرس على الــدوام أقل تدقيقا من المسلمين السنيين الآخرين ، فيما يتعــلق بمعــــاقرة بنت الحان · ويذكر بييرو دللافالى مرسومين للشـــاه عباس : أحدهما يحرم احتساءها ، وهو أمر يدل على أن تلك السنة الدينية قد أخفقت دون القيام بمفعولها ، ويلغى الثــانى قرار التحــريم ، وذلك عنــدما اكتشــفت أن الناس وخاصة الجند منهــم اســتبدلوا بالخمــر تركيبا ســائلا من الأفيون أضر بصحتهم ·

● هوامش الفصل الثالث عشر

(١) ان يزدى هى أبعـــد مدينـة تقـــع فى أقصى الشرق من ولاية فارس نفسها · ويصفها الكابتن كرستى الذى زارها فى ١٨١٠ بأنها : « مدينة بالغة الضخامة مزدحمة بالسكان ، تقع على حافة صحراء رملية ، تجاور سلسلة جبلية تمتد شرقا وغربا » · ثم يستطرد فيقول : « وهى تشتهر عند جميع التجار ، بما يتوفر للمضاربين من حمـــاية ، وبما يعم سكانها وأملاكهم من أمن · وهى السوق العظيمة بينهندوستان وخراسان وبغداد وفارس ، كما يقال انها مكان تدور به تجارة أعظم مما فى أى مكان آخــــر بالامبراطورية الأخيـرة » · انظـــر كتـــاب : Trav. in Beloochistan التذييل ص ٤٢١ ·

(٢) ويلاحظ ده هربيلوه أن : « الاقمشة الحريرية التى يشتغلونها هناك ، والتى يسمونها فى تركيا وفارس باسم « قماش يزدى » يعود عليها بسوق شديدة الرواج » وفى مذكـرات عبـد الكريم (كشـــميرى « بنيانى وقائع » توفى ١٧٨٤) أيضا نقرأ عن هدية قدمها نادر شاه الى أحد السفراء ، تتكون من خمس وعشرين قطعة من ديباج يزدى المقصب ·

(٣) تسمى هذه عادة باسم صحراء كرمان ·

(٤) نقرأ عن حمر وحش تقدم هدايا ، ومن ثم عجائب وتحفا ، الى الشاه عباس ، وغيره من ملوك فارس · ويعلق رنل : « ان حمر الوحش التى استرعت نظر زينوفون بسرعتها ، تحمـــل نفس الصفة فى الوقت الحاضر · ثم ان تكزيرا فى ١٦٠٦ شاهد قطعانا منها فى الصحراء العربية ، قبالة صحراء الجزيرة مباشرة ، بنفس المنطقة التى شاهدها فيها زينوفون » · انظر Illustrations ص ١٠٠ ·

(٥) تقارب المسافة بين يزد وعاصمة كرمان مائة وستين ميـــلا جغرافيا ، وبذلك تكون السرعة حوالى عشرين ميلا فى اليوم · بيد أن معدل سرعة السفر لقيروان (قافلة) خفيف ، كما استنبطه الماجـور رنل ، انما هو فقط خمسة عشر ميلا الى خمسة عشر ونصف بالجمال أو سبعة عشر الى ثمانية عشر بالبغال ، وذلك فى الرحلات الطويلة · وربما أمكن حقا أن يفهم أن الصحراء وحدها ، باســتثناء بعض أجزاء من الأرض المزروعة ، كانت تستغرق ثمانية أيام · وتذكر بعض المخطوطات أنها سبعة أيام ·

● هوامش الفصل الرابع عشر

(١) ان كرمان ولاية فارسية ، تقع على الطرف الجنوبي الشرقي من تلك المملكة · ويبدو أن قصبتها تحمل نفس الاسم كجارى العادة المألوفة ولكنها تعرف أيضا باسم سرجان ، كما ينطقها الفرس أو سرجان كما ينطقها العرب · « تقع مدينة كرمان » ، فيما يقول بوتنجر ، « على الجانب الغربي لسهل منبسط رحيب ، شديد اللصوق بالجبال ، بحيث ان اثنين منهما تقوم عليهما حطام حصون قديمة بالية ، يتحكمان فيه تحكما تاما · وكانت في يوم من الأيام أشد مدن فارس ازدهارا ، كما أنها لا تفوقها في سعة الرقعة الا العصمة أصفهان وحدها · ولم تتعرض مدينة في الشرق لتقلبات الحظ أكثر من كرمان ، ولا كانت مثلها مشهدا لكثير من أشد الحروب تدميرا ، داخلية كانت أم أجنبية » · ص ٢٢٢ ، ويبدو أن مؤلفنا لم يكن يعد كرمان ، في زمانه ، جزءا مكملا لفارس ، وذلك استنتاجا من عدم ادخاله اياها بين ممالك فارس وولاياتها الثماني التي عددها · ونظر اليها الادريسي أيضا في هذا الضوء في القرن الثاني عشر فهو يقول : « تقع بلاد كرمان بين بلاد فارس وبلاد مكران » · ص ١٢٩ (من الطبعة الطليانية من « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) » ·

(٢) يقول شاردان : « ان اغنى مناجم فارس هو منجم الفيروز · وهم يحصلون عليه من مكانين ، أولهما نيسابور في كاراسون ، وثانيهما في جبل محصور بين هركانيا وبارثيد ، على مسيرة أربعة أيام من بحر قزوين ويسمى فيروزكو » · مج ٢ ص ٢٤ ، ٤ · ويقول مالكو لم متحدثا عن نيسابور : « يوجد حجر الفيروز بهذه الجبال » · انظر (Hist. of Aleppo مج ٢ ص ٢٢٠ هـ ·

(٣)يقول شاردان : « توجد مناجم الحديد في هركانيا وفي ميديا الشمالية وفي اقليم البارسيس (الفارسيس) وفي اقليم باكتريا · وتوجد مناجم الصلب بنفس البلاد ، وتنتج مقادير كبيرة » · ص ٢٣٠ وعندئذ أخذ شاردان يصف ميزاته الخاصة ، ويقارنه بصلب بلاد الهند ·

(٤) لم نعثر في أي قاموس على كلمة « اندانيكو » الواردة في نسخة راموسيو ، ولا « اندانيكوم » في طبعة بال ، كما أن أحدا من المترجمين السابقين لم يحاول تأدية الكلمة بأي مصطلح يقابلها ، وانما

تركوها كما وجدوها فى نسختهم • وما كنت ، اعتمادا على أن تشابه فى صوت الكلمة ، لأتجاسر على اعتمال الظن بأن المقصود منها هو « الانتيمونيو » (المعدن المعروف بالأثمد) ، ولكنى وقد علمت من « رحلات شاردان » ان فلز الانتيمون انما هو أحد منتجات الأقطار الواقعة فى الجانب الشرقى من فارس ، التى يتكلم مؤلفنا عنها هنا ، ـ اعتبر أن احتمال حدوث تحريف كهذا له بعض الوزن •

(٥) يقول بوتنجر : « قرأت فى تاريخ مخطوط عن فتح مكران ، فى السنة التسعين للهجرة ، أن كرمان كانت آنذاك مدينة شديدة الاتساع مليئة بالثروات وقد ذاعت شهرتها بروعة ما ينتج من شيلان وأسلحة » ويقول أيضا أن تجارة كرمان ، وان كانت لا تزال ضخمة لم تنتعش قط بدرجة يمكن مقارنتها بما كانت عليه قبل الاقصاء الأخيرة لسكانها عنها •• وتشتهر صناعات الشيلان فيها وفتيل اشعال البنادق ، والجوخ (Numuds) بكل أرجاء آسيا ، كما يقال انها تتيح فرصا للعمل أمام ما يقارب ثلث السكان ، ذكورا كانوا أم اناثا » •

(٦) يقول شاردان : « ان حجل (Perdrix) فارس هى ، فيما أعتقد أضخم حجل فى العالم كما أنها من حيث الطعم ألذهن جميعا » •

(٧) كان الطريق من كرمان الى الخليج الفارسى ، الوارد وصفه هنا ، يخترق فى الراجح مدينة بام أو بم (Bumm) ، التى تقوم قرب الحد الفاصل بين ما يعد المنطقة الباردة والمنطقة الحارة بكرمان • يقول بوتنجر : « ان مقاطعة نورمانشير ، تمتد من منطقة اليباب التى تفصلها عن بلوخستان الى مدينة بم ••• وحدها غربا هو مقاطعة كرمان ، التى تعد الآن فيما اعتقد جزءا منها ، وحدها الشرقى هو الصحراء ، كما أسلفنا اليك ، والى الشمال والجنوب سلسلتان من الجبال ، الأخيرة منهما أعلى كثيرا من الأولى ، ويخيل الى أنها مكللة بالثلوج فى كل الفصول ، شأنها عندما شاهدتها ، وكان ذلك فى وقت اشتد فيه القيظ فى السهل الممتد أسفلها » ويبدو أن هذه هى جبال مارن التى يقول ابن حوقل : « انها تابعة للمنطقة الباردة من كرمان، ويتساقط الثلج عليها » •

● هوامش الفصل الخامس عشر

(١) ان معرفتنا بجغرافية المنطقة الممتدة بين قصبة ولاية كرمان والخليج الفارسى بالغة الضعف والنقصان ، بل انه حتى خريطة بوتنجر ، وهى أحدث ما نمتلك ، لا يظهر فيها الا اسم واحد منعزل فى تلك البقعة ، وان رصدت فيها سلاسل فى مظهر ينبىء بالدقة • ومن ثم فمن العسير تحديد المكان المقصود بكاماندو وهى فى مخطوطتى المتحف البريطانى ومتحف برلين كاماندى ، وفى الخلاصات الايطالية (ادجاماد) ، ولو وجدت دواع للاعتقاد بأن هذه المدينة التى فقدت أهميتها قبل زمان مؤلفنا ، لا تزال فى حيز الوجود • وربما أمكن أن تكون هى ميماون فى خريطة دانفيل ، التى يسميها ابن حوقل « ماهان » ولعلها كومين عند هذا الأخير : على أننا لا نقدم هذه الا على أنها مجرد ظنون •

(٢) واضح أن المقصود من ريوبارله ، هو رودبار ، وهو مصطلح وصفى ، ويطلق فى حالات عديدة ، على مدن أو نواح بفارس والأقطار المجاورة لها • ومعناه « نهر يجرى فى واد ومجرى أو خور أحد السيول ، وكذلك مكان تجرى فيه جداول كثيرة » ، ولقد يبدو من الظروف التى بن أيدينا ، أن الناحية التى يقال هنا انها تتجاوب وذلك النعت ، هى التى تشغل ضفاف النهر الذى يحمل فى خريطتى دانفيل ومالكولم اسم ديف رود ، ولابد من عبوره أثناء سلوك الطريق بين كرمان وهرمز •

(٣) ان تفاحة آدم اسم أطلق على الفاكهة المسماة بالأترج أو الليمون الهندى أو الجريب فروت أو ليمون كومانوس فى رأى العالم النباتى السويدى لينايوس • ولكنه ربما قصد به هنا البرتقال نفسه أى Pomum aurantium الذى يسميه الفرس والعرب النارنج •

(٤) ربما كان هذا الاعتراض على تناول لحم اليمام ، كراهية محلية • اذ لا يبدو أنها تعد لحما نجسا عند المسلمين عامة •

(٥) ان للدراج الفرانكولينى « Tetrao francolinus » الذى يعيش ببلاد المشرق الأدنى ، أرجلا ومنقارا أحمر كما جاء بالوصف أعلاه • ويسميه الدكتور رسل francolinus olinoe وهو المعروف لدى الفرنسيين باسم (G. Linotte) • وهو يقول ان لحمها لذيذ ، ولكن

لا يلتقى المسافرون بذلك الطائر على أقل من مسيرة يوم من المدينة · انظر
(Nat. Hist. of Aleppo)

(٦) هذا النوع من الثيران ، الذى يستخدم عادة فى سورات وأماكن أخرى على الشاطىء الغربى للهند ، فى جر العربات المسماة « بالهاكرى » ، لعله استقدم من هناك الى المقاطعات الشرقية بفارس · وقد وصفه كثير من الكتاب ، كما وصفه بيبور من بين أشياء أخرى غيره · انظر ــ Voyage en Arabie, etc. ، مج ٢ ص ٥٢ الجدول ١٢ ·

(٧) تقطن هذه السلالة الممتازة من الغنم واسمها العلمى (Oris Laticandata) ، أجزاء مختلفة من آسيا وأفريقيا ، وكثيراً ما أجرى العلماء والرحالة وصفها · ويورد عنها كتاب :
(The Natural) البيان المهم التالى مع لوحة مصورة · يقول رسل :
« عندهم نوعان من الغنم فى المنطقة المجاورة لحلب · أحدها يسمى غنم البدو ، وهو لا يختلف فى أى وجه عن أكبر أنواع الغنم ببريطانيا ، فيما عدا أن ذيولها أطول وأغلظ قليلا ، والنوع الآخر هو الذى يكثر الرحالة من ذكره بسبب ضخامة ذيوله الخارقة ، والصنف الأخير أكثر عددا بكثير من الأول · وهذا الذيل عريض جدا وشديد الضخامة وينتهى بذيل صغير ينعقص عليه · ويكون من مادة قوامها وسط بين الشحم والنخاع ، ولا تؤكل وحدها وانما تمزج باللحم الأعجف (قليل الدهن) فى كثير من الوان طعامهم ، كما أنها غالبا ما تستخدم أيضا بدل الزبد· والذبيحة العادية من هذا النوع من الغنم تزن ، بغير الرأس والكوارع والجلد والأحشاء ، حوالى اثنى عشر أو أربعة عشر رطلا حلبيا (وهو يعادل خمسة أرطال انجليزية) والذيل وحده فيه ثلاثة أرطال أو ما فوقها ، ولكن أفراد أضخم السلالات والتى تسمن ، ربما بلغ وزنها احيانا حوالى ثلاثين رطلا حلبيا وتزن ذيول (لية) هذه الأخيرة عشرة حلبية (أو ما يعادل خمسين انجليزية) ، وهو أمر لا يكاد يصدقه بعض الناس · وهذه الأغنام الشديدة الضخامة التى تحفظ فى المناطق المحيطة بحلب داخل أحواش ، لا تتعرض لخطر الاضرار بذيولها · ولكنها فى أماكن أخرى ، حيث ترعى فى الحقول ، يضطر الرعاة الى تثبيت لوح من الخشب الرقيق فى الجزء السفلى من الذيل لمنع تسلخه على الشجيرات الصغيرة والحسك وغيرها ، كما أن بعضها تركب له عجلات صغيرة لتسهيل جر ذلك اللوح وراءها · ومن هنا تنشأ مع شىء من مبالغات الخيال ، قصة وجود عربات وراءها لحمل ذيولها » · وعلى ذلك فان أقوال شاردان حول « الأغنام ذات الذيول الضخمة » بفارس والتى يقول ان ذيولها تزن ثلاثين رطلا ، تتفق تماما مع ما ورد أعلاه ·

(٨)يكثر هملتون من ذكر هذه التحصينات الطينية ـ فهو يقول : « ظهر البلوخستانيون قرب مدينة جومبرون ، فى زحف سريع عليها ، أفزع الحاكم (الفارسى) كثيرا حتى انه وان وجد سور طينى مرتفع بينه وبينهم ، فانه امتطى جواده ولاذ بالفرار · وجاء البلوخستانيون اولا الى الحى الغربى من المدينة ، الذى يقوم به مصنعنا وسرعان ما أحدثوا ممرات فى الأسوار الطينية » · انظر : (New Account of the East Landie Indies جـ ١ ص ١٠٨ ·

ويقول بوتنجر : « ان قرية بنبور قرية صغيرة سيئة البناء : وكانت محاطة فى يوم من الأيام بسور منخفض من الطين ، به بين كل مسافة وأخرى مواقع محصنة صغيرة · ولكن ذلك كله قد غلب عليه اليوم الدمار » · انظر : « Travels in Beloochistan and Sinde » ص ١٧٦ ·

(٩) يسميهم النص اللاتينى القديم « اسكارانى ومالاندرينى » · ويخيل الينا أن الكراونيين هم سكان مكران ، وهى شقة من الأرض تمتد من قرب نهر الاندوس (السند) الى الخليج الفارسى ، ويشتق اسمها من كلمة « كارانا » ومعناها « الساحل أو الشاطىء أو التخم » ويبدو أنهم لا يختلفون الا قليلا عن شعب بلوخستان المجاور ، ان لم يكونوا من نفس الجنس ، وما يذكره عنهم مؤلفنا هو صورة صادقة لعادات السرقة والنهب التى يشتهر بها الأخيرون · ويقول ابن حوقل : « ان البولوج يقيمون بصحراء جل كيفس ، وكيفس فى لغة الفرس (البارسى) هى كوجه · وهم يسمون هذين الشعبين باسم الكوجيين والبولوجيين · والبولوج قوم يسكنون الصحراء ، وهم يفسدون فى الطرقات ولا يحترمون أحدا » · لدينا عن عادات هذا الشعب أشد البيانات تفصيلا فى دفتر يوميات الملازم بوتنجر الذى يقول : « ان النهارونيين Nharoośs أشد طبقات البلوخ وحشية وميلا الى السلب · وعلى حين تجدهم يعدون السرقة الفردية الخاصة ماسة بالشرف والكرامة الى أقصى حد ، فانهم ينظرون الى نهب اقليم والعيث فيه تدميرا وفسادا باحساسات مضادة لتلك تماما ، بحيث يعدونه مأثرة عظيمة تستحق أعظم الثناء · واذ تقسو قلوبهم بهذا الاحساس قسوة الفولاذ ، فانهم يقومون كأفراد بقصر حكايات المساعدة التى قدموها فى مثل تلك الظروف والتفاخر باعداد الرجال والنساء والأطفال الذين أسروهم وحملوهم معهم أو قتلوهم ، والقرى التى أحرقوها وانتهبوها ، وقطعان الماشية التى ذبحوها متى لم يقدروا على سحبها معهم » · وقال أحد أهالى بلوخستان لنفس الرحالة : « نحن الآن فى مكران ، حيث كل فرد لص من حيث طائفته ، وحيث لا يتردد الأخ فى نهب أخيه والجار فى سلب جاره » ·

(١٠) كان نيقودار آوغلان ابن هولاكو ، وحفيداً لأخى جاغتاى • وقد خلف أخاد أباقا على عرش فارس ، متخذا اسم أحمد خان ، وكان أول من أعلن اسلامه من أبناء أسرته • فان كان النيقودار ، الذى حاول تجربة حظه ، كما يخبروننا هنا ، فى هذا الجانب من الهند ، قد زار فعلا بلاط جاغتاى ، الذى توفى فى ١٢٤٠ ، فلابد أنه كان ينتمى الى الجيل السابق ، وذلك لأن الذى حدث هو أنه حتى ١٢٨٢ لم يكن أحمد خان نيقودار أصبح حاكما على فارس ، كما أن اثنين وأربعين عاما فترة أطول كثيرا من أن تسمح بأن نظن بأنه المغامر الشرقى • والآن ، فربما كان هناك نيقودار أقدم من هذا بين أحفاد جنكيز خان الكثيرين ، والحق ان الاستقامة المنطقية للقصة تتطلب أن تكون حدثت قبل زمن مؤلفنا بزمن بعيد •

(١١) لا بد لى هنا من أن أستمرىء المضى فى تخمين وظن مهما يبد جريئا ، فسيبرره سياق الكتاب اذ أنه بدلا من مالوبار أو مالاوار (كما تكتب أحيانا) ، ينبغى أن تكون الكلمة (وكانت فى النسخة الأصلية) لاهاوار أو لاهور كما تنطق عادة • فمن خلال هذه المقاطعة ، وليس بالتأكيد من خلال مالابار ، لابد أن يكون هذا المغامر شق طريقه الى دلهى •

(١٢) كانت ألفاظ عز الدين وغياث الدين ومعز الدين مع اضافة كلمة سلطان ، ألقابا شائعة لحكام دلهى الباتانيين (Popan) فضلا عن الأمراء الذين كانوا يتولون الحكم بولايات امبراطوريتهم •

(١٣) تقع باداخشان ، وهى قرب منابع سيحون ، على ذلك الجانب من مملكات جاغتاى الذى هو أقرب الى منابع أنهار الاندوس والجانج ، فهى نتيجة لذلك على خط الزحف نحو مدينة دلهى •

(١٤) لا يمكن أن تكون كيزمور شيئا آخر عدا كشمير ، التى تقع فى الاتجاه الممتد من باداخشان نحو لاهور وسيرهند والعاصمة • والطريق الأشيع استعمالا يمر من كابول ، ولكن هدف ذلك الفاتح الصغير كان التزام الجبال ، لكى يخفى بذلك نواياه •

(١٥) هنا يصبح من الواضح تماما أن الاقليم الذى اخترقه عند مغادرته كشمير هو البانجاب ، الذى تعد مدينة لاهوار أو لاهور أهم مدينة فيه •

(١٦) لا نقرأ عند أى مؤرخ وطنى (هندى) ، عن ذلك الفتح لدلهى على يد التتار المغوليين السابق لفتح تيمورلنك لها • ولكننا نعلم من كتاب تاريخ هندوستان ، على ما ترجمه داو عن نص فريشتا ، أن

معز الدين بيرام شاه ، ملك دلهى ، الذى بدأ حكمه فى ١٢٣٩ ، وانتهى فى ١٢٤٢ ، وقع فريسة لبعض المتاعب التى نشبت بينه وبين وزيره وكبار أمرائه ، الذين أثاروا فتنة بين جنوده ، وفى أثناء تلك الأزمـــة « وردت الأنباء أن مغول زنجيز (جنكيز) العظيم قد طرقوا لاهور ، وأن مالك ، نائب الملك بتلك الناحية ، حين وجـد جنده فى تمرد ، اضطر الى الفرار بليل ، وانه كان قادما فعلا الى دلهى ، وأن الأعداء نهبـوا لاهور ، وأن الأهالى المساكين اقتيدوا أسرى » · « وفى الحين نفسه ، تقدم الوزير بالجيش على العاصمة ، التى ألقى عليهـا الحصار ثلاثة أشهر ونصف · حتى اذا انتشر العصيان فى خاتمة الأمر بين صفوف المواطنين المدنيين ، سقط المكان فى عام ١٢٤١ · وألقى السلطان بيرام فى السجن حيث انتهت حياته فى مدى بضعة أيام نهاية فاجعة · وبعد أن نهب المغول الولايات الواقعة على ضفاف الفروع الخمسة لنهـــر الاندوس (السند) عادوا أدراجهم الى غزنه » وهكذا ترى انه فى نفس المدة المطروحة ، وهى التى سبقت أو تلت قليلا وفاة جاغتاى فى ١٢٤٠، فان جيشا من المغول تقدم فعلا الى ولايات تابعة لملك دلهى ، ونهب مدنه الواقعة على التخوم ·

(١٧) من بين معـانى الكلمـة السنسكريتية كارانـا ، « الشخص المخلط السلالة » ، (والخلاسى فى العربية هو المخلط بين الجنسين : الأبيض والأسود) ·

(١٨) كان الاعتقاد بوجود تلك القدرات الخارقة للطبيعة نقطـــة الضعف الشـائعة فى العصـور المظلمة · ومـع أن المظهـر والتاثيرات تختلف اختلافا ماديا ، فربما أمكن اشتمام أن هناك بعض العلاقة بين قصـة الضباب هذه التى ينتجها السحر ، وخداع البصر الذى لحظـه الفنستون ، أثناء رحلاته عبر ما يمكن اعتباره امتدادا لنفس الصحراء ، رغم تقسم أجزائها بواسطة الاقليم الذى يتخذ فيه السند مجراه · فهو يقول : « دهش كثير من الناس قرب حلول المساء لظهور بحيرة طويلة تشمل جزائر صغيرة جديدة ·· على أن هذا لم يكن الا احد تلك الأوهام الخادعة التى يسميها الفرنسيون ميراج ، ويسميها الفرس السروب (أى السراب بالعربية) · وقـد خيل الى أن مرد هذه الظاهرة بخار رقيق (أو شيء يشابه البخار) يشاهد فوق الأرض فى جو الهند الحار ، ولكن هذا المظهر كان مخالفا تماما لذلك ، وعند النظر على امتداد الأرض ، لم يكن المرء يرى أى بخار أطلاقا ·· ولن أحاول تعليل هـذه الظاهرة ، وانما سأجتزىء بملاحظة انه يبدو أن ذلك لا يوجد الا فى الأماكن المستوية الملساء الجافة » · ـ انظر : Account of Caubul ص ١٦ ·

(١٩) ربما لم تصل القصة الى أكثر من أن هؤلاء اللصوص ، وقد ركزوا أنفسهم في منطقة الجبال المجاورة ، استغلوا فرصة وجود الضباب الكثيف ، ليقوموا بهجماتهم على القوافل آمنين ، وذلك على حين مكنتهم معرفتهم بالبلاد من احتلال تلك الخوانق الضيقة التى لا مندوحة للمسافرين من اختراقها ٠

(٢٠) لا يمكن العثور الآن فى خرائطنا على قلعة كونسالمى أى ذانى سليم فى قراءة أخرى ولكن مما يجوز ملاحظته أن لفظة خان السلام الفارسية معناها « الدار الآمنة » أو « دار السلام » ٠ يقول ألفنستون :

« ان برجا صغيراً ولكنه أنيق كان يشاهد فى هذا الممر (المخترق للصحراء) ، وقد أبلغنا أنه ملاذ يلجأ اليه المسافرون اتقاء لشر العشائر الناهبة التى تعيث فساداً فى طريق القيروانات (القوافل) » ٠ ص ١٧ ٠

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) « يقال انه يوجد بالجبال القريبة من هرمز ، أرض زراعية وماشية وفيرة ومعاقل جمة · ولكل جبل شيخ ، ولهم جعل من السلطان أو الوالى ، ومع هذا فهم يعيشون فى طرق كرمان ، والى حدود فارس وسجستان · وهم يرتكبون سرقاتهم راحلين ، ويقال انهم من أرومة عربية ، وانهم جمعوا ثروة طائلة » · ترجمة ر· أوزلى (للملك والممالك) لابن حوقل ص ١٤٠ ·

(٢) كانت مدينة أرموز أو هرمز الأصلية تقع على الشاطىء الشرقى للخليج الفارسى ، بولاية موجوستان · ومملكة كرمان · ومن الواضح أن ابن حوقل ، فى حوالى النصف الثانى من القرن العاشر يتحدث عن هذه المدينة القائمة على البرالاسيوى حين يقول : « ان هرمز هى سوق كرمان وملتقى تجارها وميناؤهم الرئيسى : وبها المساجد والأسواق ويقيم التجار فى ضواحيها » ص ١٤٢ · ودمرها أحد الأمراء الذين كانوا يحكمون فى كرمان ، من الأسرة السلجوتية حسب بعض الروايات ، أو المغول حسب بعضها الآخر · ولكن لم يتم تحقيق التاريخ المضبوط لذلك بصورة مرضية · وعند ذلك انتقل السكان بكل ما غلا ثمنه من ممتلكاتهم الى جزيرة جيرون المجاورة ، وهى تبعد حوالى ثلاثة عشر ميلا جغرافيا عن الموقع السابق ، حيث وضع الأساس لمدينة هرمز أو أرموز الجديدة ، التى قدر لها أن تحرز شهرة أعظم كثيرا من سابقتها ، وان اتصف موقعها الجديد بمساوىء نقص الماء ، والتربة المشبعة بالملح والكبريت · ويصف أبو الفداء ، الذى كتب فى مطالع القرن الرابع عشر ، وكان معاصرا لمؤلفنا ، المدينة الجزرية (الجديدة) واستولى البرتغاليون ، بقيادة الفونسو البوكرك الذائع الصيت ، على هذه الجزيرة من أمرائها الوطنيين فى ١٥٠٧ · يقول روبرتسن : « وما لبثت هرمز وهى فى أيديهم ، أن أصبحت السوق العظيمة ، التى كانت الامبراطورية الفارسية ، وجميع ولايات آسيا الى الغرب منها ، تمون منها بمنتجات الهند ، وتحولت المدينة التى بنوها على تلك الجزيرة القاحلة المفتقرة الى الماء ، الى مركز من أعظم مراكز الثروة والفخامة والترف فى العالم الشرقى » انظر : Hist. Disquisition ص ١٤٠ · ثم استخلصها منهم شاه عباس فى ١٦٢٢ بمساعدة أسطول انجليزى ·

وهدم ذلك الفاتح تحصيناتها وغيرها من المبانى العامة الاخرى وسواها بالارض • ونقلت تجارتها الى مكان على الشاطىء المجاور اسمه جامبرون ، أطلق عليه اسم بندر عباس • ولكن فى الوقت نفسه عمل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح للسفر فى أوربا ، على تحويل التجارة العامة الى مسار آخر ، وما لبثت التجارة التى استمرت عن طريق الموانىء القائمة على الخليج الفارسى أن اضمحلت سريعا • وفى عام ١٧٦٥ الذى زار فيه نيبور تلك الجهات ، كانت الجزيرة التى تقوم عليها هرمز ملكا لشخص كان يعمل فى الخدمة البحرية لنادرشاه ، كما أن المكان أصبح عديم الوزن تماما •

(٣) لا بد أن المعنى المقصود من هذا أن هرمز فاقت المدن الأخرى ثراء ورغدا بل ربما عدد سكان أيضا ، على أن سرجان أو سرجان ، المسماة كرمان ايضا ، كانت عاصمة الاقليم الذى نسميه بذلك الاسم ، وبها كان يقيم الوالى •

(٤) ورد فى قائمة سلاطين هرمز التى خلفها تكسيرا فى ترجمته لحوليات طوران شاه ، من يسمى ركن الدين محمود ، ومع أن التواريخ بعيدة كل البعد عن الدقة ، فان فى الامكان الظن بأنه حكم فى نفس مدة زيارة مؤلفنا للخليج ، الفارسى ، وأنه هو الأمير المسمى هنا ركمدين أتشوماك • وواضح أن الاسم الثانى مقصود به لفظة أتشمت ، وهى الطريقة التى شاعت بها خطأ كتابة اسم أحمد • ومن المعلوم أن المؤلفين الشرقيين كثيرا ما يقعون فى الأخطاء بالخلط بين الأسماء الثلاثة أحمد ومحمد ومحمود •

(٥) ليس هناك سجل لملوك كرمان يمكن تتبعه الى أبعد من عام ١١٨٧ ، عندما قام ملك دينار ، من عترة على (وهو سيد شريف) ، بطرد آخر أمراء السلاجقة واستوى على العرش • ولكن لابد أنها أصبحت ثانية فى عهد هولاكو وخلفائه ، الذين فتحوا بلاد فرس فى القرن التالى وأسسوا أسرة مغولية مالكة ، ولاية أو اقطاعا من تلك الامبراطورية ، يحكمها (شأنها فى هذه الأيام) فرع من الأسرة الحاكمة • وينبؤنا ده باروس (Decade II, Liv. II, Cap. 2) ان ملكا أو شيخا لهرمز (بمنطقة موجوستان على أرض القارة) حصل من جاره ملك قايز ، على تنازل عن جزيرة جيرون ، الواقعة قرب نصيبه من الشاطىء ، وأسس بها هناك قوة بحرية بقصد التحكم فى المضايق ، بحيث انه عندما نشبت حرب ، بسبب هذا الاستيلاء ، أصبح سيدا على جزيرة قايز (Kâez) أيضا • وان ملك فارس (أو حاكم كرمان بمعنى آخر) ، الذى اعتاد الملك أن يدفع له الجزية ، سير جيشا على

موجوستان وأرغم ملك هرمز على التخلى عن مدينته الواقعة على القارة واللجوء الى جزيرة جيرون ، التى أسس بها مدينة هرمز الجديدة ، وانه حين قبل الاعتراف بتبعيته الاقطاعية وايتاء الجزية (وهى نصيب مفروض من الضرائب المجباة من السفن) الى ملك فارس، سمح له الأخير بامتلاك الجزيرتين كلتيهما . وانه استمر فى حكم دياره الجديدة ثلاثين عاما ـ وعلى ذلك فان الظروف التى أوردها ده باروس على ـ ما ترى ـ تتفق فى نواحيها المادية مع ما رواه مؤلفنا فى هذا المكان ، وبوجه أخص فى الكتاب الثالث الفصل الثالث والأربعون ، على أن المؤرخ البرتغالى يرجع جميع التصرفات الى عهد جوردان شاه بمفرده ، فيما يقول ، وهو الذى حصل على التنازل عن جيرون فى ١٢٧٣ ، والذى مات فى ١٣١٨ حسبما تروى قائمة تكسيرا ـ وفيها يسمى عز الدين جوردان شاه · ومع هذا فان هناك من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأنه انما يضيف لذلك الحكم امتداداً لا أساس له ، وأن الحوادث الأولى التى يدور الحديث عنها انما تنتمى الى عهدى سيف الدين وركن الدين ، وهما فى الراجح والد ذلك الأمير وجده ·

(٦) من المعروف أن هذا الحق الفظيع كان يمارس فى أوربا ، فى أزمنة حديثة جدا ، تحت اسم حق وراثة الآجنبى (droit d'aubaine)

(٧) ان الريح الحارة المعروفة فى ايطاليا باسم السيروكو ، وفى أفريقيا باسم الحرمتان ، كثيرا ما وصفها الرحالة · وربما كانت آثارها أعنف ما يكون فى صحارى جنوب فارس · يقول بوتنجر : « غالبا ما تكون الرياح بهذه الصحراء حارقة (أثناء الشهور الحارة من يونية الى سبتمبر) بحيث تقتل أى شىء حى ، قد يتعرض لها ، حيوانا كان أو نباتا ، وعندئذ يعتبر الطريق الذى سافرت فيه مستحيل العبور · وتعرف هذه الريح بكل مكان من بلوخستان بأسماء مختلفة منها الجيلوت أو الجيلوه (أى اللهب) وبادى سموم (أى الريح الوبيئة) · وهى ذات طبيعة فاحشة القيظ بحيث عرف عنها أنها تقتل الجمال أو غيرها من الحيوانات القوية الاحتمال ، كما أن آثارها فى الجسم البشرى قد أبلغنا عنها من شاهدوها رأى العين ، بأنها أشنع ما يمكن تصوره : فتتصلب عضلات الشقى الذى ينكب بها وينقبض ، ويتغضن الجلد ، ويعم جسم المرء كله ، ألم مبرح ، كأنما يشوى على النار ، ثم اذا هو يتشقق فى آخر المطاف محدثا جروحا غائرة ، تسبب نزيفا ، يختم هذا الشقاء سريعا » · ص ١٣٦ ·

(٨) عن ممارسة هذا الانغماس فى الماء ، لدينا شهادة بييترو دللافالى ، الذى اتفق وجوده بخليج فارس أثناء حصار هرمز وزار

الجزيرة فور سقوطها فى أيدى الفرس • فهو يكتب فى رسالته المؤرخة ١٨ يناير ١٦٢٣ :

« comunemente si stima la più calda terra del mondo ... E mi dicono, che in certo tempo dell'anno, le geti di Hormur non poterbberi vivere ».

ومع أن الأمر لا يحتاج الى مزيد من شهادة فانى سأقدم شهادة شلنجر ، وهو رحالة سوابى (swabian) ذكى الفؤاد ، زار تلك البلاد فى عام ١٧٠٠ وزودنا بوصف لهرمز وجامبرون :

« Wann die grosse Hitze einfallet », legen sich die Innwohner den gantzen Tag durch in darzu bequemte wasser-troge.

انظر : Persianische Reis ص ٢٧٩ .

(٩) وفيما يتعلق بحالة الأجسام ، مهما بدت أحوالها غير مألوفة فى نظرنا ، فانها كلها قد عززها شاردان كل التعزيز ، الذى قال متحدثا بدوره عن تلك الريح : « ان اثرها وهو أشد ما يكون بعثا للدهشة ليس حتى مجرد ما تسببه من موت ، وانما هو أن الأجسام التى تمـــوت بسببها تبدو كأنما هى متحللة ، دون أن تفقد مع ذلك شكلها ولا حتى لونهـــا ، حيث ان الانســـان قـــد يقول انهم ليسوا الا نياما ، وان كانوا موتى ، وأنه لو أمسك المرء بعضو منهم ، لانخلع العضو وظل فى اليد » • ثم ينطلق بعد ذلك لاضافة بعض الحقائق الجديدة ـ اثباتا لأقواله ـ الجزء الثانى ص ٩ •

● هوامش الفصل السابع عشر

(١) لا نعرف الا القليل عن السفن المستخدمة بالخليج الفارسى قبل فتح البرتغاليين لهرمز ، ومنذ تلك المدة أحدث تأثير هؤلاء وغيرهم من الأوربيين والتمثل بمثالهم ، أثراً كبيراً فى نظام الملاحة الفارسى ، ومع ذلك فان البيان الذى أورده مؤلفنا يتفق فى كل تفصيلة مهمة مع نوع السفن التى وصفها نيبور · وتلك أيضا هى الزوارق المستخدمة فى الوقت الحاضر على ساحل كروماندل ، وهى الزوارق التى يسميها الفرنسيون بالشلنجات ويسميها الانجليز زوارق الماسولا ، وهى التى يصفها لوجانتيل على النحو التالى : « ان القوارب التى تستغنى عن هذه القضبان تسمى بالشلنجات ، وهى تصنع خصيصا ، وهى ألواح يوضع الواحد منها فوق الآخر ، ويخاط الواحد منها فى الآخر ، بخيط مصنوع من الليف الداخلى الخشن لشجرة جوز الهند ، ثم تقلفط الخياطات بالمشاقة المصنوعة من نفس الليف (أو القلافة) ، ثم تحشر حشرا قويا بغير مهارة بسكين غير حادة · وقاع هذه القوارب مسطح بشكل سطحها ، وهذه القوارب لا تكاد تكون أكثر طولا منها عرضا ، ولا يدخل فى صنعها مسمار واحد » · انظر (Voyage ج ١٠ ص ـ ٥٤٠) وهذا الفتل المصنوع من الليف أو الحسك الليفى لجوز الهند (وليس من لحاء الشجرة كما ظن السيوم لوجنتيل) ، مشهور بالهند باسم « الكوار Coire » ، كما أنه يصنع حبالا لتوجيه أجهزة الصوارى والقلوع والكابلات ·

(٢) ينبغى أن يلحظ أن السفن Praws العديدة التى تمخر بحار الشرق الأقصى ، تدار عادة بدفتين أو كاموديين (Kamûdis) وان هذه السفنكانت فى الآونة الأخيرة موضع ملاحظة مؤلفنا أثناء رحلته الى مضيق ملقا ·

(٣) كذلك شأن سفن الملايو أو جرت العادة أنها هى أيضا لا تزود بمراس حديدية ، وهى التى أعتقد أنها المقصودة من كلمة « Ferri di sorzer » ، وان لم نعثر على ذلك المصطلح فى المعاجم العامة ولا البحرية · فمراسيها مصنوعة من خشب قوى وثقيل ، وليس

لها الا ذراع واحد أو مخلب واحد ، كما أنها تغطس فى الماء بواسطة أحجار ثقيلة تربط بها ·

(٤) وربما لا نتوقع أن يزرع القمح فى مثل هذا الجو الشديد الحرارة ، بيد أن هذه الواقعة مؤكدة تماما ·

(٥) ان ما سمى عادة باسم خمر النخيل (أو التودية (Toddy انما هو شراب مستخلص من أشجار من فصيلة النخلة ، وذلك بقطع الفسيلة للاخصاب وشد وعاء الى الجزء المجروح يستقطر فيه الشراب ، ولكننا نسمع أيضا عن شراب مسكر ، يجهز من البلح الناضج ، بنقعه فى الماء الساخن حتى يحدث له تخمر مسكرى · ويقول بوتنجر ، وهو يتحدث عن شعب مكران (المجاورة لولاية كرمان) ، : « وهم يشربون كذلك مقادير ضخمة من مشروب مسكر ، يصنع من البلح المخمر ، وهو شراب لابد أن له آثارا ضارة جدا » · ص ٣٠٦ · وفى كتاب الصعود (Anabasis) لازينوفون ، ما مفاده أن الاغريق وجدوا هذا الشراب فى قرى بلاد بابل ·

(٦) ان هذه المناحات المفرطة ، الشديدة الانتشار ببلاد الشرق ، وغير المجهولة ببعض أجزاء أوربا ، فضلا عن عادة تأجير النادبات المحترفات ، كثيرا ما وصفها الرحالة · يقول شاردان : « ان النساء بوجه خاص ، يندفعن الى ابداء المسرف من التهوس والحزن البالغين ، ويخلطن بها شكاوى طويلة ومراثى رقيقة وأليمة · وعبارات حزينة موجهة الى الجثة الهامدة » (ج ٢ ص ٣٨٥) · ويقول فراير : « ان من المعتاد ، تأجير ندابين · وتذهب الأرملة الى القبر كل شهر مصحوبة بمعارفها لتكرر اللحن الحزين » Account of East India and Persia ص × ٩٤) · وربما جاز أن نقرر أن مدة الحداد وردت فى النسخ اللاتينية الأولى والنسخ المبكرة الأخرى على أنها أربع سنوات بدلا من أربعة أسابيع ·

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) ان كويبام (وهى جوبيام فى النسخة اللاتينية الأولى وكوبينام فى غيرها) هى كابيس لى دانفيل وخابيس عند الادريسى وخبيص (بضم الخاء وفتح الباء وتسكين الياء) عند ابن حوقل وخوبيس عند بوتنجر . يقول ابن حوقل : « ان خبيس بلدة على حدود هذه الصحراء فيها المياه الجارية والنخيل . وبينها وبين دوراك مرحلة واحدة . وعلى امتداد هذه المرحلة وعلى مدى البصر ، يتشح كل شىء بمظهر الخراب والاقفار ، وذلك لانعدام كل أثر للماء . « انظر المسالك والممالك (ترجمة أوزلى جى ١٩٩) ويقول بوتنجر : « انها كانت زاهرة فى سالف الزمان ، وكانت دار حكم لبكلاربيك (أمير أمراء) من جانب أمير سيستان ، ولكنها الآن مكان تعس خرب كما أن سكانها لصوص ومنبوذون سيئو السمعة يعيشون على الاغارة على الطرق الرئيسية المؤدية الى خراسان وفارس ونهب القوافل » . ص ٢٢٩ .

(٢) الينابيع الملحة والسهول المكسوة بالملح ، التى لقيها بوتنجر فى كرمان والمناطق المجاورة يدور الحديث عنها على النحو التالى : « عبرنا نهراً من الملح السائل يبلغ من عمقه ما يصل الى ركب حصانى ، وكان سطح السهل مغطى تماما الى مسافة بضع مئات من الياردات على كل من الجانبين بطبقة سميكة من الملح الأبيض ، تشبه شؤبوبا من ثلج متجمد كان يقعقع تحت سنابك الحصان » . (ص ٢٣٧) « تمتلىء جميع جبال كوهستان هذه بالمنتجات المعدنية ، فتوجد فى كثير من الأماكن غدران من الملح السائل ، وبرك من الماء عليها زبد يشبه النفط أو البتومين (bitumen) ، توجد قرب بحر قزوين » . (ص ٣١٢) : « وهناك سلسلة تلال على الطريق الممتد من كيلات الى كتش جندافا يستخرج منها نوع من الملح أحمر اللون تماما له خواص ملينة كبيرة جدا . ويمكن الحصول على الكبريت والشبة من نفس المكان » . (ص ٣٢٣) ويبدو من آثار ملح هذه الصحارى أنه يحتوى على سلفات المانيزيا ، كما أن اللون الأخضر الذى لحظه مؤلفنا ربما كان راجعا الى وجود خليط من سلفات الحديد .

(٣) يقول ابن حوقل : « تحد صحراء خراسان فى الشرق قسما

من حدود ولاية مكران وقسما من سيستان ، وتتاخمها فى الجنوب كرمان وفارس ، وجزء من حدود أصفهان ·· وهذه الصحراء تكاد تكون كلها يبابا خالية من السكان · فهى مباءة اللصوص وقطاع الطرق . ومن أعسر الأمور أن يعرف المرء طريقه فيها بغير دليل ولا يستطيع المرء أن يمضى الا عبر المسالك المعروفة تماما (ص · ص ١٩٢ ـ ٤) ·

(٤) ربما كان مكان الاستراحة والانتعاش هذا هو « شور » الذى يسميه ابن حوقل نهرا من الماء فى الصحراء على الطريق الذى يبدأ فى الجانب الكرمانى · وهو يقول فى موطن آخر ، انه على مسيرة يوم واحد من دوراك ، ويصفه بأنه مجرى ماء عريض من مياه الأمطار · ولكنه لم يبد التفاتا الى مروره تحت الأرض ، وتبعا لذلك لا يجوز الاصرار على صحة هذا التعرف ، وان لم يكن فى جريان الأنهار تحت الأرض شىء غير عادى كثيرا ·

◎ هوامش الفصل العشرين

(١)ذكرنا في الهامشة الرابعة ، سببا لظننا أن المقصود من كلمة اندانيكوهو الأنتيموني الذى جاء عند شاردان وآخرين غيره ، أنه موجود بالاقليم الفارسى الذى يدور عنه الحديث هنا ، ولكن تأسيسا على الطريقة التى تصنع بها التوتياء والاسبوديوم والتى وصفت بهذا الوجه الخاص فى هذا المكان ، يحق لنا أن نستنتج أن اللابيس كالاميناريس ، أعنى الزنك ، هو السلز الذى يطلق عليه مؤلفنا هذا الاسم ، أو بعبارة أصح الاسم الذى جاء اندانيكو تحريفا له • ولست أدعى القدرة على الحكم الى أى مدى يمكن أن تؤدى خواص الأنتيمونى أو الزنك ، الى تعريض الناس للخلط بينهما ، ولكن يبدو أنه تقوم فى هذه النقطة درجة ما من عدم التأكد ، ربما اتخذت عذراً لمؤلفنا ، ان هو ظن أن الانتيمونى لا الزنك ـ كان يستخدم فى صناعة التوتياء • يقول بونتيوس : ان التراب الأرجيلى (الصلصالى) الذى تصنع منه التوتياء ، يوجد بمقادير كبيرة فى الولاية الفارسية المسماة كيرمون ، كما أبلغت كثيراً على لسان تجار من الفرس والأرمن »

(Account of Diseases' Natural Hist. etc., of the East Indies).

(الفصل ١٣ ص ١٨٠) • ويتحدث بوتنجر فى (يوميات رحلاته عبر بلوخستان نحو كرمان) ، عن دار قوافل (قيروان سراى) تسمى «سورموسنج» أى حجر الأنتيمونى ، وهو اسم يستمده المكان من المقادير الهائلة من ذلك الفلز التى تجمع من المنطقة المجاورة له » • (ص ٣٨)• ولذا فان مما لا سبيل الى الملاحاة فيه ، فى ظنى ، أن قطرة العيون التى يكثر استخدام الشعوب الشرقية لها ، والتى يسميها الفرس « سورميه »، ويسميها أهالى الهندستان انجان أو انجون ، أساسها هو التوتياء ، ولكنك لو رجعت الى المعاجم الفارسية والهندوستانية لوجدت أن كلمتى سورميه وانجان هما أيضا الاسمان اللذان يطلقان على الاثمد (الانتيمونى) • ومهما تكن التسمية الصحيحة ، فانه محق وصائب من الناحية المادية على الأقل فى ذكره أن التوتياء المستخدمة قطرة للعيون أو مرهما رمديا ، تجهز من مادة فلزية توجد فى ولاية كرمان •

(١) أظهرنا من قبل أن تيموكاين أو تيموشاين الواردة فى نصنا هذا ليست سوى دمغان ، وهى مكان له أهمية ضخمة يقع على التخوم الشمالية الشرقية لفارس ، وتقع الى شمالها هركانيا القديمة التى تفصلها عنها سلسلة من الجبال ، والى الشرق منها ولاية خراسن ، وولاية كوميس الصغيرة ، التى هى حاضرتها وذلك بالاضافة الى الصحراء الملحة الى الجنوب • وكان أن عسكر فى هذه المنطقة المجاورة غزان بن ارغون ، وارث عرش فارس ، الذى كان يشغله آنذاك عمه ، (عسكر) بجيش ليحرس ممر خوار المهم المسمى بالبوغاز القزوينى ، فى المدة التى وصلت فيها أسرة بولو من بلاد الصين ، واليها أمروا بالتقدم ليسلموا إلى يديه وديعتهم النفيسة وهى أميرة من بيت قبلاى •

(٢) يبدو أن هذه الشجرة التى أطلق عليها اسم الشجرة الجافة ، نوع من الزان ، (Fagus) ، ولنها تتصف ببعض صفات القسطل (الكستناء) • ولكن لنا من الفقرات المتنوعة التى كتبها كتاب حدث عهدا ما يبرر أن نعد المقصود منها هو ضربا من شجر الدلب • ويظهر أن لفظة جافة لا تدل على شيء أكثر من هذا : وهو أنه عندما يؤذن شكل العلبة بقسطلة قابلة للأكل ، يصاب الغريب الذى يجمعها بخيبة الأمل ، اذ لا يجد فيها أية محتويات يستطيع امساكها ، أو يجد سقط بذرة جافة لا طعم لها •

(٣) دارت رحى آخر معركة بين الاسكندر وداريوس قرب أربل أو اربيلا ببلاد الكردستان ، عن غير بعيد من نهر دجلة ، ولكن الذى حدث فى أثناء العمليات التالية ، ان ملك فارس المنهزم جرى تتبعه من اكباتانا (همدان) عبر البوغاز القزوينى أو ممر خوار ، الذى اخترقته جند الاسكندر بغير مقاومة الى ولاية كوميسين (كوميس) التى كانت هيكاتوميلوس (التى يظن انها دمغان) حاضرة لها • ولم تتوقف المطاردة حتى لقى العاهل التعس حتفه على يد رعاياه غير بعيد من المدينة الأخيرة ، بينما تقدم الاسكندر نفسه بطريق أسرع ولكن ذلك التقدم تم عبر بيداء يعوزها الماء تماما • والروايات التاريخية المتداولة حول الفاتح المقدونن تكثر بوفرة فى هذا الجزء من البلاد •

(٤) لحظ كثير من الرحالة منهم أولياريوس وشاردان . اعتـدال المناخ وعدم صحيته المفرطة في الحين نفسـه على امـتداد الشـاطىء الجنـوبى لبحـر قزوين ، على أن المنطقة المحيطة بدمغـان التى يـدور حولها الحديث هنا ، تنفصل بسلسلة جبلية عن منطقة المستنقعات الممتدة من استر أباد وقره أباد (وهما المكانان اللذان كان يزورهما الأوربيون بوجه رئيسى أثناء حكم شاه عباس الذى كثيراً ما كان يعقد بلاطـه فيهما) ـ وتشغل اقليما أشد ارتفاعا بكثير .

⊙ هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) لا مراء أن التسمية ذائعة الصيت فى تواريخ الحروب الصليبية . وهى « رجل الجبل الهرم » ، انما هى ترجمة غير موفقة للقب العربى « شيخ الجبل » الذى معناه « رئيس المنطقة الجبلية » . ولكن لما كانت لفظة « شيخ » شأن لفظة سنيور وبعض المصطلحات الأوربية الأخرى ، تحمل معنى « الأسن » فضلا عن معنى « المولى » أو « الرئيس » عرض (على الأوربيين) مفاضلة للاختيار بين التفسيرات فوقع أختيارهم على أسوئها وأقلها مناسبة لمقتضى الحال . وكانت الأماكن التى كانت تلك الشخصية تمارس فيها حقوق السيادة وهو رئيس لشيعة دينية أو متعصبة هى قلاع الأموت ولمسير وكيردكوه وميمون ديز وناحية رودبار ، وكلها تقع داخل حدود تلك الولاية التى يسميها الفرس كوهستان ويسميها العرب الجبال (وهى بلاد العراق العجمى شرقى أذربيجان منها بالقرب من قزوين قلعة الأموت . وكانت قصبة الحشاشين أو الاسماعيلية : (٤٠ هـ) عن المنجد . يقول ده ساسى فى Mémoire sur la Dynastie des Assassins, etc. « ان موقع الأموت فى وسط منطقة جبلية هو الأصل فى تسمية الأمير الذى يحكم بها باسم شيخ الجبل أى أمير منطقة الجبال والالتباس فى كلمة شيخ التى تدل فى الوقت نفسه على الرجل المسن والأمير أدى الى أن سماه مؤرخو الحروب الصليبية والرحالة الشهير ماركو بولو باسم « عجوز الجبل » .

(٢) ان هذا التطبيق الصحيح للفظة ملحد العربية يعد واحدا من الأدلة الكثيرة التى لا يرقى اليها شك عن اتصال مؤلفنا بالأحداث ، كما أنه لا بد أن يكون كافيا لازالة كل شكوك تداخل كل مستطلع عليم وصريح حول موضوع معرفته بأمور الشرق . وأنا لنجد تحت عنوان « ملاحدة » فى « Bib. Oriental » الذى ألفه ده هربيلوه : (أنها جمع كلمة ملحد ، ومعناها المجرد من التقوى ، أى الرجل الذى لا دين له) . و « ملاحدة كوهستان » معناها : كفرة الجبل وهكذا كان يسمى الاسماعيلية الذين حكموا بلاد ايران وبخاصة فى الجزء الجبلى من فارس » . وهذه الصفة الدالة على الازدراء أطلقها المسلمون السنيون على طائفة الاسماعيلية المتعصبة أو الباطنية أو كما يسمون أنفسهم الرفاق أى الأصدقاء ، الذين أزدهروا تحت رياسة مغامر اسمه الحسن

ابن الصباح ببلاد فارس حوالى عام ١٠٩٠ أثناء حكم ملك شاه جلال الدين ثالث ملوك الأسرة السلجوقية • وانهم فيما يتعلق بالمتســمين الرئيسيين للعقيدة الاسلامية السياسية كانوا يعلنون انهم ينتمون الى الشيعة أو الرافضة (كما يسميهم خصومهم) الذين يؤمنون بانحصار الحق الشرعى فى الامامة (الخلافة) فى سلالة على • ويبدو أن شعائرهم الخاصة ذات صلة بشعائر القرامطة الأقدم منهم زمنا وبالوهــابيين المصريين •

(٣) يعرف أفراد طائفة الباتارينى (Paterini) عند المؤرخين الأوربيين بوجه أعم بأسماء الوالدنسيين (Waldenses) والالبيجنسيين (Albigenses) كمــا يعرفون عنــد الــكتاب الفرنسيين باســم البيماتلان أو الباتيلان •

(٤) لقى علاء الدين الأمير الاسماعيلى مصرعه بعد حكم طويل قرب نهاية عام ١٢٥٥ ، وخلفه ركن الدين بن عــلاء الدين الذى لم يحكم سوى سنة واحدة فقط قبل تدمير سلطانه فى الظـروف التى يمضى مؤلفنا فى سردها • ومن ثم فهو على صواب حين ينسب الأعمال التى أثارت غضب العالم الى الأمير الأول • ولكن لا يظهر انه أدرك أن الابن هو الذى وجه اليه هجوم المغول (المغل) وان كان الواقع أن الحملة لا بد أنها جردت على علاء الدين الوالد نفسه •

(٥) كانت هذه القصة موضع الاعتقاد السارى بين سكان آسيا . الذين يبدو أنهم رأوا من الضرورى نسبة أسباب خارقة لذلك التأثير المدهش حقا الذى يتجلى فى الاخلاص المطلق لهؤلاء المتحمسة الدينيين نحو ارادة سيدهم المستبدة • ولم يرد عند ماركو بولو اسم الحشاشين الذى يطلقه عليهم غيره من الكتاب •

(٦) لم أتمكن من العثور على أى أثر لمؤسسة الاسماعيليــة . بقيادة رئيس مستديم ببلاد الكرد ، وان كان عملاء أو مبعوثو الطائفــة (أى الفدائية) (Daïs) كثيراً ما يستخدمون هناك ، وان كانت لدينا شواهد كافية على وجود الحكومة التابعة للطائفة بسوريا والمذكورة هنا • (انظر ده ساسى فى Mémoire ص ٦٠ وده جنى (De Guignes) فى Hist. Gén, des Hons الكتاب السادس ص ٣٤٢) • وانى لأدقق أكثر فى ذكر هذه المراجع لكى أثبت تأكيداً لما يذكره ماركو بولو من أن الحكومة القائمة بفارس هى الحكومة الأصلية لتلك الطائفة وان أصبح الفرع السورى أشهر من الأصل فى أوربا ، كما أنه يبدو أن لقب « شيخ الجبل » أو « عجوز الجبل » كان يطلق بصفة عامة ان لم تكن قاطعة ، على شيوخ ذلك الفرع •

(٧) ان الظروف المحيطة بتدمير تلك الطائفة التى جعلت من نفسها كما رأينا فى الهوامش السابقة ، مملكة مستقلة ألم بهـا أبو الفرج (ابن العبرى) فى كتابه « مختصر تاريخ الدول » Hist. Dynast. ص ٣٢ ، فضلا عن غيره من الكتاب الشرقيين الذين يسجلون أعمال خلفاء جنكيز خان ، ولكن أحدا منهم لم يصل الى درجة التفاصيل التاريخية التى بلغها ميرخوند الذى ترجم بيانه عن الأسرة الاسماعيلية فى فارس وأصدره فى باريس ، مع النص الأصلى المسيو جوردان · أما فيما يتعلق بعام ١٢٦٢ ، الذى يحدده مؤلفنا على أنه بداية هذه العمليات ، فالواقع أنه لا بد أن تكون هناك غلطة فى ست سنوات تقريبا، وذلك لأن جميع المؤرخين يتفقون على أن حملة هولاكو على الملاحدة كانت سابقة لتلك المسيرة على بغداد ، والأخيرة معلوم بيقين كاف أنها جرت فى ١٢٥٨ · ولدينا فى الحين نفسه المرجع التفصيلى الثقة لميرخوند الذى يحدد موعد تدمير قلاع الملاحدة بعامى ١٢٥٦ و ١٢٥٧ · وربما صح لنا أن نلتمس العذر لماركو بولو عن هذا الخطأ وعما يماثله من عدم دقة على أساس أنه نظرا لأن الأحداث حدثت قبل بداية أسفاره بسنوات كثيرة ، ومن ثم فلابد أنه اعتمد على معلومات استقاها من الغير حول تواريخ تلك الأحداث التى ربما كان يجرى تعبيرها طبقا لطرائق حساب التاريخ التى كانت تحتاج الى عملية حسابية لتحويلها الى تقويم الحقبة المسيحية ·

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) من دمغان كان طريقه متجها نحو الشرق تقريبا ، أى فى اتجاه بلخ ويبدو أنه (امتد خلال جان جرم ونيسابور نحو ميـــرو الروض (Meru-ar-rud) على أن عدد أيام المسيرة قليل جدا كما هو واضح ، ما لم نتصور أنه سار بضعف سرعة القوافل العادية ، أى بسرعة اربعين ميلا كاملة فى اليوم الواحد ، وهو أمر أقل احتمالا من الذهاب الى أنه جرى هنا حذف لبعض المراحل ·

(٢) يقال ان اقليم خراسان الذى يمتد فيه الطريق ، سواء أكان من ألدموت أم من دمغان ، الى المكان الوارد ذكره بعد ، اقليم مسـتوى السطح بوجه عام ، تتخلله صحراوات رملية وسلاسل غير منتظمة من الجبال المرتفعة ·

(٣) من الضرورى جدا لتمام المعنى أن يكون المقصود من رحلـة ستة أيام من الجانب الشرقى للصحراء المذكورة ·

(٤) ان صحة اسم هذا المكان ، الذى قـد يظن أولا أن المقصـود به هو نيسابور ، أمر لا يتطرق اليه شـك · يقـول بتى ده لاكـــرواه ، مترجـم شريف الدين : « ان شبورجان ، مدينـة فى خراسان ، قـــرب جيحون وبلخ ، وتقع على خط طول ١٠٠° وخط ٤٥ و ٣٦° » · وهى تسمى فى جداول ناصر الدين التى نقل عنها الموقع المذكـــور انفا ، آشبركان ، وهى في خريطة دانفيل ، آشبرجان ، وفى خريطة استراهلنبرج شابورجا ، وفى خريطة مكدونالدكينابر سوبرجان ، وفى خريطة الفنستون شيبرجاون · ويتحدث عنها الكاتب الأخير بأنها تابعة لحكومة بلخ ·

(٥) يشيد جميع الكتاب الشرقيين بشهرة ولاية خراسان بجودة الفواكه ، والأهمية التى تضفى هنا على قاوونها (أو بطيخها الأصفر بلغة أهل الشام وشمامها بلغة أهل مصر) يساندها تماما شهـــادة شاردان (ج ٢ ص ١٩/٤) وعن قاوون خراسان انظر أيضا كتاب : « Relation de l'Egypte » الملحوظات ص ١٢٧ ·

(٦) تقع بالاتش او بلخ ، وهى باكتـرا الملكيـة ، عنـد بطلميوس الجغـرافى ، التى اطلـق اسمهـا على ولاية باكتريانـــا ، التى كانت

عاصمة لها ، قرب منابع نهر جيحون (OXUS) فى الطرف الشمالى الشرقى من خراسان • وهى واحدة من المدن الملكية الأربع لتلك الولاية ، وظلت مقرا للحكومة مرات أكثر من نيسابور نفسها أو هيرات أو مروشاهجان •

(٧) أمر جنكيز خان عندما استولى على المدينة قهراً من الخوارزميين فى ١٢٢١ ، بذبح السكان جميعا (كما ينبئنا بذلك مؤرخه أبو الغازى) كما أمر بأن تسوى الأسوار بالأرض • وفى ١٣٦٩ أخذها تيمور لنك من يد أحفاد ذلك الفاتح • واحتفظت بها أسرته حتى أجبرت على التنحى عنها للتتار الأوزبكية ، وظلت بعد ذلك موضع النزاع الدائم بينهم وبين الفرس • ويلاحظ ألفنستون : « تريم على جميع الآسيويين فكرة بأنها أقدم مدينة فى العالم ••• غير أن هذه الحاضرة القديمة الزاهرة قد أصبحت الآن عديمة الشأن • ولكن خرائبها لا تزال تغطى متسعا مترامىا ويحيط بها سور ، على أن ركنا واحدا منها هو الآهل بالسكان » (ص ٤٦٤) • ويصف مكدونالدكيناير البيوت بأنها مبنية من الطوب ، وقصر الخان بأنه مبنى فسيح مشيد كله من الرخام ، المجلوب من محاجر فى الجبال المجاورة •

(٨) المفهوم على وجه الجملة أن صفقتى زواج الاسكندر الفارسيتين من بارسين أو استاتيرا ابنة دارا ومن باريستاتس ابنة أوخوس ، تمتا بمدينة سوسا •

(٩) يقال انه فى زمن تدمير جنكيز خان لبلخ كانت المدينة تحتوى على ما لا يقل عن اثنى عشر ألف مسجد • وذلك وان كانت فيه مبالغة ، يدل على غلبة الاسلام على المدينة •

(١٠) نظرا لأن خراسان كثيرا جدا ما كانت تخضع لسلطان فارس وبخاصة أيام سلالة هولاكو ، الذين ملكوها فى المدة التى قام فيها مؤلفنا برحلاته ، فقد كان من الطبيعى أن يعدها جزءا مكملا للامبراطورية الفارسية • ونضيف أنه يصيب حين يذكر أن بلخ تقع على التخم الشمالى الشرقى • ويقول النص اللاتينى :

usque ad istam terram durant dominium domini de Levante.

(١١) يعدد شاردان الأسود بين حيوانات فارس الضارية ، وبخاصة فى ولايات الثغور (التخوم) • فهو يقول : « حيثما وجدت الغابات ، كما هو الحال فى هركانى وكردستان ، يوجد كثير من الحيوانات المتوحشة ، الأسود والدببة والببور والنمور والشيباهم والخنازير البرية » • (ج ٢ ص ٢٩) •

هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) سيتضح للقارىء على نحو أخاذ صحة البيان عن مدينة تايكان أو تايكان (وكتبت كايكام فى المخطوطات وفي الخلاصات الايطالية تايثام) التى تقع بين منابع نهر جيحون (وهو الاسم القديم لنهر أوكسوس أو أموداريا) . يقول ابن حوقل : « ان أعظم مدينة فى طخارستان هى : (تايكان) التى تقع فى سهل على مقربة من الجبال. ويرويها نهر عظيم وبها كثير من البساتين والحدائق (ص ٢٢٤) . وتفصل بين تايكا وبداكشان مسيرة سبعة أيام (ص ٢٣٠) انظر أيضا أبو الفداء . ويفرق هذان المؤلفان بوضوح بينهما وبين مكان اسمه طالقان التى تقع جنوب غربى بلخ قرب مرو الروض وتقوم على صخرة شديدة الانحدار ، ولكن الادريسى يطلق على الأولى اسم طالقان وتابعه فى ذلك الجغرافيون العصريون وبخاصة دانفيل الذى ورد الاسمان فى خريطته بنفس الحروف ، يقول الملازم مكارتنى ، متحدثا عن روافد نهر جيحون التى تقع عند ملتقاها (تاليكان) أو (تايكان) : « يمتد مجراها فى اقليم جبلى ولكنه يحتوى على أودية مفرطة الثراء والخصب وتنتج كل أنواع الفاكهة بأعظم وفرة » . — انظر الفنستون « Acc. of Canbul » الملحق ص ٦٥٠ .

(٢) يوجد هذا النوع من الملح الصخرى الصلب فى ارجاء عديدة من البلاد ، ويصفه شاردان كالتالى : « يستخرج الملح فى ميديا وأصفهان من المناجم ، ثم يحمل فى كتل ضخمة مثل الحجر السهل الكسر . وهو بالغ الصلابة فى بعض الأماكن مثل الموجود فى صحراء كرمان ، حتى لتستخدم كتله الحجرية فى بناء منازل الفقراء » . (ج ٢ ص ٢٣) ويقول الفنستون متحدثا عن كان يقع فى بلاد الأفغان : « ان الطريق الذى يلى ذلك المكان شق فى الملح الصلب عند سفح جبال من ذلك الفلز ، تعلو فى بعض الأماكن أكثر من مائة قدم فوق سطح النهر . والملح بها صلب صاف يكاد يكون نقيا » . انظر : Acc. of Canbul ص ٣٧ .

(٣) يعدد شاردان اللوز والفستق كليهما بين منتجات المناطق الشمالية والشرقية من فارس : « ينمو الفستق فى منطقة قزوين

وما حولها ٠٠ ولديهم فوق ذلك اللوز والبندق الخ ٠٠ ويتم تصدير أعظم مقدار من الفواكه من مدينة يزد » ٠ (ج ص ٢١) ٠

(٤) اجتاح هذا الاقليم منذ تلك الأيام جنس آخر من الناس ٠ يقول ألفنستون : « عبر الأوزبك نهر سيحون لأول مرة قرب بداية القرن السادس عشر . واذ انهمروا انهمارا على الممتلكات التابعة لأحفاد « تيمور لنك الذين كانوا فى حد ذاتهم غزاة مغيرين ، فانهم سرعان ما أجلوهم عن بخارى ، وخوارزم وفرغانة ، ونشروا الرعب والجزع فى أقصى أجزاء امبراطوريتهم المترامية ٠ وهم يمتلكون الآن بالاضافة الى بلخ ، ممالك خوارزم (أو أورجونج) وبخارى وفرغانة ، وربما بعض اقطار أخرى صغيرة فى هذه الناحية من بيلوت طوغ ، وقد بلغنى أنهم يوجدون أيضا وراء بيلوت طوغ ، كما يمتدون شرقا حتى خوتن على الأقل ، على أنه لا أستطيع التحدث فى هذا عن ثقة ٠ وهم ينتمون الى ذلك الفرع الكبير من الجنس البشرى المسمى فى آسيا باسم الترك ، والذى يؤلف هو والمغول والمنشوريين ما نسميه باسم الشعب التترى ٠ ولكل من هذه الأقسام الثلاثة لغته الخاصة المنفصلة ، فأما لغة الترك فواسعة الانتشار بكل أقطار غرب آسيا » ٠ انظر : Account of Caubul ص ٤٦٥ ٠

◉ هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) من الواضح أن هذا الاسم الذى ورد فى النصوص اللاتينية . وكذا فى نسخة : راموسيو : « سكاسم » وورد فى الخلاصات الايطالية أشاسم ، هو اسم كشم كما ورد فى خريطة دانفيل ، كما انه « كيشم أباد » فى خريطة ألفنستون ، التى تقع قرب نهر غورى الذى يسقط مياهه فى نهر جيحون ، وتقع الى الناحية الشرقية قليلا من خط طول كابول · وان ابن حوقل الذى يصفها بعد الحديث عن تايكان مباشرة ، وقبل الشروع فى وصف بداخشان ، ليسميها خش « Khesh » ويقول انها : أكبر مدينة في هذه المنطقة الجبلية » · ويظن ج· ر· فورستر (فى Voyages in the North ص ١٢٥) · ان سكاسم هى الشاش على نهر سر أو سيحون ، بيد أن ذلك مناقض لكل احتمال ، وذلك بالنظر الى بعدها الشديد عن المكان الوارد ذكره أخيرا ، وذلك بينما كشم أو كيشيم ليست فحسب · قرب المكان الذى ورد وصفه بعد ذلك مباشرة ولكنها أيضا تقع على الطريق المباشر الذى يوصل اليه ·

(٢) لا مشاحة أن هذا المكان هو بدخشان ، بالطريقة الصائبة التى يكتبها ابن حوقل وغيره من الجغرافيين ، وان كثيرا ما نطقت بلخشان · واليكم وصف ده هربيلوه لموقعها : « ان بدخشيان بلخشيان اقليم يشكل جزءا من ولاية طخارستان Thokharestan ويمتد قرب رأس نهر جيحون أو Oxus الذى يحده من الجانب الشرقى والشمالى · يقول ألفنستون فى كتابه Acc. of Canbul : « يبدو أن يدوخ شون وان كانت اقليما رحيبا ، فانه ليس سوى واد مترام يمتد صعدا من ولاية بلخ الى بيلوت طوغ ، بين الجزر المتصلة بالبامير وبين سلسلة جبال « هندكوش » (ص ٦٢٨) ·

(١) عندما يتحدث أبو الفضل عن أقاليم السيراد وبيجور ، التى يصفها بأنها تتألف من تلال ومجـاهل وتسكنهـا قبيـلة يوسف زاى ، يمضى فيترل : « فى عهد مرزا ألوغ بك (١٤٥٠) ، وفدت قبيلة سلطان، التى تعلن أنها تنحدر من ابنة السلطان سيكندر ذى القرنين ، قادمة من كابول وتملكت ذلك القطر • وهم يقولون ان سيكندر ترك فى كابول كنزا وديعة عند أحد أقربائه ، والآن يسكن بعض المناطق الجبلية سلالتهم الذين يحملون شجرة أنسابهم فى أيديهم (انظر الايين الأكبر مج III بالفارسية ص ١٩٥) • ويلاحظ الملازم ماكارتنى ، أيضا هذا الانتساب ويقول فى مذكراته Memoir : « يدعى ملك درواوز (قرب منابع جيحون) أن يرجـع نسبه الى الاسكندر الأكبر ويسلم جميع جـيرانه بمدعياته » • (انظر Acc. of Canbul التذييل ص ٦٢٨) ولا يكاد يوجد داع للاشارة أن كلمة ذو القرنين تعنى وجود « قرنين له » وأنها لقب أطلقه الشرقيون على الاسكندر الذى يسمونه « سيكندر » أيضا ، من شكل رأسه الذى يظهر على العملات اليونانية ، التى ظلت متداولة طويلا ، ثم قلدت بعد ذلك فى فارس •

(٢) يذكر كل مؤلف عالج شئون هذا القطر انتاجيه الاثنين ، وهما يواقيت البالاس (الذى يعده الشرقيون نوعا من اليـاقوت الأزرق hyacinth وحجر اللازورد « Lupis Lazuli » يقول ابن حوقل : « تنتج بدخشان الياقوت Laal واللازورد • وتوجد مناجمهما بين الجبال » (ص ٢٢٥) • ويقول ده هربيلوه : « فى جبالها يوجـد منجم الياقوت الذى يسميه الشرقيون بالبدخشيانى والبلخشيـانى • والذى نسميه بيواقيت البالاس (نسبة الى بلخشان) » • ويقـول ألفنستون : « ان ذلك الجزء من بيلوت طوغ داخل بدوخ شـاون ينتـج الحديد والملح والكبريت فضلا عن مقدار وافر من حجر اللازورد ، على أن مناجم الياقوت الشهيرة التى من أجلها أكثر الشعراء الفرس مـن الاشارة الى اقليم بدوخ شاون تقع فى التلال الأخفض قرب نهر جيحون • وهى لا تستغل فى الوقت الحاضر » • (ص ٦٢٩) •

(٣) ربما ذهب البعض الى أنه لا جدوى من محاولة العثور عن مصدر ثقة تقابل عليه اسم ذلك الجبل المعين الذى تستخرج منه هذه الأحجار ، على أن هناك اسما قريب الشبه جدا من سيكينان يبدو أمام نواظرنا فى ناحية تقع قرب الأماكن التى كنا نتحدث عنها · يقول ابن حوقل : « ينبع نهر جيحون (أو أكسوس) داخل أراضى بدخشان ، ويتلقى مياه روافد أخرى كثيرة · ويخرج نهر الوخشاب من تركستان الى أرض وخش قرب جبل تمر فوقه قنطرة بين خولتان وحدود الوايش كرد (وهى فاش غيرد عند دانفيل) · وتوجد قرب وخش بعض نواح (لما وراء النهر) مثل ديخان وسكينة : والاثنتان تابعتان للكفرة ·· وتوجد فى وخشاب مناجم للذهب والفضة » (ص ٢٣٩) · والراجح أنه يعنى بالكفرة ذلك الجنس من الناس المسمى بالكفار ، الذى توصف بلادهم وأحوالهم العجيبة فى الملحق الذى ذيل به ألفنستون كتاب Acc. of Canbul بعنوان كاوفيرستاون Caufiristaun ص ٦١٧ ، وهم الذين يعتقد بعضهم أنهم سلالة اغريق باكتريانا ·

(٤) يقول أبو الفداء متحدثا عن بدخشان :
« Inde effectur ol lazurd et ol bellanu, sen lapis lazuli et beryllus ».
(تقويم البلدان كتاب ٣٥٢) وأنظر أيضا فقرة بنفس هذا المفاد مقتبسة من ابن حوقل فى الهامشة رقم ٢ ص ٨٣ · (كتاب المسالك والممالك) ·

(٥) يلاحظ الفنستون أن « خير بلاد للتربية (للخيل) فى أقاليم كابول هى بلخ ومن تلك الولاية (المتاخمة لبدخشان) ومن اقليم التركمان بأدنى مجرى نهر جيحون ، يجلب العدد الأكبر من الخيل المصدرة » · (ص ٢٩٦) ان عادة حذو الخيل لتبدو غير ضرورية حيثما لا تكون الأرض حجرية ولا صلبة على نحو خاص · فهى فى سومطرة مثلا لا تحذى أبدا ولا فى جاوه اللهم الا فى بعض حالات فى شوارع باتافيا المرصوفة ·

(٦) ان الشعير الوارد وصفه هنا هو النوع المسمى علميا
Hordeum nudun, hordeum glabrum and hordeum vulgaris seminibus decorticatis.
وتعبير بدون قشر (Senza scorza) الذى استخدمه مؤلفنا ، هو بالضبط الاسم النوعى الذى يطلقه عليه لينايوس (عالم النبات السويدى المشهور) ·

(٧) يستخرج الزيت ببلاد الهند من ذلك الحب Sesamun Orientale

بوجه رئيسى ، ويوجد كل من الجوز (عين الجمل) والبندق ، اللذين يمكن استخراج الزيت منهما ، بالأصقاع الشمالية لفارس ·

(٨) يقول شاردان : « ان أكثر ولايات فارس وفرة فى الماشية هى ولاية باكتريانا ··· الخ · وقد رأيت بها قطعانا من الغنم كانت تغطى مساحة من أربعة الى خمسة فراسخ من الاقليم » (ج ٢ ص ٢٩ ، ٤) ·

(٩) لا بد أن اقامة مؤلفنا فى بدخشان التى يشير اليها — مؤلفنا هنا ، حدثت فى الفترة التى أرسله فيها الامبراطور قبلاى فى احدى المهام الى ولاية خراسان أو خوارزم وهى التى ورد ذكرها فى الجزء الأخير من الفصل الأول ·

(١٠) يقول بوتنجر فى وصفه الزى الذى ترتديه نساء بيلوخ : « ان سراويلهن واسعة وسعا غير معقول ، كما أنها مصنوعة من الحرير أو من خليط منه ومن القطن » · انظر Travels in Beloochistan and Sinde ص ٦٥ ·

(١) يمكننى أن استنتج من الموقع الجنوبى أو بقول أصح الجنوبى الشرقى لهذا المكان بالنسبة لولاية بدخشان ، وكون المسافة تقارب الثنى ميل ، فضلا عن ظروف أخرى ، ـ أن المقصود من باسكيا (وهى فى الخلاصات باسسيا) هو بايشور أو بيشاور ، وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن الملتقى الرئيسى للأنهار التى تؤلف نهر السند أو الاندوس ، ويصفها فورستر بأنها ضخمة آهلة بالسكان ، ونتيجة لموقعها المختار ، فهى سوق مهمة وهى مسكن لتجار أغنياء • أجل انه يقول ان الذى أنشأها هو أكبر الذى بدأ حكمه فى عام ١٥٥٦ ، ولكن رغم أن ذلك الملك المستنير ربما أدخل التحسينات على بايشور ، كما أسس بالفعل مدينة أتوك ، أدنى من ذلك على النهر ، فان هناك دلائل فى « آيينه » تدل على أن بايشور كانت موجودة قبل زمانه • اذ يذكر ذلك « الآيين » : « ان بكرام ، المسماة عادة باسم بايشور ، تستمتع بفصل ربيع بهيج • وبها معهد جوزيكيهترى ، وهو مكان يعد منتجعا دينيا وذلك لطائفة الجوجية Jowgies بوجه خاص » • (انظر الآيين الاكبرى مج ٢ ص ٢٠٥) ليس هذا وصف مدينة حديثة العهد ، ولا هى ، لو أن سيده بناها ، ما ذكرها أبو الفضل بمثل هذه الاستهانة والعبارات البسيطة • على أن من الراجح على الجملة أن فورستر طبق على بايشور ما سمعه عن أتوك •

(٢) من الواضح أن الناس الوارد وصفهم هنا ، ان لم يكونوا هنودا بالفعل ، فانهم شعب شقيق تقريبا • يقول الفنستون : « تماثل بيوت قبائل بيشاور وطعامهم وعادات حياتهم مثيلاتها عند البوسوفزيين • وللثياب أيضا بعض أوجه التشابه ، لانها خليط من زى الهنود والأفغانيين » (ص ٣٥٩) •

(٣) يقول فورستر : « ان حرارة بيشور بدت لى أشد حدة من أى قطر آخر زرته فى المناطق العليا من الهند • ويصبح المناخ فى الانقلاب الصيفى ملتهبا أو يكاد » • (مج ٢ ص ٥٠) • ويقول الفنستون : « تقع بيشاور فى واد خفيض تحيط به التلال من جميع النواحى عدا الشرق • ومن ثم فالهواء محبوس كثيرا هناك والحرارة يزداد

اشتدادها · وظل مقياس الحرارة فى صيف ١٨٠٩ ملازما لبضعة أيام درجة ١١٢° ، ١١٣° ، فى خيمة كبيرة مبردة تبريدا صناعيا » · (ص ١٣٢) ·

(٤) ويضيف فورستر قوله : « والأسواق مزودة بوفرة بالأطعمة ذات الأنواع الممتازة ، وبخاصة لحم الضأن الذى هو لحم الغنم ذات الذيول الكبيرة » · (ص ٥٠) ·

هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) لا شك أن المقصود بكلمة كزمور أو شزمور (شريمور فى الترجمات اللاتينية وكسيمور فى الخلاصات الايطالية) هو كشمير . والحق ان المسافه بين بايشور أو بيشاور ، لم يكن ممكنا أن تكون اقل من مئتى ميل ، وفى منطقة جبلية ، فلابد أنها تستغرق أكثر من رحلة سبعة أيام ، ولكن لا ينبغى لنا أن نتوقع دقة مضبوطة فى هذا الصدد ، كما أن ما لدينا من خرائط تختلف اختلافا بالغا فى الموقع النسبى للمكانين . عن البيانات التفصيلية حول هذا الاقليم الشائق ، يستطيع القارىء الرجوع الى « الآيين الأكبرى ، ورحلات برنييه وفورستر ، وما كتبه رنيل فى : Memoir of a Map of Hindoostan وكتاب Acc. of Canbul لألفنستون . ويبدو أن سكانها ابان الأزمان التى كتب فيها مؤلفنا كان معظمهم من الهندوك ، لأنها كانت فى عصور أقدم ــ تعد أحد المقرات الرئيسية لتلك الديانة وللأدب السنسكريتى . وأغرت الثروة المكتسبة من صناعتها ذائعة الصيت ، وقداستها الوثنية ، أطماع المسلمين كما أثارت حميتهم التعصبية ، فغزوها فى زمن مبكر ، ولكن نظرا لأنها لم تقع فى قبضة جنكيز خان ، أو خلفائه المباشرين ، فان الحديث يدور عنها هنا على أنها مملكة مستقلة .

(٢) « من الجلى أن لغة كشمير » ــ فيما يول فورستر ــ « تنتزع من الأرومة السنسكريتية وتشابه فى صوتها ــ لغة الماهارتا » . (ص ٢٢) . ويقول ألفنستون : « ان أهل كشمير أمة خاصة من الأرومة الهندوكية ، وهم يختلفون لغة وعادات عن جميع جيرانهم » . (ص ٥٠٦) .

(٣) هذا يتفق مع ما ورد فى الآيين من أن : « الهندوك يعدون كشمير بأجمعها أرضا مقدسة ، فيها خمسة وأربعون مكانا مكرسا لمهاديو ، وأربعة وستون لبيشن (Bishen) وثلاثة لبراهما واثنان وعشرون لدورجا (ربة الجبال . » (مج ٢ ص ١٥٦) . ومن ثم فليس بعيد الاحتمال اطلاقا أن براهمة هذا القطر القصى والمقدس ، ربما كانوا هم الذين أمدوا جنوب الهند بكثير من أصنام آلهتهم تلك المصنوعة من الحجر

والنحاس التى تمتلىء بهـا معابدهم : وذلك لأن الأوثان المصنوعة محليا، كان لها ، فيما نظن ، كرامة فى بلدنا أقل من تلك المستوردة من أماكن قاصية اشتهرت بالقداسة ٠

(٤) يقول « الآيين الأكبرى » : « ان معظم تجارة ذلك القطر يتم نقله بالطرق المائية » ٠ فان نهر جايلوم أو بيهوت الذى يفيض فى وادى كشمير ، كما أنه صالح للملاحة هناك ، يسقط مياهه الى نهر الاندوس (السند) بعد توحيدها مع مياه الشيناب والرافى ، غير بعيـد من بلدة فولتان : ولكن لما كان مجراه بعد مغادرته ذلك الوادى يمر من خـلال اقليم جبلى ، فان الملاحة لا بد أن تنقطع فى بعض الأماكن ٠

(٥) لئن كان سكان كشمير هندوكا فى ذلك الوقت ، الأمر الذى يحملنا كل سبب على اعتقاده ، وان أخضعت فى بعض الأحيـان لنفـوذ المسلمين ، فربما وجدنا من العسير التوفيق بين عادات ذلك الشعب وبين ما يذكر هنا حول طعامهم وأنه يتكون جزئيا من اللحم ، ولكن الواقع أن الطوائف الهندوكية ليست عمليا شديدة التدقيق فيما يتعلق باللحوم ، كما قد تحملنا سنن دينهم أن نعتقد ٠ أضف الى هذا أنه لمـا كان أهل كشمير يشتهرون فى كل العصور بالخفة والانحلال ، فلن يصح لنا أن نتوقع منهم ــ مهما تقدست أرضهم ــ مراعاة دقيقة لتعـاليم الفيدا ٠

(٦) كان اعتدال مناخ كشمير على الدوام موضـوعا للاطـراء ، وكان سببا فى جعلها مصيفا لأباطرة هندوستان المغول : يقول « الآيين الأكبرى » : ان هذه الصوبة Soobah بأكملهـا تمثـل حديقة تنعم بربيع دائم » (مج ص ١٥٢) ٠

(٧) يكاد وادى كشمير ، الذى تحيط به وكره التابعة للقوقـاز الهندية ، يكون محاطا بجبال عالية ، ومن ثم فولوجه عسير على أى جيش ، ومع هذا ، فنظراً لما اتصف به الأهالى من طبع غير حربى فانه تعرض لكثير من الغزوات ٠ ويضيف أبو الفضل قوله : « ان للتحصينات التى زودته بها الطبيعة ارتفاعا مدهشا » ٠

(٨) يبدو أن هؤلاء الرهبان يماثلون الرهبان البوذيين فى آثاوسيام ونساك (Gylongs) التبت ، الذين يقيمون فى مجتمعات ، تحت ادارة كبير ، يطلق عليه اسم سنكرا فى التطرين الأولين واللاما فى التبت ٠ وواضح أنهم مثل هؤلاء أيضا كانوا من البوذيين ٠ ومع أن هذه الطائفة المحرمة ربما تكون اختفت من كشمير منذ تلك الأيام ، كما ذهبت من معظم ولايات الهند الأخرى ، فان أبا الفضل الذى كتب فى القرن السادس

عشر يلاحظ أن بعضهم لا يزال باقيا فى أيامه · فهو يقول : « فى المرة الثالثة التى تبع فيها المؤلف الركاب الامبراطورى الى منطقة كشمير البهيجة ، التقى ببعض الشيوخ من رجال هذا الدين » · (مج ٣ ص ١٥٨) وهو ينبئنا فى موضع آخر : « أجل رجال هذا القطر هم » الريشيون Rishis الذين لا شك انهم وان لم يعبلوا ان يكبلوا انفسهم باغلال التقاليد (حكايات البوران Puranas) ، فانهم من عبدة الله المخلصين · وهم لا يذمون أية طائفة أخرى ، ولا يسألون أى انسان شيئا · وهم يزرعون الطرقات بأشجار الفاكهة ليمدوا المسافرين بما ينعشهم ، ويمتنعون عن تناول اللحم ، ولا يباشرون الجنس الآخر أبدا · ويوجد بكشمير ما يقارب الألفين من أفراد هذه الطائفة · (مج ٣ ص ١٥٥) ،

(٩) يلاحظ أبو الفضل ، وهو يتحدث عن كهنة ديانة بوذا فى كشمير ، أنهم وان امتنعوا عن قتل الحيوان فانهم لا يرتضون أى نوع من الطعام يقدم اليهم ، وكل ماهات من تلقاء نفسه عدوه مقتولا بيد الله وأكلوه تبعا لذلك · (مج ٣ ص ١٥٨) ، وتوجد بين الهندوك طوائف كثيرة يسمح لها بتناول أنواع معينة من الطعام الحيوانى وان حظر عليهم مع ذلك سفك الدم ·

(١٠) هنا يعطينا مؤلفنا ايضاحا منطقيا مستقيما ومفهوما للخطة التى يتبعها فى وصفه الأقطار العديدة التى دخلت فى حيز مشاهدته أو معرفته ، ومما يؤسف له أنه لم يرسم خطا أوضح يفرق بين الأماكن التى شهدها بنفسه وتلك التى جمع فيما يتعلق بها معلومات من غيره من الناس · وانى لأميل الى الاعتقاد بأنه لم يزر بلاد البنجاب (أو الاقليم الذى تحتضنه الأنهار التى تؤلف الاندوس (السند) ، وأن ما يرويه عن بيشاور وكشمير ، استقاه أثناء اقامته الطويلة فى بدخشان من أشخاص كانوا يرتادون تلك الأماكن بقصد التجارة ·

◉ هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) الآن وبعد أن ترسمنا خط وصف مؤلفنا عبر أقطار مكتنفنا فيها كتابات رحالة آخرين من تبين مواطىء قدميه ، فاننا لو وجدنا أنفسنا الآن فى منطقة يكتنفها قدر أكبر من الغموض وعدم التأكد ، لم يجز أن ينسب الاختلاف الى أية زيادة فى الغموض من جانبه ، قدر ما ينسب الى اعوازنا فى المعلومات المقابلة لها من جانبنا ، وذلك نظراً لأن معرفتنا بهذه المنطقة معيبة الى حد كبير . ومع هذا ففيما يتعلق باسم فوخان وموقعها (لأن هجاءها يختلف قليلا فى مختلف الترجمات)، فاننا لم نحرم نهائيا من أضواء مرشدة ، بين قديمة وحديثة . ويصير تعرفها ، ابتداء من علاقتها بمكان يسمى وايشجرد أو وايشكرد : وهو مكان يقول عنه ابن حوقل : « يخرج نهر وخشاب من التركستان الى أرض وخش قرب جبل توجد عنده قنطرة توصل بين خوتلان وحدود وايشكرد . ثم انه يجرى من ذلك المكان نحو بلخ ويسقط فى نهر جيحون قرب ترمذ » . (ص ٢٣٩) ونحن نعثر فى الفقرة التالية المقتبسة من الادريسى على مدينة فوخان وقد ربطت بالأماكن المذكورة هنا :

« De regionibus finitimis Vachas (Wekhsh or Wakhsh) et Gil, sunt Vachan (Vokhan el Sacpita (Sakitah) in Terra Tore. (ص ١٤١) .

وهنا يظهر أن وايشجرد هى القطر الواقع بين بدخشان وفوخان ، التى يقول عنها مؤلفنا انه يحكمها أخ الملك الأولى . وما يذكره الادريسى حول هذا الوادى ، وكذا أقوال مؤلفنا عنه ، يؤيدها تماما ما ورد فى Memoir شرحا للخريطة المثبتة فى أول كتاب Acc. of Canbul حيث يقول الملازم ماكارتنى متحدثا عن نهر آمو أو جيحون (Oxus) ما نصه : « ينبع هذا النهر من مرتفعات بامير . وهو ينبثق من واد ضيق عرضه مائتان أو ثلاثمائة ياردة فى ووخان ، وهى الحد الجنوبى لبامير ، وهذا الوادى محوط من ثلاث جهات بالجبل المرتفع المكلل بالثلوج المسمى بوشيخور ، من الجنوب والشرق والغرب . ويرى النهر منسابا من تحت الثلج » . (التذييل . ص ٦٤٦) . هذا وان مجرد تحقيق أسم وموقع ناحية من النواحى ، على مثل هذا النحو من

الانعزال » ينبغى أن يعد اختيارا لا يمكن الاعتراض عليه لصحة وأصالة رواية رحالتنا ٠

(٢) ربما أمكن أن نستنتج من طول قرون هـذه الحيوانـات ، والاستخدامات التى كانت تستخدم فيهـا ، أنها نوع من الوعل أو تيس الجبل ، ومع أنها سميت مونتونى ، فى الحالة الأولى ، فانها ذكـرت بعد ذلك تحت اسم بتشى أوتيوس Boucs ، ويؤيد هذا الظن ما ورد عند الفنستون فى Account of Canbul يقول : « ان التيوس موفورة بكل المناطق الجبلية للبلاد ، كما أنها ليست نادرة بأية حال فى السهول ٠ ولبعض أنواعها قرون عجيبة الطول مدهشة الالتواء » ٠ (ص ١٤٤) ٠ ويلاحظ ٠ر٠ فورستر أن هذه الحيوانات تسمى موفلون وموفيونى أى الضأن عند المؤلفين الفرنسيين والايطاليين ٠

(٣) نجـد سهـل اليامـير المرتفـع Pamer, Pamire, Pamir بجميع خرائط فارس البلدان المجاورة ٠ وهو يشغل فى الخريطة المرافقة لكتاب Georg. Memoir لمكدونالد كناير ، مكانا يتفق مع الأوضـاع التى نستنتجها من وصف مؤلفنا ٠

(٤) هذه المنطقة الألبينية ، التى يسميها الجغرافيون الشرقيون بلور ، وضعت فى خريطة ستراهلنبرج ، ومنها نقلت ، فيما يظهر ، الى خرائط دانفيل ، ولكن موقعها بالنسبة للبامير والبدخشان ، سيتجـلى أنه أكثر اتفاقا مع بيان مؤلفنا بالرجوع الى الخرائط الحديثة التى وضعها مكدونالد كناير ومكارتنى ٠ وفيما يتعلق بطبيعة الاقليم يتحدث عنها الفنستون بعبارات لا تختلف الا قليلا عن تلك المستخدمة فى النص٠ حيث يقول ان عزة الله (Izzut. Hoollah) يدبج صورة مخيفة عن الزمهرير والقفر فى هذه المنطقة المرتفعة ، التى تمتد ثلاث مسيرات فى أعلى منطقة بالاقليم بين يرقند ولاى (أولادوك) ٠ هـ٠ ص ١١٣ ٠

● هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان كاشجار أو قشغر ، مدينة معروفة ، ومستودع للتجارة المتبادلة بين بلاد التتار (Tartary) والهند والصين . وهى تقع فى ذلك الجزء من التركستان الذى يطلق عليه الأوربيون اسم بوشاريا الصغرى ، وكانت فيما سلف عاصمة لملكة بنفس الاسم . وكانت ضمن الأماكن التى اجتاحتها جيوش جنكيز خان التى لا تقاوم . وعند تقسيم امبراطوريته أدخلت ضمن ميراث ابنه جاغتاى . وبعد زهاء قرن من زمان مؤلفنا فتحها تيمورلنك ، وفى ١٦٨٣ منحتها كنتايش الكلموك أى خانهم الأعظم ، الذى أخذ منه الصينيون عنوة الجزء الشرقى من بوشاريا الصغرى فى ١٧٦٨ .

(٢) يقول ده هربيلوه : « يقول البرجندى ، انها بالغة الاتساع وانها تعد عاصمة للاقليم كله ، وان سكانها مسلمون ، وان كثيرا من العلماء نشأوا فيهم . وتتحدث عنها يوميات رحلة ماكدونالد كناير بأنها تقع فى واد كثير الزرع قرب نهر جميل وان لم يكن صالحا للملاحة ، على السفح الجنوبى لسلسلة جبال تسمى تيروك دوان .

(٣) يبدو أن سكان بوشاريا ، الواقعة فى الأجزاء الوسطى من آسيا ، يماثلون فى عاداتهم التجارية وشحمهم الأرمنيين الذين ينتابون مدن الهند الرئيسية والذين يصفهم فورستر فى « رحلاته » بأنهم مجدون وأذلاء وغير أمناء ، وأنهم يسلكون مختلف الطرق التجارية بهمة لا تعرف الكلل ، وأنهم لا ينفكون يقيسون متعهم على قدر سعة ذات يدهم وثرائهم - مج ٢ ص ١١٧ .

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) من البين هنا ، أنه لكى يدخل المؤلف وصف مكان على أهمية سمرقند ، التى لعله زارها أثناء احدى رحلاته الرسمية ، فانه ينسلخ عن خط السير الذى كان يسلكه نحو كاتايا ، ويقوم بما يمكن اعتباره نزهة (أو رحلة خلوية) الى بوشاريا (بخارى) الكبرى أو ما وراء النهر . وقد استولى الخليفة الوليد على هذه المدينة الشهيرة من الفرس فى عام ٧٠٤ ، كما استولى عليها جنكيز خان من سلطـان خوارزم فى ١٢٢٠ فأسلمها ليد النهب والسلب ودمر كثيراً من مبانيها على أنهـا ربما كانت تبرأ من آثار ذلك البلاء فى مدى الخمسين او الستين عاما التى مرت قبل الفترة التى نتحدث عنها الآن . على أن تيمورلنك أعاد اليها كل فخامتها وبهائها القديم قرب عام ١٣٧٠ فاصبحت عاصمـة لدولته المترامية الأطراف ، ولكن سقوطها فيما بعد فى يـد التتـار الأوزبكيين وبقاءها فى قبضتهم عند نهاية القرن المـاضى ، أدى الى تدهور شأنها كثيراً .

(٢) نظرا لأن قشغر هى آخر مكان ذكر ، فربما جاز الظـن بأنه يتكلم عن معالم سمرقند كما تبدو من هناك ، ولكن لما كان الاتجـاه الواقعى ، بدلا من أن يكـون شـماليا غربيـا (maestro) يكاد يكون غربيا بجنوب غربى ، فانه يحق لنا أن نتطلع بفكرنا على وجه أصح الى بدخشان ، التى أقام فيها طويلا ، والتى يعلن أنه يبدأ منها حديثه عن الطريق الى كاتايا . وخط عرض سمرقند كما حسب على الربعيـة الجدارية التابعة لبدلوغ بك ، حفيد تيمورلنك هـو ٣٧ر٣٩° شمالا ، وخط طولها كما قدره الماجور رنل يقارب ١٥ر٦٤° شرق جرينتش ، أو غربى قشغر بمقدار ٧½° . على أنهما وضعتا بخريطة دانفيل بمكـان يبعد بضع درجات شرقا .

(٣) هذه احدى الحكايات التى وردت على سبيل الاستطراد والتى عادت بسوء السمعة على عمل مؤلفنا . وكان زجاتياى فعلا ـ كمـا يقول المؤلف ـ شقيقا لأكتاى (أوجداى (Ogdai الذى خلف والده فى منصب الخان الأعظم للمغول ، ولكن ليس لدينا سلطان بأنه اعتنق المسيحية فعلا ، وان لقى منه المسيحيون تسامحا كثيراً ، كما أن روبروكى

وهايتون ـ يقولون بأن خلفاءه المباشرين ومانكو حفيـــده وابن أخ زجاتاى ، عمدوا · ويذكر النص الذى ترجم عنه مارسدن أن الظروف المشار اليها حدثت قبل كتابة هذا الكتاب بمئة وخمسة وعشرين عاما ، وهو أمر يلاحظ عليه مارسدن بأنه مهما كانت ظروف تنصر زاجـاتياى مشكوكا فيها أو غير محتملة ، فان الصعوبة التى يسببها ذلك يمكن التغلب عليها وتذليلها بسهولة أكثر من التغلب على صـعوبة المفـارقة التاريخية · وذلك لأنه اذ بدأ حكمه قرابة عام ١٢٢٧ وتوفى فى ١٢٤٠ ، فان الفترة التى انقضت فى المدة التى دون فيها ماركو بولو رحلات، لا يمكن أن تتجاوز السبعين عاما ، حتى لو بدأت الحادثة عند حكمه ، بينما مدة ١٢٥ عاما ، كما هو وارد فى النص ، تحمل الحادثة خلفا الى ١١٧٣ ، يوم لم يبلغ أبوه الا التاسعة من عمره فقط ويومكانت العائلة مغمورة · وما أستطيع أن أعلل ورود هذا النوع من الخطـــأ السخيف ولا أن أستسيغه ، الا على أســاس الظــن بأن التــاريخ الذى لا يظهر فى الترجمات اللاتينية أو الخلاصات الايطالية ، كان مدسوسا فى احدى المخطوطات التى تابعها راموسيو · (والمخطوطات القديمة تتفق جميعا فى العبارة المترجمة فى الطبقة الحالية ·

non è gran tempo che non est magnum tempus quod.

(١) لما كانت سمرقند منحرفة ، أو خارجة عن خط بطريقه الحالى ، فان مؤلفنا يعود بنا أدراجنا الى مكان فى بوشاريا (بخارى) الصغرى ، كان تابعا فى ذلك الحين لمملكة قشغر ، التى ألمعنا اليها فى الفصـــل السابق · وكان المقصود من كارشان أو كركان هو الناحية أو بعبارة أصح مدينتها الرئيسية ، التى تشتهر أكثر باسم يركن ، وان تعرض هجاء اسمها لعدد من التحريفات بين كتاب الأزمنة التالية ، يعادل عدد ما فى نسخ عمل مؤلفنا · فالمبشر البرتغالى بنيامين جويز يكتب الكلمة هكذا : « هيارشان » ، ويكتبها دوهالد : « ياركيان » ويوردها استراهلنبرج فى خريطته : « جركن Jerken أو هيارشان أو جوركان ، وهى عند دانفيل : « جنركن » ، كما أنها عند ده جنى : « يركن » ، وعند رحالتنا المعاصرين القادمين من جهة الهندوستان : « يرقند » · ويقول الملازم مكارتنى : « يبدو أنه بعد انقضاء خمسة أيام فى السير شمالا بشرق من كشمير ، يبدأ مرتقى واضح ، يظل وعرا جـــدا مـــدة ثلاثة أو أربعة أيام ، وهو أقل وعورة بعد ذلك حتى ليه (والاداك) · ويستمـــر المرتقى حتى السلسلة الكبيرة التى تفصل بين التبت ويرقند · انظر Acc. of Canbu ص ٦٤٦ · تذييل ·

(٢) ان الورم الاستسقائى المزمن للساق الى درجة فظيعة ، داء معروف بأجزاء كثيرة من الشرق ، ويسمى عند العامة ببلاد الهند « بسباق الكوشن » · وعن بيان عن هذا النوع من « داء الفيل » Elephantiasis انظر كوردينر فى (Des^ription of Ceylon) مج ١ ص ١٨٢ · أما فيما يتعلق بسبب هذه الأورام الغدية فى الحلق المسماه « بتضخم الغـــدة الدرقية » (الجوتر) ، كما يسميها مجمع اللغة العربية · فان الرحالة ورجال الطب كتبوا الشىء الكثير ، وهم على وجه الجملة ينسبونه الى نوع الماء ، وان فندت الفكرة التى ترجعه الى ماء الثلج وقد تشجعت فى مكان آخر على التعبير عن رأيى بأن هذه اصابات غدد الحلق ، يسببها الضباب الكثيف الذى يريم على سطوح الوديان بين الجبـــال العالية ولا يتبدد الا فى ساعة متأخرة من النهار Hist. of Sumatra الطبعة ٣ ص ٤٨ · انظر ورقة بارعة فى هذا الموضوع كتبهـــا الدكتور ريفز نشرت فى مداولات مؤتمر الفلسفة فى عام ١٨٠٨ مج ٩٨ ص ١١١ ·

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) لا مراء أن اسم كوتان هو خوتن (أو خوتان) (وهى ييرتيين وهى تيين عند الصينيين ، الذين يرققون النطق التترى) ، وهى مكـان مألوف فى أسماعنا بالاسم على الأقل ، بوصفه الموضع الذى يزود شطراً كبيراً من آسيا بالمسك ، الذى يعده الأهالى من أفخر أنـــواع العطور ، والذى لا يكف شعراء الفرس عن أطرائه · وفيما عدا هـذا الظرف فان معلوماتنا عنها ناقصة جدا · ويقول مالكولم : « ان خوتن كانت فى قديم الزمان على شىء من الأهمية ، كما أن رؤساءها كثيرا ما ترد أسماؤهم على الألسن ، وفتحها الصينيون فى عام ١٧٥٧ مع قشغر ويرقند وغيرها من الولايات الواقعة بنفس المنطقة ، وهى تشكل الآن جزءاً من هذه الامبراطورية الكبيرة · ويصفها شخص محترم من أهالى بلاد التتار ، زارها قبل حوالى عشرين عاما ، بأنها فى حالـــة انتعاش وازدهار ، وان كانت أصغر حجما من مدينة يرقند ، التى تبعد عنها حوالى ١٤٠ ميلا · ولا تزال خوتن ، حسبما رواه ذلك الرحالة ، تشتهر بمسكها » · Hist. of Persia مج ١ ص ٣٢٤ ، هامشية ·

(٢) نحن ، وان لم نجد سندا مباشرا يؤيد زراعة الكروم فى خوتن ، فلا يخامرنا الا القليل من الشك فى صحة ذلك ، اذ أننا نقـرأ عن حقول كروم العنب فى هامى أو خاميل الى الشرق ، فضلا عن قشغر الى الشمال من هذا المكان وفى نفس هذا الكانتون أو الناحية ·

● هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) يقتادنا سياق وصف مؤلفنا الآن الى أماكن تقع على الجانب الشرقى من خوتن والى جوار الصحراء الرملية الكبيرة ، ونحن هنا فى الظلام لا يرشدنا شيء الا الملحوظات القليلة التى زودنا بها • والموقع الذى حدده دانفيل لباين أوبى – بن (وهى فى الخلاصات بويم أو بوين) وهو على سبع درجات طولية من خوتن ، يبدو أنه مبالغ فى زحزحته الى الشرق ، ومقترب أكثر مما ينبغى من تخوم الصين • وفى هذا الرأى الذى ينطبق أيضا على الأماكن المتوسطة ، التى هى مدار الفصول التالية ، فانى أعتمد على رأى الماجور رنل الذى يقول : « أعتقد أن خرائطنا واقعة فى خطأ شديد فيما يتعلق بمواقع الأقطار الواقعة بين بوشاريا (بخارى) والصين ، وكلها فى رأيى أخرت أكثر مما ينبغى عن بوشاريا نحو الصين » انظر Memoir of a Map of Hind ص ١٩١ •

(٢) يلاحظ هذا اليشب ، أو ضربا من الحجر الصلب يشبه اليشب، العديد من المؤلفين ، على أنه السلعة التى ينتجها هذا الجزء من بلاد التتار ويتحدث جويز عن أنه يستخرج من قاع النهر قرب خوتن ، وربما كان هو نفس النهر الذى يجرى بعد ذلك الى بأين •

(٣) ليست الحدود الشرقية لتركستان بواضحة المعالم ، ولكن يمكن على وجه الجملة اعتبار أنها تمتد على طول تلك الشقة من آسيا الوسطى ، التى يتكلم فيها الناس لهجات اللسان التركى أى اللغة التركوتترية ، ولما كانت البخارية أو البوشارية – وان اختلطت كثيرا بألفاظ فارسية احدى هذه اللهجات ، فانه يتبع ذلك أنه لمؤلفنا كل الحق فى اعتبار الأماكن الواقعة داخل ما يسميه الأوربيون باسم بوشاريا (أو بخارى) الصغرى ، ويسميه الكتاب الشرقيون باسم مملكة قشغر ، جزءا من بلاد التركستان ، التى تصل تبعا لهذا الى تخوم صحراء كوبى (جوبى) الكبرى • وهى تقسم من أجل السهولة جغرافيا الى التركستان الصينية والتركستان المستقلة ، اللتين تفصلهما بعضهما عن بعض

السلسلة الجبلية الكبيرة المسماة بيلورتاج وموش تاج أو ايماوس .
ويشير ألفنستون الى هذا التقسيم حيث يقول : « ان تلك القوافل التى تجىء من جهة الهند) التى تذهب الى التركستان الصينية تبـــدأ من كشمير وبيشاور : وكابول هى السوق الكبيرة فى تركستان المستقلة » .

انظر (Acc. of Canbul) ٢٩٣) وكلمات الترجمة اللاتينيـــة المبكرة هى : « Sunt de magna Turchia » .

● هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) يبدو أن شارشان (ووردت فى نسخة راموسيو تشارتشان Ciarcian ، وفى طبعـة بال واللاتينية القـديمة كيارتيـام ، وفى الخلاصة الايطالية تشارشيان (Ciarchian تتطابق مع شاخان بخريطة استراهلنبرج ، وان كان موقعها يبدو على الأصح أنه موضع كراشاى · ويتحدث ده جنى عن منطقة تسمى تشن تقع الى الجنوب من هامى ، وقرب بحيرة لوب ولا يمكن أن تكون الا هذه · انظـــر Hist. gén. des Huns ج · الباب الثاني ص ١١ ·

(٢) ان اسم المكان الذى يقال ان هذا اليشب يحمل اليه ورد أونشاه أو أوكاه فى نسخة راموسيو ، ولكن واضح أن ذلك كان خطأ · ونص العبارة الواردة فى طبعة بال هو :

quos neg. def. ad prov. Cathay وهى فى المخطوطات كاتاى : وهو الأمر المعلوم أنه هو الواقع ·

(٣) هنا تقول الخلاصات الايطالية بطريقـة أدق أو تكـــاد ، ما نصه » :

« Questa provincia e tutta piena de sabian par la mazzov parte ; e da cata (Kataia) infino a Poin (Peyn) e molto sabion ».

● هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) تظهر بحيرة لوب على خرائط الجزويت ودانفيل · ونجد على الأخيرة منها أيضا مدينة تسمى « تانتالى أو تنكاباش ، وهى مقر حكم الخان السابق لتاجارجاز ، وهى مدينة لوب عند ماركو بولو » ، ولكنه لا يظهر سنده فى هذا الظن · يقول ده جنى متحدثا عن كياتيام (أو شارشان) ولوب : « هاتان المدينتان اللتان تكلمت عنهما من فورى تيدوان كأنهما هما نفس اسمى كانتشيو وهانكيون تشيو فى خوتن ، ولكن يخيل الى أن من المستحيل تحديد موقعهما الحقيقى » · ص ١٧ على أنه بدلا من اسم لوب الذى تحمله هذه الصحراء فى نسخة رامسيو ، فضلا عن معظم الترجمات الأخرى ، فان الاسم الوارد فى الخلاصات الايطالية الباكرة هو جوب Job ، ويؤدى هذا الاختلاف فى الهجاء الى نشأة الظن ، بأن المقصود بها هو كوبى ، الذى يقال انه الاسم التترى الأصلى · يقول دوهالد : « كل هذا المتسع ، ليس سوى أرض جافة ورملية ، وهى أشد بقاع بلاد التتار جدبا · وهى التى جرت عادة الصينيين بتسميتها شامو ، وأحيانا كان هاى ، وهى كما يقولون بحر من الرمال · ويسميها التتار كوبى » ج ٤ ص ٢٦ ·

(٢) ان خريطة الجزويت الملحقة بأول كتاب « Description de la Chine » لدوهالد ، تجعل الصحراء تمتد مع انقطاع جزئى بسيط ، عن خط زوال بكين غربال الى خط طول ٥٣٥ محسوبة من تلك المدينة · واذن ، فان استحالة عبورها فى ذلك الاتجاه واضحة تماما كما لاحظ ذلك مؤلفنا ·

(٣) ان التطابق العام بين هذا الوصف ، اذ يراعى الناحية الفحلة للبلاد وطبيعة المحطات ، وبين البيان الذى دبجه الرحالة الممتاز جون بل من انترمونى ، الذى عبر جزءا آخر من تلك الصحراء نفسها ، فى طريقه من سلنجنسكى الى بكين ، سيجده القارئ رائعا مدهشا ، كما أن مما يسترعى النظر أن عدد الأيام المستخدمة كان ثلاثين فى الحالة الأولى ، وثمانية وعشرين فى الثانية وأهم فرق مادى بين الاثنين هو أن بل التقى أثناء أيام رحلته العديدة بأغنام ، كما التقى بعد ذلك بقطعان من بقر الوحش ، فضلا عن سرب من طير السقساق ، بينما

مؤلفنا لم ير بهيمة ولا طائرا أثناء عبوره · ولكن ليس بمستبعد أن تكون الصحراء أكثر جدبا وأشد عبوسا في نهايتها الغربية ، كما أن من المعقول في الوقت نفسه أن نظن أن خط الطريق الذى اتخذته الحكومة الصينية للمواصلات مع الممتلكات الروسية يقع خلال تلك الجهة التى يمكن العثور فيها على وسائل العيش · كما أن من الممكن أيضا أنه قد حدثت بعض التغيرات فى مدى الأعوام الأربعمائة والخمسين ، وأن سلالة من الغنم ربما تكون حملت الى تلك الأصقاع التى أظهرت بعض بوادر الانبات ·

(٤) تجد فى أعمال الجغرافيين الصينيين أن هـــذه الحكايات البلهاء موضع التصديق العام فى منطقة بلاد التتار الموصوفة هنا ·

هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) بعد عبور درب ضيق في الصحراء الكبيرة ، في اتجاه يمضي من مدن مملكة كشغر نحو اقرب نقطة في الصين ، يقتاد الطريق مؤلفنا بصورة طبيعية الى مكان يسمى شاتشيو حسب النطق الفرنسي والانجليزي . يقول ده جني : « توجد الى الشرق من بحيرة لوب مدينة يسميها ماركو بولو ساشيون ، وهي شاتشيو أى مدينة الرمل عند الصينيين » . (ص ١٢) وسيتجلى ان تحريف هذا الاسم من شاتشيو الى ساتشيون انما يرجع أساسا الى صعوبة تمييز حرف الانجليزى من حرف U في المخطوطات ، وسيتجلى أن نسبة ضخمة من أسماء المدن الصينية ، الواردة في الأجزاء التالية من العمل متاثرة بنفس هذه الغلطة . ويقع المكان على حوالي أربع درجات الى الغرب من سوتشيو (وهي موقع عسكرى مهم على الطرف الاقصى الغربى من ولاية شن سى) ، وتتحكم في مدخل الممر أو الخانق الشهير الموجود بين الجبال ، والمسمى يانج كوان . وورد في تاريخ جنيكز خان ، تاليف بتى ده لاكرواه أن احتلاله لهذا الموقع الحصين كان مزية عظمى عادت بالفائدة على ما تلا ذلك من عملياته على الولايات الجنوبية بالصين » ص ٤٨١) . وربما بدا ضربا من الاعتراض على هذه المطابقة بين هوية ساتشيون وشاتشيو ، التى تقع في الطريق المباشر الى - وعلى غير مسافة بعيدة من - ولاية شن سى الصينية ، ما ورد في الفصل التالى من أنه يمضى متحدثا عن مكان غير متوسط ، ولمكنه على العكس أكثر بعدا عن الحدود ، كما أنه يقع في اتجاه مخالف . ولكن ينبغي الا يغيب عنا أن عمل مؤلفنا ليس مجرد دليل للسائحين وأنه يعترف أنه يصف أجزاء لا تقع على خط رحلته الأصلية ، وانما لعله قام بزيارتها فيما بعد وهو في خدمة الامبراطور . وهنا أيضا ، قد يصح لنا أن نلاحظ أنه لا يعطى أى تقدير للمسافة ، كأنما الطريق مستمر ، لكنه ينقلت ليتحدث عن أماكن أخرى ، « عند رأس الصحراء » .

(٢) ليس من غير المألوف أن نعد اسمى تانجوت والتبت وكلاهما اقتبسه الفرس عن المغول ، اسمين مترادفين ، غير أن الاسم الأول ينطبق على جزء أكبر من بلاد التتار ، يتاخم الولايات الغربية من الصين،

ويضم التبت فى قسمه الجنوبى ، بينما قسمه الشمالى يشمل النواحى التى يتجه مؤلفنا الآن الى التحدث عنها · ومع هذا فانه حسب تعريف دوهلد ، لا يمتد متوغلا الى الشمال بهذا القدر الى الموقع المخصص لمدينة شاتشيو فى خريطة الجزويت ·

(٣) وصف مؤلفنا سكان مناطق الجهة الغربية لصحراء لوب أو كوبى بأن معظمهم من المسلمين ، ولكنه عند عبور تلك الشقة والدخول الى ولاية تانجوت ، أو سيفان ، كما يسميها الصينيون ، اذا هو يصف الأهالى بحق بأنهم من عبدة الأوثان · وهو يعنى بالوثنية هنا ، الدين الذى يعرف بأنه ديانة اللاما الأعظم ، أو الملك الروحى ، الذى يعتقد أتباعه أنه سرمدى خالد ، بواسطة التجدد (الانبعاث الروحى المتعاقب لنفس الشخص الواحد فى أجسام مختلفة ، ولكنهم لا يعبدونه ، كما جرى بذلك الظن · وانما تقدم عبادتهم الى عدد من تماثيل الآلهة ، وعلى الأخص الى صنم ، غالبا ما يكون هائل الحجم ويسمونه « شاكيا مونى » · وذلك هو البوذا الوارد ذكره فى الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية ، والذى تنتشر عقيدته انتشاراً أوسع بكل أرجاء الشرق من عقيدة محمد نفسها · ويعبد هذا « البد (الوثن) » نفسه فى كل من آفا وبيجو تحت اسم جوتاما (بدرجة متساوية مع شاكيا وهو نعت أو خصيصة لبوذا) ، ويعبد فى سيام باسم « سامانا كودوم » ، وفى كوشن شين وتونكين باسم « بوت » « وثيكامونى » ، وفى اليابان باسمى شاكا وأميدا بوت Buth ويعبد بالصين حيث ينتشر نفس ذلك الدين بين الجمهرة الغفيرة للسكان باسم فو أو فوه · ويبدو أن كثيرا من المعبودات الأخرى تنتسب الى الميثولوجيا البرهمانية ، كما أن لبعضها طابعا محليا · وواضح فى الحين نفسه أنه ، فيما يتعلق بالشكليات والمراسم ، التى ستسنح الفرص للمزيد من الحديث عنها فيما بعد ، فان الكثير منها قد اقتبست من النساطرة المسيحيين ·

(٤) تلك اللغة هى التى نسميها لغة التبت ، وهى لغة وحيدة المقطع (Mono-syllabic) من حيث أساسها ، مثل الصينية وان اختلفت عنها من جميع الأوجه الأخرى · وحروف الكتابة تشتهر على الأعم باسم التانجوت أو التانجوتية وينبىء ترتيبها الأبجدى أنها من أصل ناجرى أو سنسكريتى ·

(٥) عن المبانى الكثيرة والرحبة المشيدة بقطر ، يكرس فيه كل مولود رابع ذكر فى عائلة لحياة الدير ، نجد اشارات كثيرة فى كتابات الرحالة وبخاصة فى كتابات بعثة بوجلى فى ١٧٧٤ ، وبعثة ترنر فى ١٧٨٣ ، الى بلاط اللاما الأعظم الجنوبى · واللوحات الملحقة بتقرير

الثانى منهما تزود القارىء الطلعة (بضم الطاء وفتح اللام والعين) بفكرة واضحة عن المظهر الخارجى لهذه الأديرة التى يضم بعضها من ألفين الى ثلاثة آلاف راهب (Gylongs) ويظهر شكل منقوش لنفس الموضوع أيضا بين اللوحات المتعلقة بسفارة اللورد مكارتنى الى الصين • فأما مختلف الظروف المرتبطة بتلك المبانى من الداخل فيمكن الاطلاع عليها فى البيان الممتع الذى كتبه ترنر ، وكذا على وصف عام مصحوب بخريطة أرضية فى Hephabetam Tibetanum جى ص ٤٠٧ • ونجد فى Mem. conc. les Chinois بيانا تفصيليا عن ال مياءو « Miao » الكبير أو دير بوتاك ، بمدينة لهاسا ، الذى يبلغ ارتفاعه ٣٦٧ قدما وأربع بوصات •

(٦) يتمشى الاحتفال الوارد وصفه هنا ، والذى تبدو التضحية بالشاة وكأن المقصود منها أن تكون فدية للطفل ، الذى يمكن أنه قد كرس عند ولادته للاله الحارس أكثر منه وضع فى رعايته ، – مع ملاحظه ده جنى الأصغر عادة يرعاها جيران هذا الشعب • يقول هذا الرحالة : « كما أن الصينيين يبتهلون الى الجن فى كل مناسبات الحياة، فليس بمستغرب أن يضرعوا اليها ابتغاء الحصول منها على صيانة أطفالهم • وعندما يخشون من فقدها يكرسونها لأحد الآلهة » • (انظر Voyage à Péking مج ٢ ص ٣٥٩) • ويقال ان عادة مماثلة لهذه توجد ببلاد البنغال •

(٧) لا تقوم مراسم التكريم الخاصة بالحرق الجنازى الا الى أجساد الشخصيات التى تتبوأ أرفع مكان ، فأما أفراد الطبقات الدنيا ، فانهم يتركون فى أماكن غير مطروقة وأحيانا على قمم الجبال لتلتهمهم الطيور الكاسرة والحيوانات الضارية •

(٨) يعم بلاد الشرق جملة ذلك الاذعان المطلق لمهارة المنجمين فى تحديد الأيام والساعات الموائمة للقيام بجميع الأعمال ، العام منها والخاص ، والجليل أو التافه •

(٩) ظهر أن هذه العادة منتشرة عند الصينيين الذين كان يشترك معهم فى أشياء كثيرة ، سكان قطر ، على مثل هذا القرب من حدود الامبراطورية (الصين) ، وهو القطر الذى يصفه مؤلفنا الآن • ويضيف دوهالد : « وتنتشر بينهم عادة عمل فتحات جديدة فى بيوتهم عندما ينبغى حمل جسد أحد ذوى قرباهم المتوفى الى مقابر العائلة ، ثم العودة الى اغلاقها فورا ، وذلك رغبة فى تجنيبهم ويلات الألم الذى ستسببه لهم الذكريات الكثيرة للمتوفى ، والتى ستتجدد فى كل آن يمرون فيه

من نفس الباب الذى خرج منه النعش » ٠ (ص ١٢٨) ٠ على أن هذا التشاؤم الوارد وصفه هنا ليس قاصراً فحسب على الأرجاء الشرقية من العالم ، اذ جرت العادة فى مدن أو قرى شمال هولندة (كما بلغنى فى نفس المكان) لا يمكن أن تحمل الجثة من الباب الأمامى أو الرئيسى ، وانما تحمل من خلف البيت ٠

(١٠) ترى ، أيمكننا الظن بأن بعثات المبشرين (الارســاليات) استقت معرفتها بعادات هذا الشعب من كتابات مؤلفنا ، الواقــع أن التشابه لا يمكن أن يكون أتم مما نعثر عليه فى فترات منوعة عنــد دوهالد ٠

(١١) لاحظت جميع البيانات ، المكتوبة عن احتفالات هذا الشعب الرنين المرتفع لموسيقاه ٠

● هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) ان كامول ، التى يقال ان التتار ينطقونها خاميل أو ساميل ، مع زفرة حلقية قوية ، هى هامى بخريطة الجزويت ، وقد رققت فى النطق الصينى من خاء الى هاء شأن لقب « خان » اذ يرقق الى « هان » . وقد ورد فيما رواه ب. جويز أنهم بعد أن غادروا مكانا يسمى كياليس (وهى جلدس بخريطة استراهلنبرج) ، ومروا أمام آخر يسمى بوكيان ، تابع أيضا لمملكة كاسكار ، وصلوا الى تورفان واقاموا هناك شهرا . وبعد ذلك بلغوا أراموت ثم كامول وهى مكان مزود بدفاع قوى . فاقاموا به مع خيولهم شهرا آخر . حتى اذا غادروا كامول وصلوا فى مدى تسعة أيام الى هذه الأسوار الشمالية للمملكة الصينية ، عند مكان يسمى شيائيكون (كيا يوكران) .. والآن وقد وصلوا أخيراً الى داخل أسوارها ، فانهم وصلوا فى مدى يوم واحد داخل مدينة سوتشيو : (So-Cheu) انظر (Hist. de l'Exp. Chrest) تأليف تريجوه ص ٤٨٢ ــ ٥) ومع هذا فان المسافة من هامى الى سوتشيو ، وهى أشد مدن الصين امعانا فى الغرب ، وهى فى الخرائط حوالى ٢٨٠ ميلا) تصبح بهذا رحلة تتجاوز عشرة الأيام للمسافر بالقافلة .

(٢) سيتضح أن هذا البيان عن موقع كاول يتقابل بالضبط مع موقع هامى ، التى تشغل هى وتورفان ، شقة من أرض صالحة للزراعة تبدو كأنما تكاد تقسم صحراء كوبى الكبرى الى جزءين . انظر خرائط الجزويت المرفقة بكتاب Descrip. de la Chine هالد شاهر ــ ١٣٧٧ : ١٤٧٧) .

(٣) كانت لهذا المكان حكومة اسلامية ، ابان فترة سفارة شاهر، التى تمت بعد قرن ونصف من زيارة مؤلفنا له .

(٤) يقول جربيون : « ان هذه البلاد شديدة القيظ صيفا . وتنمو بها مقادير من الفاكهة الطيبة » . (ص ٥٤) ويلاحظ الأب جروزييه (رئيس الدير) « ان اقليم هامى ، وان كان محوطا بالصحراوات ، فانه يعد من أبهج الأقاليم فى العالم . وتنبت أرضه محاصيل موفورة من الحبوب ، والفواكه ، ونباتات بقلية ، وكلأ للرعى من جميع الأنواع. والأرز الذى ينمو هنا يجد تقديرا خاصا بالصين .. وليس هناك فاكهة

أشهى ولا هى موضع اقبال أشد من قاوون هامى ، الذى يحمـل الى يكين ليقدم على مائدة الامبراطور ٠٠ ولكن أنفع انتاج للقطـر وأشـده تقديراً عند الناس هو الزبيب ٠ انظر Gen. Descrip. of China مج ١ ص ٢٣٣ ٠

(٥) يقول البروفسور أميوه متحدثا عن سكان هذا الجزء مـن القطر : « تتألف تسلياتهم من الغناء والرقص ٠ وهم يلتئمون جماعات من خمسة أو ستة من الرجال والنساء التئام الحابل بالنابل ، ويتماسكون بالأيدى ، ويدورون جماعة ويثبون بضع وثبات من وقت لآخر » ٠

(انظر : Mem. Conc. les Chinois ١٤ ص ١٥٢) وما كـان ينبغى لنا أن نتوقع ورود القراءة والكتابة بين انشغالات طائشة ومتأنثة، ولكن ينبغى أن نعامل بشيء من التسامح تحيزات شخص (كالمؤلف) تربى فى بلاط تترى ٠ ويمكن العثور على بيان تفصيلى عن طريقـة وأدوات الكتابة عند هؤلاء القوم فى كتاب : Alphabetum Tibetanum ص٠ص٠ ٥٦١ ــ ٧ ٠

(٦) أورد ألفنستون فى Acc of Canbul وصفا للعادات المنتشرة بين القبائل ، التى تسكن الشقة الشرقية من جبال باروبا ميسان ، وهو قريب الشبه جداً بما يذكره مؤلفنا ، بحيث سرنى جـدا سنوح فرصة تحقيق صحة أقواله بسند محترم كهذا الرجل ٠ يقول ألفنستون : « كثيراً ماتكون النساء حسناوات ٠٠ ومن المسلم به بين الناس جميعا أنهن لا يشتهرن بأية حال بالتمسك بالعفاف ، بيد أنى سمعت حكايات مختلفة حول خلاعتهن وفسوقهن ٠ والنساء فى الشمال الشرقى ، وهو أكثر أجزاء البلاد مدنية ، يعرضن أنفسهن للبغاء بأجر معلوم ، بينما يخلى أزواجهن لهن الجو ٠٠ وفى أجزاء أخرى من البلاد ، تنتشر عادة تسمى كوروبستاون ، يعير بها الزوج زوجته لأحضان ضيوفه ٠ وهو يضيف فى هامشة « ان هذا شيء مغولى : فان أحد قوانين الياسا (Yasa) يحظر الزنى ٠ على أن سكان كايادر التمسوا الحصول على اعفاء منه ، وحصلوا عليه ، وذلك بسبب عادتهم القديمة من اعارة زوجاتهم لضيوفهم » ٠ ص ٤٨٣ ٠

◎ هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) يشير كتاب L'hist. gèn. des Huds أن اسمه تشن تشن ، ظن بعضهم أنه تشنتشيتالاس عند مؤلفنا • وينبغى أن نلحظ أن « تالا » معناها فى المغولية التترية « السهل » وأن معنى تالاى أو دالاى هو « البحر أو البحيرة الواسعة » : واذن ، فيمكن أن تعتبر تالاس تسمية صينية ومتميزة عن اسم العلم • يقول ده جنى : « هذا الاقليم الذى يحمل فى التواريخ الصينية اسمى ليولان وشن شن ، يقع فى وسط شامي • وكان يكون فى ماضى الزمان مملكة صغيرة كانت عاصمتها كان نى تشنج وهى مجاورة لبحيرة لوب • وهذا الاقليم مجدب كله ، مليء بالرمال ، ولا يجد المرء فيه الا القليل من التربة الصالحة • وتعداد من فيه من السكان يقارب الخمس عشرة مئة عائلة • وهؤلاء الناس ينتجعون المراعى التى يغذون عليها الحمير والخيل والجمال • وهم يستمدون أغذيتهم ولوازمهم من البلاد المجاورة • وتشيع بينهم نفس عادات أهل التبت جيرانهم فى الجنوب الشرقى •• وانى لأعتقد أنه فى هذا الكانتون بالذات ينبغى وضع الولاية التى يسميها ماركو بولو باسم تشن تشن تالاس المجاورة للصحراء الكبرى ، والتى كان يقيم بها بعض النساطرة والمسلمين والوثنيين • (مج ١ جزء ٢ ص ١١) على أن فى الامكان مع ذلك الشك فى أن تشنتشيتالاس ليست كياليس أو تشياليس عند ب • جويز ، وهى التى يصفها بأنها مكان تابع لملك قشغر وليست على كبير بعد من تورفان وكامول •

(٢) عن هذا الفلز الذى ورد بالنسخة اللاتينية Audanicum أو Andanicum وفى ايطالية الخلاصات Andranico و Andronico انظر الهوامش ٤ فصل ١٤ ، ١ فصل ٢٠ •.

(٣) لا سبيل الى الشك فى أن ما تسميه النسخ المختلفة هنا بالسمندر كان فى الحقيقة هو الأسبستوس •

(والعبارة فى النص اللاتينى المبكر هى :

Et in istamontana est una alia vena unde fit Salamandra.

(والسندر أو السمندل عظايا (سحالى) خرافية زعم انها قادرة على العيش فى النار (عن المورد) •

(٤) يوصف الأسبستوس بأنه حجر محتفر يمكن شقه خيوطـــا أو ألياقا طول الواحدة منها من بوصة الى عشر بوصات ، وكلهـا دقيقـة جداً وهشة ولكنها قابلة للسحب الى حد ما ، وحريرية وذات لون مائل للرمادى • وهى غير قابلة للذوبان فى الماء ، كما أن لها الخاصـــة العجيبة وهى عدم الاحتراق فى النار • يقول المسيو برونيار : « كانت للاسبستوس فيما سلف من الزمان منافع عجيبة • فان القدماء الذين كانوا يحرقون الجثث ، كانوا يتخذون منه قماشا غير قابل للاشتعال رغبة فى الاحتفاظ برماد تلك الجثث دون أن يختلط بها شىء • وعندما تكون ألياف هذا الحجر على قدر كاف من الطول وكاف من النعومة والمرونة ، يقبل الناس على غزله خيوطا ، وبخاصة عندمـــا يخلط بالكتان • ويمكن أن ينسج منه بوجه خاص قماش له المتانة والمرونة المناسبة ، حتى ولو حرم ، بواسطة تعريضه للنار ، من الخيوط النباتية التى كانت داخلة فى نسيجه • فعندما ينسخ هذا القماش تعيد اليه النــار بريقه الأول • ــ انظر : Traité élémentaire de minéralgie مج ــ ١ ص ٤٨٢ •

● هوامش الفصل الأربعين

(١) هذا الاسم يبدو من جميع الظروف المذكورة هنا أن المقصود به هو سويتشيو ، وهى مدينة محصنة تقع فى الجزء الغربى المتطرف لولاية شن سى أو حدود الصين بتلك المنطقة • على أنها لم تكن فيما سلف تابعة للامبراطرية بل لأمة تترية مستقلة • يقول ده جنى :

« ان أشد أجزاء ولاية شن سى تطرفا نحو الغرب نظراً لأنها تكون جزءاً من بلاد التتار ، فاننا نعتقد بوجوب ذكرها هنا ، بدرجة أشد من الاشارة اليها لتوضيح أقوال ماركو بولو •• وفى عهد أسرة سووى (Soui) كان الناس يسمون هذه المنطقة بأجمعها سوتشيى ••• ثم انتقلت بعد ذلك الى سيادة شعوب توفان ، وبعد ذلك بزمن يسير استردها الصينيون ، وهى اليوم تكون جزءاً من شن سى » • (مج ١ جزء ٢ ص ٩) • وأول ملحوظة لدينا عن هذا المكان بعد زمان مؤلفنا ، هى تلك التى وردت عن سفراء شاه رخ فى ١٤٢٠ • « ان سكجيو (التى يكتبها ده جنى ، ربما عن ترجمة مختلفة ، سوكجو) مدينة عظيمة وحصينة على شكل مربع مكتمل التربيع ، فهذه المدينة اذن هى أول مدن خاناى ، وتبعد مسيرة تسعة وتسعين يوما عن مدينة كان باليك ، التى هى مقر السدة الامبراطورية ، وتفصلها عنها منطقة شديدة الازدحام بالسكان ، وذلك أن المرء ينزل فى كل يوم ببلدة كبيرة » •

انظر Relations de Thevenot مج ٢ •

(٢) الظاهر أن تغييرا كليا حدث أثناء مدة القرون الثلاثة الطويلة التى انقضت بين زمن مؤلفنا وبين عصر بندكت جويز فيما يتعلق بالسكان المسيحيين الذين لم يجد لهم أثراً : وذلك ناتج عن تغلب المسلمين فى ذلك الصقع •

(٣) لاحظ جميع الكتاب الذين كتبوا عن هذه الولايات وفرة نمو الراوند بالمنطقة الجبلية التى تشكل الحد الغربى لبلاد الصين • وستجدون فى كتابات البروفسور بالاس بيانا خاصا عن تجارة تلك السلعة ، التى يحصل عليها الروس فى كياكتا من القطر الذى نتحدث عنه ، بواسطة تجار عملاء من بخارى يقيمون فى نفس الموقع •

● هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) لو سلمنا بأن المقصود من سوير هو سوتشيو ، لاستتبع ذلك أن كامبيون ، أو كما تظهر فى الترجمات الأخرى ، كانبيون وكامبسيون ، هى مدينة كان تشيو ، وهى كام جيو عند السفراء الفرس ، وكام تشك لدى جونسون ، وكان سيو عند جويز · ويذكر جونسون أنها تبعد خمس مراحل عن الأولى (سكوير) ·

(٢) ان الأهمية النسبية لكان تشيو فيما يتعلق بسوتشيو وغيرها من مدن ذلك الجزء من شن سى ، ظلت هى هى بلا تغيير على كر العصور جميعا · ويلاحظ سفراء شاه رخ ، أن الحاكم الذى يقيم بها كان رئيسا على جميع حكام الأماكن المتاخمة ، ويقول جويز : « فى احدى هذه المدن التابعة لولاية اسكنسى وهى المسماة كانسيو ، يقيم نائب الملك مع كبار الحكام الآخرين » · (ص ٤٨٦) ·

(٣) ليس زوال هذه الكنائس فى مدى ثلاثة قرون ، أو حتى فى زمن أقصر كثيرا ، والراجح أنها كانت مبنية من الخشب ، حجة على عدم وجودها فى زمن مؤلفنا · ولم يحصل الجزويت على موطئ قدم بالصين الا فى نهاية القرن السادس عشر ، حيث بدءوا البحث فى موضوع انتشار المسيحية مرة أسبق فى ذلك الصقع من العالم · وفى أثناء تلك المدة حدث انقلاب تام فى الحكومة الصينية ، حيث خلفت أسرة يوان أو الأسرة المغولية التترية ، التى تميزت بتسامحها ــ أو عدم اهتمامها ــ ازاء الشئون الدينية ، ــ أسرة منج الوطنية ، التى كان أمراؤها متأثرين بسياسة مخالفة ، فحرموا اللامات والقساوسة المسيحيين من حماية القانون ، منذ كان المظنون أن أسلافهم كانوا شديدى التعلق بهاتين الطائفتين · وفى قريب من تلك المدة أيضا ، نشط المسلمون للعمل ، بعد أن كثروا بقشغر وغيرها من الأماكن الواقعة على حافة الصحراء ، ــ ونجحوا فعلا كما هو واضح فيما بذلوا من محاولات للقضاء على منافسيهم · ويرسم جويز صورة قوية للتعصب الوقح لهؤلاء المتعصبين فى المدن التى اخترقها طريقه ، من هندوستان ، بطريق لاهور وكابول ، الى الصين ·

(٤) يبدو أنه فى جميع الأقطـار التى تنتشر فيهـا عقيدة بوذا ، يكون من دلائل الخيرة الدينية ، اقامة تماثيل له ذات ضخامة هائلة ، مع طلائها بالذهب فى أحيان غير قليلة وتلك هى القاعدة التى نجدهـا مرعية باليابان وسيام وآفا ، فضلا عن بلاد التتار والصين • وشاكاموني هو أحد الأسماء الهندوكية لبوذا • ويتحدث البروفسور جـــربيتون أيضا الذى صحب امبراطور الصين فى رحلته الى بلاد التتار ، عن التماثيل الهائلة ، التى ظهر حين قيس أحـدها بآلة المربع ، أن ارتفاعه يبلغ سبعة وخمسين قدما صينيا •

(٥) مع أن تماثيل بوذا تمثل غادة جالسة القرفصاء ، وسيقانهـا متربعة ، فان بعض هذه التماثيل المهولة تمثل فى وضع مضطجع ، كمـا أنها محوطة بتماثيل فى وضع صلاة أو تحية ، ويذكر السفراء الذين زاروا هذه المدينة فى ١٤٢٠ ، أوثانا من نفس ذلك النوع الخارق ، كما أنهم يؤكدون بطريقة أخاذة صدق أقوال مؤلفنا • يقول كوردنر فى كتابه Description of Ceylon : « فى كل معبد متكامل ، يوجد تمثـال هـائل لبوذا فى وضعة اضطجاع ، فضلا عن عدد ضخم منها بين جالســة وواقفة ، وكلها لا تزيد عن الحجم الطبيعى » • مج ١ ص / ١٥٠ •

(٦) يقول ترنر متحدثا عن الهيئات الدينية فى التبت : « ان مشغلتهم الأساسية تنحصر فى أداء فرائض عقيدتهم • وهم معفون من العمل ، ويفرض عليهم قلة الطعام والامتناع عن المسكرات • ويحظـر عليهم كل اتصال بالجنس الآخر » • ص ١٧٠ • وطبقا لما ورد فى : Chines Dictionary لموريسون : « يتلقى كهنة طائفة فوه أوفو (الذين يلقبون هوشنج وسلنج شامون) السنن الخمس التالية : ألا يقتلوا الكائنات الحية ، ألا يسرقوا ولا ينهبوا ، ألا يأتوا الفاحشة والزنى ، ألا يقولوا الكذب ، ألا يشربوا خمرا » • ص ١٥٧ •

(٧) يقول ترنر : « ان نفس الخرافة ، التى تؤثر فى رأيهم فى شئون العالم ، تتغلغل بالمثل فى حساباتهم العامة • وعلى هذا المبدأ يؤسسون تقويمهم العام للزمن • وبين يدى الآن أحد تلك التقاويم ، وعندى على قدر ما أفهمه فيه بناء على ما شرح لى أن ميزته الكبرى تنحصر فى احتوائه خلاصة للأوقات السعيدة والمنحوسة » • ص ٣٢٠ •

(٨) لم يحدث حتى الآن فى سياق الكتاب ، أن كانت أقوال مؤلفنا المباشرة على مثل هذه الدرجة من الاختلاف مع المعلومـات الحديثـة ، كما حدث فى هذه المسألة من انتشار عادة تعدد الزوجات بين سكان تانجوت • ويخبرنا بوجل بعبارة قاطعة أنه لا وجود لتعدد الزوجـات

ببلاد التبت ، بالمعنى الذى نتلقى به هذه الكلمة عـادة ، ولـكنه يوجـد بطريقة كريهة أكثر للآراء الأوربية ، فى تعدد الأزواج ، وأن من المألوف أن تكـون للاخوة فى عـائلة زوجـة مشتركة انظـر (Phil. Trans.) مج ٦٧ ص ٤٧٧ ، وانظر كراوفورد Sketches مج ٢ ، ص ١٧٧) ٠ وهذا ما يؤكده ترنر حيث يقول : « ان عدد الأزواج ـ على مبلغ علمى ـ غير محدود ولا مقيد بأية حدود ، فيحدث أحيانا ألا يكون هناك فى عائلة صغيرة الا أنثى واحدة ، وقلما تجاوز العدد ذلك فيمـا يحتمـل ، وهو أمر أوضحه لى وجيه له مكانته من الأهالى أثنـــاء اقـــامتى فى تيشولومبو ، فى عائلة مجاورة له ، فهناك كان خمسة أشقاء يعيشون جميعا ـ بسعادة بالغة مع أنثى واحدة مرتبطين واياها برباط زواج واحد ٠ وليس هذا النوع من الارتباط بقاصر على الطبقات الدنيا من الناس وحدها » ٠ (ص ٣٤٩) ولسنا نستطيع أن نعارض هـذا الاسـناد الا بالملاحظة المحددة التى أوردها المسيو بالاس حيث يخبرنا أن تعـدد الزوجات ، وان كان محرما دينا ، ليس بالشىء النادر بين كبار القوم ٠ (انظر « Neue Nordische Beiträge » مج ١٠ ص ٢٠٤) ٠ ومع هذا فان المسافة بين لهاسا وخان تشيو تبلغ من الضخامة (اذ هى تقارب عشر درجات عرضية وثمانى طولية) بحيث انه وان كان سكان كل منهمـا ، وكذا الشطر الأعظم من بلاد التتار ، يتبعون نفس العبادة الدينية ، فانه يمكن أن تقوم بين المكانين فروق جوهرية فى عاداتهم المحلية ٠

(٩) مما يسترعى الأنظار ان جويز ، وان كان مبشرا ، سافـــر متنكرا فى صفة تاجر أرمنى ، ـ أعيق بالمثل عن الرحيل هنا ما يناهــز العام بمدينة سوتشيو المجاورة ٠ ويظهر أن ترتيبات الشرطة ونظمها ، كانت تستلزم آنئذ كما يحدث فى أيامنا هذه ، الحصول على اذن من بكين للأعراب قبل السماح لهم بدخول البلاد ٠

● هوامش الفصل الثاني والأربعين

(١) الآن وقد وصل مؤلفنا الى حدود الصين الشمالية ، وتحدث عن مكانين يقعان داخل خط ما يسمي بالسور الأعظم (ولكن سيتضح بعد هذا أنه مكون فى هذا الجانب من ركام من التراب فقط ، وليس هو بالعمل البنائى الحجرى الهولة الذى ينعت به السور فى التخوم الشمالية) ، يكف عن متابعة طريق مباشر ، وينتقل الى بيان عن أماكن تقع الى الشمال والجنوب منه التتار ، ويقع بعضها مجاوراً والبعض الآخر فى أرجاء بعيدة من بلاد التتار ، وذلك حسب المعلومات التى يحصل عليها فى مختلف المناسبات • كما أنه لا يمدنا فى سياق الكتاب بأية فكرة واضحة عن خط السير الذى اتخذه عند دخوله الى بلاد الصين ، برفقة أبيه وعمه ، فى طريقهم الى بلاد الامبراطور ، وان كانت هناك أسباب تحملنا على الاعتقاد ، بناء على ما يحدث فى الفصل ٥٢ ، بأنه سافر من كان تشيو الى سيننج (التى يسميها البروفسور بالاس سيلين) وهناك التقى بالطريق الكبير الممتد من التبت الى بكين • وهنا يتخذ وصفه طريقا شماليا الى مكان يسمى أيزينا يقوم على نهر صغير يجرى بجوار كان تشيو نحو صحراء كوبى الكبرى ، التى كان قد عبرها قبل ذلك فى منطقة أضيق وغربية أكثر • وهذه المدينة معروفة لدينا من عمليات جنكيز خان العسكرية ، الذى استولى عليها عندما غزا سانجوت فى ١٢٢٤ حسبما يروى بتيه ده لاكرواه ، أو ١٢٢٦ حسب رواية ده جنى ، وجعلها مدة من الزمن مقر القيادة العليا لجيشه •

(٢) الأرجح أن حمار الوحش ، المذكور هنا ، هو الذى يسميه رجال الارساليات التبشيرية بغير تدقيق ، بغل الوحش ، ويصفونه بأنه يقطن هذه المنطقة الصحراوية • وحمار الوحش أو الأخدر هو ما يسميه (كارل) لينوس .Linn (عالم النبات السويدى فى تصنيفاته) • equus asinus كما أن الحيوان المسمى ببغل الوحش هو « equus hemionus » .

● هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) الأصح أن يكتب اسم هذه المدينة قرقورم ، وان وردت قراقورم كثيراً (ومعناها الرمل الأسود) • وتسمى عند الصينيين هولين وهى تقابل كورين فى النطق التترى • وقد بناها أو قل أعاد بناءها أوغداى أو (أقطاى) خان ، ابن جنكيز خان وخليفته قرابة عام ١٢٣٥ ، واتخذها مانكو (أومانجو) خان مقرا لحكمه وانقضت قرون عدة دون أن توجد أية آثار لوجودها ، ولكن مكانها مدون فى قوائم يوليغ بـك Uligbeig وكذلك فى خرائط الجزويت ودانفيل • وزارها وليم ده روبر وكير فى عام ١٢٥٤ ، وهو راهب صغير أرسله مع جملة من رجال الدين لويس التاسع ملك فرنسا فى بعثة عامة الى أمراء التتار • والبيان الذى يدلى به عنها لا يحمل الينا فكرة كريمة عن أهميتها كمدينة وكذلك شأن وصفه للبلاط والحالة الحضارة التى بلغها هؤلاء الغزاة ، بيد أن بيانه بأكمله ينم عن مسرف التحيزات التى يمتلىء بها عقل سوقى •

۞ هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) يبدو أن ما يمكن اعتباره الاقليم الصحيح - وان لم يكن أقدم موطن للمغول - (المغل) كما يسميهم الفرس ، والمنغال كما ينطق الاسم في الأصقاع الشمالية من آسيا ، بما في ذلك الكلموك او الاليوت والبورات والحلكاس) ، هو تلك الشقة من الأرض التى تقع بين المجارى العليا لنهر عامور شرقا ومثيلاتها مجارى نهرى يانيساى Yanisci والارتش ، ومعها سلسلة جبال آلتاى غربا ، ويقع فى شماله بحيرة بايكال وفى جنوبه الصحراء الكبيرة ، التى تفصله عن اقليم تانجوت ومملكة الصين ، حاويا داخل تلك الحدود نهر سالنجا ، الذى يقع على مقربة منه ، فى الجزء الأول من القرن الماضى ، محطة أو مخيم اورجا « Urga » التابع للتوش دوخان اى أمير المنغال العصرى • ولا يمكن تحديد الموقع الدقيق لسهول جيمورزا أو جورزا أو جورجا ربارجو • وتحوى خريطة استراهلنبرج منطقة مجاورة للشاطىء الجنوبى لبحيرة بايكال تسمى « كاميوس بارجو » ، ولكن الظروف تقودنا الى الذهاب الى أن الأماكن المذكورة هنا تقع الى الشمال اكثر ، كما ان اسم بارجو يظهر فى خريطة دانفيل فى الجانب الشمالى الشرقى من تلك البحيرة • وحسبما يروى كلابروث فان الاسم الذى يسمى به التتار شعب المانشو (الذين يعدهم ذلك الكاتب نفس جنس التونجوزى) ، هو تشور تشور أو جورجور وهو الذى يكتبه أبو الغازى جورجيت Jurgit، فهؤلاء يبدو أنهم هم قبائل الجورزا عند مؤلفنا ، ويمكن أن تكون جزيرة زورزا (التى كان ينفى اليها المجرمون) ، والتى ورد ذكرها فى الكتاب الثالث ، الفصل الثانى ، ربما كانت هى التى تقع خارج مصب نهر ساجاليينولا اى نهر عامور •

(٢) هذا الأمير الشهير ، الذى يسميه مؤلفنا أو مكان ، أو أون خان (ان جاز لنا أن ندخل تصحيحا مسموحا به لهجائه ، والذى يسميه المؤرخ أبو الفرج ابن العبرى) انج خان ، كان رئيسا لقبيلة كيرائت أو كرريت وكان يحكم فى قره قورم ، التى أعاد بناءها بعد ذلك أوغداى ، فاصبحت من ثم عاصمته وكذا عاصمة مانكوخان خليفته • ويبدو أنه كان أقوى الرؤساء فى ذلك القسم من بلاد التتار وكثيرا

ما يلقب فى تواريخ زمانه بلقب الخان الأعظم · على أن البروفســور جويل ومن يتبعون الاسناد الصينية ، يعدونه تابعا اقطاعيا لامبراطور نيوتشيه التترى المدعى آلطوم خـــان ، من أسرة كن Kin الذى كان فضلا عن حكمه ، مملكتيه لياوؤتانج وكوريا ، يحكم ايضـــا الجـــزء الشمالى من الصين أى كاتايا · وهم يؤكدون أكثر من ذلك أن تسميتــه باسم أوونج هان – كما يكتبونها – ليست ســـوى اللقب الصينى أوانـــج اوفنـــج Vang (اى الملك Regulus ، وهو اللقب الذى انعم به عليه العــاهل الأكــبر ، جزاء له على خدماته الممتــازة ، واضافه قبل لقبه الوطنى « خان » ، حيث كان اسمه الأصلى طغرل · وطبقا لرواية ج · ر · فورستر ، المستقاة من كتاب فيشر(Hist. of Siberia) « فانه كان يحكم الكارايتيين Karaites ، وهم قبيلة تسكن قرب نهر كالالسوى (كاراسيبى) ، الذى يصب مياهه فى نهر أباكان ثم يصب بعد ذلك فى نهر جنيسى Jenisea ، وهنا يسكن القرغيز الى يومنا هذا ، الذين فيهم قبيلة يسمونها الكارايتيين » · انظر Voyages, etc. ص ١٤١ ·

(٣) مهما يلصق من السخف والسخرية بهذه التسمية العجيبة « القس يوحنا » بريستر أو برسبيترجون اذ تطلق على أمير تتارى ، فانها لا ينبغى أن تضم الى حساب مؤلفنا الذى كان عمله مجرد نقـل وتكرار ، وفى حدود حيطة خاصة ، لما كان دارجا على الألسن بكـــل أرجاء أوربا وبين مسيحيى سورية ومصر حول هذه الشخصية الكهنوتية الوهمية وان كانت لشخص حقيقى وهو لا يقيم هنا تأكيدا لأى شىء على أساس معرفته الخاصة بالأمر ، وكان المفهوم أن الأعمال المروية هنــا حدثت قبل الزمن الذى كتب فيه المؤلف بقرن كامل ، وهو حين يتحدث عنها يستخدم دائما تعبيرا حذرا هو « Come intesi » (وخير مرجع للمعلومات عن موضوع بريسترجون يوجد فى مقدمة كتاب تأليف الأخ جان دى بلان دى كوبان ، بقلم المسيو دافيزاك) ·
« Relation des Mongols ou Tartares ».

(٤) ينسب مؤرخو الفرس والعرب هذا الابراز لعنصر الاستقلال الى روح الاقدام ، والمواهب العسكرية التى اتصف بها تيموجين (المسمى جنيكز خان فيما بعد) ، الذى أصبح بعد أن قضى ثمانية عشر عامــا فى خدمة انج خان ، موضع غيرته واضطر الى المعالجة بقرار سريع انقاذا لحياته · ولما تكللت بعض معاركه الجزئية التى أعقبت ذلــك بالنجاح ، زادت من أعداد المتعلقين به ، فانسحب ، بجيشه الصغير ، الى بلاد المنغال ، التى هو أحد أبنائها · ولقى هناك ترحابا ، حمله على أن يوحد معهم خططه فى الانتقام من أعدائه ·

⊙ هوامش الفصل الخامس والأربعين

(١) يظهر أن مؤلفنا أخطأ هنا فى سنة مولد جنكز أو جنكيز خان (الذى يجعله بعضهم فى ١١٥٥) فخلط بينه وبين عام ارتقائه العرش • اذ لم يذكر حتى عام ١٢٠١ أنه تولى قيادة جيوش المنغال ، ولا ورد حتى ١٢٠٢ حسب رواية الاسناد التى أخذ عنها بتيه ده لاكرواه ، ولا حتى ١٢٠٦ حسب ما أورده ده جنى ، أنه نودى به خـــانا أعظم أو امبراطورا • وفى نفس تلك المــدة غير اســمه الأصلى من تيموجين الى الاسم الذى عرف به بعد ذلك • وتعطينا النصوص اللاتينية وغـــيرها تاريخ ذلك على أنه عام ١١٨٧ •

(٢) وفى بلاط حفيد جنكيز خان كون رفولفدينا فكرة ملؤها التقدير المفرط فى فضائل هذا الرجل الفذ ـ وان عساها لم تكن عن مواهبـــه العسكرية ـ وهو الذى ينبغى أن يعد سوطا من سياط العذاب التى حلت بالبشرية ، والتى تسلط عليها من حين الى آخر كالطاعون أو الوباء أو المجاعة وتملأ العالم بالخراب •

(٣) الواقع أنه حسبما روى المؤلفون الذين استقى منهم بتيه ده لاكرواه ، فان تيموجين كان متزوجا بالفعل من ابنة أونج خان ، عندما أبعدته مؤامرات منافسيه عن بلاط حميه بعد أن أدى له خدمات عسكرية على أعظم جانب من الأهمية •

(٤) اسم هذا السهل الذى ورد تندوتش فى النص اللاتينى القديم ونسخه راموسيو ، كما ورد تندوك فى طبعة بال ، هو تانجـــوت فى الخلاصات الايطالية • وربما كان الاسم الأخير خطأ ، كما أن من المؤكد أنه لا يصح الخلط بين هذا المكان وبين تانجوت التى سبق ذكرهـــا باعتبارها مرتبطة بالتبت ، ولكن هنــاك اســبابا قوية تحملنا على الظن بأن مؤلفنا انما قصد الاقليم المسمى تونجوس (وهو اسم بينه وبين تانجوت مشابهة غير هينة) ، الذى يقع قرب منابع نهر عامور ، والى جوار بحيرة بايكال ، والتقى الجمعان ـ حسبمــا يــروى ده جنـــى والبروفسور جليل ـ بين نهرى تولا وكرلون،حيث دارت منذ ذلك الحين• رحى معارك تترية أخرى ضروس ، نجمت كما قد يتبادرالى الذهن عن كون الظروف المحلية مناسبة لتحركات جموع ضخمة من الخيالة •

(٥) طريقة التنبؤ بالغيب بواسطة ما يسميه الفرنسيون بعصى العرافة Baguettes معروفة ببلاد الشرق · فان بتيه ده لاكرواد عند تقديمه فى نصه هذه الحكاية عن « العصا الخضراء » نقلا عن عمل مؤلفنا ، يقرر فى هامشه : « عملية العصى هذه كانت مستخدمة عند التتار ، كما أنها لا تزال موجودة فى الوقت الحاضر عند الأفريقيين ، وعند الترك ، وشعوب أسلامية أخرى » ص ٦٥ ·

(٦) لم يذكر أحد من المؤرخين هذه الحادثة التى يقال هنا انها وقعت لجنكيز خان ، كما أنه ليست هناك دلالة تبين ما المقصود بمكان اسمه ثايجن · ويقال انه – على عكس ذلك – مات حتف أنفه (أعلى فراشه) مصابا بمرض فى ١٢٢٦ ، بعد سقوط مدينة لن تاو بقليل ، وهى مدينة فى ولاية شن سى التى كان تراجع عنها ، بسبب سوء أحوال الهواء فى المكان الذى كان جيشه معسكراً فيه الى جبل يسمى ليوبان · على أنه لا يجوز لنا أن نستنتج أن مؤلفنا على خطأ ، أو أن جنكيز لم يصب بجرح ربما تسبب فى جو وبىء فى وفاته و عجل بها ·

● هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) أما وقد جاء هذا البيان عن خلفاء جنكيز خان ، أقل دقـــة بكثير مما قد يتوقع من رجل أقام عدة سنين كثيرة فى خدمة حفيده ، فليس من غير المعقول أن نفترض ، أن بعض الأسماء الأعجمية لهـــؤلاء الأمراء ربما تكون حذفت ، كما شوهت أسماء أخرى على يد النساخ الأول : ومما يزيدنا يقينا فى هذا الظن ، أننا نجـد الأسمـــاء مختلفة اختلافا بينا فى الترجمــات المختلفــة ، وبـدلا من أســماء تشين وباثين وايسو الواردة في طبعة راموسيو ، نجد فى أحد النصوص : كـــوى وبارتشيم وآلاءو ، وفى آخر كاركى وسايم وروكون · وهم لا يكادون يتفقون جميعا الا فى اسم مونجو أو مانجو فقط · وسأذكر على اعتبار انها اشد طرق التبين تأثرا وهى فى بعض الحالات أشدها قدرة عـلى التوفيق بين المتناقضات ، ــ عملية الربط القائمة على سند المؤرخين ، وأقارن بها القوائم المشوشة التى تنسب الى مؤلفنا · وكان لجنكيز خان، الذى مات حوالى ١٢٢٦ ، أربعة أبناء ، أسماؤهم جـوجى وجغتاى وأوكتاى (أوغداى) وتولى ، ومات من هؤلاء جوجى أكبر الأبناء الذى تسميه بعض الروايات توشى ودوشى ، فى حياة جنكيز مخلفا وراءه ولدا يدعى باتو ، ويسميه المؤلفون المسلمون أيضا سايين خان وساجين خان · فورث ، كحق لوالده ، ذلك الشطر من الامبراطورية الذى كـان يضم القبشاق وأقاليم أخرى تقع الى جوار نهرى الفولجا والدون ، كما أن فتوحه فى جنبات الروسيا وبولندة وهنغاريا ، جعلته مصدر رعب لأوربا كافة · ولم يتبوأ سدة منصب الخان الأعظم المهيبة أى رئيس الأسرة ، وتوفى فى ١٢٥٦ · ومن الجلى أن هذا الشخص هو من سمى باثين فى ترجمة واحدة للنص وسمى سايم فى أخرى ، على أن بارتشيم فى ترجمة ثالثة يبدو أن المقصود منه هو بركة ، أخوه وخلفه فى عرشه · أما جفتاى أو زاجاتاى ، فكان نصيبه من ممتلكات أبيه ، الاقاليم الواقعة وراء نهر جيحون ، وهى التركستان ، أو ــ كما سميت منذ ذلك الحين ــ بلاد التتار الأوزبكيين · وتوفى فى ١٢٤٠ ، دون أن يتولى هــو أيضا المنصب الامبراطورى · وقد حذف أسمه هنا وان ورد عنـد مؤلفنـا فى مواطن أخرى ، وهو تصرف كان بناء على هذا الاعتبار يكون سليمـا

لو أن اسم باتو لم يذكر • ونادى جنكيز نفسه بابنه الثالث أكتاى أو أغداى خليفة له وخانا أعظم ، أى رئيسا أعلى للأسرة مع اللقب الجديد كاآن • وكان نصيبه الخاص من الامبراطورية هو الوطن الأصلى للمغول أو المنغال أو المغل ، بما يتبعه من أقطار ، وكذا مملكة تتار النيوتشيه ، وهى تحوى كل ما تم فتحه حتى آنذاك من الصين الشمالية • ويعد اغفال اسمه كلية ، وهو من أبرز رجال العائلة وأشدهم تميزا ، وبخاصة فى حروب اقليم الصين الشمالية سالفة الذكر • وقبل وصول مؤلفنا لا تزيد عن خمسة وثلاثين عاما ، ــ أمرا فى غاية الغرابة ، لو نسب الى الجهل أو ضعف الذاكرة من قبله • وتوفى أكتاى فى ١٢٤١ وخلفه فى المنصب الامبراطورى (بعد فترة وصاية لسيدة دامت خمس سنوات) ــ ابنه كايوك أو جايوك ، فلم يحكم الا سنة واحدة وتوفى ١٢٤٨ ويدعوه بلانوكاربينى ، وهو راهب صغير (أرسله البابا اينوسنت الرابع الى بلاط باتو) ، باسم الدوق باتو أو باشى ، فأرسله الأخير الى جايوك ، وسيده ومولاه ، وقد تم انتخابه وشيكا آنذاك ، باسم كوينه ، كما يسميه الصينيون كى يو ، ويسميه مؤلفنا تشين أوكوى ، حسب اختلاف القراءات • فأما الابن الرابع لجنكيز الذى كان اسمه تولى أو تواونى فمات فى ١٢٣٢ ، فى أثناء حكم أخيه أكتاى ، مخلفا أربعة أبناء أسماؤهم : مانكر وقبلاى وهولاكو وارتجيغا ، فضلا عن آخرين ذوى شهرة تاريخية أقل • وانتخب من بين هؤلاء مانكو أو مونجو فى ١٢٥١ ليخلف ابن عمه جايوك خانا أعظم ، وذلك بوجه رئيسى بفضل نفوذ ومساندة باتو ، الذى كان له حق أكبر فى ادعاء العرش بوصفه ابنا لأكبر الأبناء ولكنه لسبب ما يبدو أنه لم يتخذ لنفسه ذلك اللقب • وكان من أوائل الأعمال التى فعلها مانجو أن أرسل هولاكو (من قره قورم عاصمته) على رأس جيش لجب ، مكنه من اخضاع اقاليم خراسان وفارس وبلاد الكلدان (أو كلدانيا) وقسم كبير من سورية • وأسس أسرة المغول الفارسية العظيمة • ولم تلبث تلك الأسرة حتى خلعت عن كاهلها بعد بضعة أجيال ، تبعيتها ، التى كانت اسمية أكثر منها فعلية ، لرئيس الامبراطورية الأعلى • ويبدو أن اسم هولاكو ، الذى يلين الى الاءو وهو نفسه الاسم الذى يحرف هنا أكثر الى ايسو ــ (نتيجة لخطأ فى حرف) بدلا من أيلو • وهو فى الترجمة اللاتينية لنفس الفقرة يرد آلاءو • وتوفى مانجو (مانكو) فى ١٢٥٩ أو (١٢٥٦) بولاية سى تشوين بالصين ، وهو مضطلع بالحرب فى ذلك الاقليم • وليس حول أسمه أى لبس • وتولى قبلاى ، الذى كان فى نفس المكان ، قيادة الجيش ، ولم يلبث طويلا حتى انتخب خانا أعظم ، وان لقى ذلك معارضة

شديدة من جانب أخيه ارتجيغا ، الذى كان يلقى تأييدا قويا ، وتجـرأ على رفع اللواء الامبراطورى بقره قورم · وتقـدم قبـلاى فى ١٢٦٨ لاخضاع مملكة مانجى أو بلاد الصين الجنوبية ، وكانت تحكمها فى ذلك الحين أسرة سنج ، فتم له الاستيلاء على عاصمتهم هنج تشيو فى ١٢٧٦ وضم الدولة كلها الى امبراطوريته فى ١٢٨٠ ، وهى السـنة التى جعلت بداية لحكمه امبراطورا للصين ، فى « الحوليات التاريخيـة الصينية » ، التى يرد فيها تحت لقب بوون تشى تسو · وتوضع وفاته فى أول ١٢٩٤ ، وهو آنئذ فى الثمانين من عمره · وهـو خامس خـان أعظم فى هذه العائلة ، وبعد وفاته لم يعد أحفاد الجـد الأعلى المشـترك للجميع ، الذين يحكمون الولايات الواقعة فى الغرب والجنوب ، يعترفون بأى عاهل أعلى ·

(٢) لما كان قبلاى انتخب خانا أعظم فى ١٢٦٠ وتـوفى فى ١٢٩٤ ، فان حكمه بلغ بالضبط أربعة وثلاثين عاما ، ولكن نظراً لأنه عين نائب ملك لأخيه مانكو ببلاد الصين ، منذ ١٢٥١ ، فان فى الامكان اعتبار أن مدة حكمه دامت ثلاثا وأربعين سنة ، ولعله عمل هناك فى قيادة الجيوش ابان فترة أقدم من ذلك أيضا · ومع هـذا فان تأكيد أنه حكم ستين عاما لا يمكن تبريره ، ولا بد أنه نتج عن غلطة أو تحـريف لأوضاع الأرقام التى كان ينبغى فى الحساب اللاتينى أن تكون XL بدلا من LX أى ٦٠ ·

(٣) كان وجود تلك العادة الفظيعة لدى التتار المغوليين موضـع شك · على أن : « الحوليات التاريخية الصينية » لا تخلو من حالات لممارسة ذبح الأضاحى فى الجنازات ، وأننا لنجد أنه حتى فى عام ١٦٦١، أمر الامبراطور التتارى شن تشى بتقديم قربان آدمى عنـد وفـاة خليلة له أثيرة · يقول البروفسور كوبليه :

« Voluit tamen », « triginta hominum spontanea morte placari manes concubinae ritu apud sinas exerundo, quem barbarum morem successor deinde sustulit ».

انظر (Tab Chronologica Monarchiae Sincae)

وفى البيان عن فتح الصين على يد تتار المانتشو ، الذى كتبه الراهب الجزويتى مارتينوس ورد أن ملك المانتشو ، لبين منـج ، أقسـم ، حين غزا الصين للانتقام لمقتل أبيه ، أنه ، جريا على عادة التتار ، ليحتفلن بجنازة الملك المقتول بذبح مائتى الف صينى · وهذا يؤيد رواية ماركو

بولو بدرجة رائعة · ويختلف عدد الذين ذكر أن من رافقـــوا جنازة مانكو خان ضحوا بهم اختلافا جسيما في الترجمات المختلفة ، كما أنه يرفع في الخلاصات الى ٣٠٠٫٠٠٠ · وتجعله نسخة مارسدن يبلـــغ العشرة آلاف ، بيد أن المخطوطات المبكرة تبدو أنها تؤيد العدد الوارد في نسختنا هذه ·

● هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) يدور حول هذه الهجرة الدورية لقبائل التتار قدر كبير من سوء السمعة ، بحيث لا يكاد بيان مؤلفنا عنها يحتاج الى ما يؤيده من أقوال الثقات ، على أن القارىء سيجد الفقرة التالية من دوهالد منطبقة عليهم بصورة تفصيلية : « يعيش جميع المغول أيضا على هذا المنوال ، حيث يتجولون هنا وهناك مع قطعانهم ويقيمون مخيمين فى الأماكن المناسبة لراحتهم والتى يجدون فيها أجود أنواع العلف ، وهم يتواجدون فى العادة صيفا فى أماكن مكشوفة قرب بعض الأنهار أو بعض البرك ، فان لم يجدوا فالى جوار بعض الآبار : وهم فى الشتاء يلتمسون الجبال والتلال أو هم على الأقل يستقرون خلف أحد المرتفعات التى تدرأ عنهم ريح الشمال الشديدة الزمهرير بتلك الأصقاع ، ويزودهم الثلج بالماء الذى ينقصهم · ويقيم كل ملك فى قطره ، بغير أن يكون مسموحا له ولا لرعاياه بالذهاب الى أراضى الآخرين ، ولكن يمكنهم فى الاتساع الأرضى الذى يمتلكونه أن يخيموا حيث يشاءون » (ج ٤ ص ٣٨) · يقول ألفنستون : « يسمى المقام الصيفى أيلاوك » والمقام الشتوى « كشلاوك » وهما كلمتان اقتبسهما الأفغان والفرس كلاهما من التتار » · انظر Acc. of Caubul ص ٣٩٠ ·

(٢) اليكم وصف بل Bell للخيام كما شاهدها بين الكلموك ، المخيمين قرب نهر الفولجا : « أقام التتار خيامهم على امتداد ضفة النهر · وهى خيام ذات شكل مخروطى ، وهناك عدة أعمدة طويلة ترفع مائلة أحدها نحو الآخر ، وهى تثبت فى القمة فى شىء يشبه الطوق ، الذى يشكل محيط فتحة لطرد الدخان أو ادخال النور ، وقد وضعت عن القضبان بعض العصى الصغيرة التى يتراوح طول الواحدة منها بين أربعة أقدام أو ستة ، وهى مثبتة على العمدان بسيور من جلد · ويغطى هذا الاطار بقطع من اللباد المصنوع من الصوف الخشن والشعر · وتؤلف هذه الخيام مأوى أحسن من أى نوع آخر . كما أنها مصممة بحيث تنصب وتفك وتطوى وتحزم بغاية اليسر والسرعة ، وهى من الخفة بحيث يحمل بعير خمسا أو ستا منها » · (ج ١ ص ٢٩) انظر أيضا دوهالد ·

(٣) « وعندما ينزلون بيوتهم (من فوق عرباتهم) يديرون وجه الأبواب نحو الجنوب دائما • انظر (Purchas, Journal of Rubruquis) مج ٣ ص ٣) ويبدو أن فتح الباب نحو الجنوب هو العادة الشائعة ببلاد التتار : بكل من البيوت الثابتة والمتنقلة ، وذلك للتحسوط بقدر الامكان من شر الرياح الشمالية • وسيرى القارىء فيما بعد أن هذه العادة نفسها لا تزال باقية فى الولايات الشمالية للصين •

(٤) وهم يصنعون نوعا من سلال مربعة من عصى صغيرة رفيعة، بلغ حجم الصناديق الكبيرة ، ومن جانب الى آخر يشكلون غطاء مجوفا من نفس هذه العصى وينشئون بابا فى الناحية الأمامية من السلال • ثم يغطون الصندوق المذكور أو المنزل الصغير باللباد الأسود المدهوك بالشحم أو لبن الغنم لمنع تسرب المطر من خلاله ، ثم يزخرفونه أيضا بالطلاء أو الريش • وفى هذه الصناديق جميع أدواتهم المنزلية وثرواتهم • ثم انهم أيضا يربطون هذه الصناديق ربطا وثيقا على عربات أخرى تجرها الجمال » • انظر Purchas ، مج ٣ ص ٣ •

(٥) هذه العادة من تكليف الرجال النساء بادارة شئونهم التجارية، يؤيدها البروفسور جربتون ، الذى صحب الامبراطور كانغى فى حملاته • (انظر دوهالد ج ٤ ص ١١٥) • ويلاحظ ألفنستون بالمثل وهو يتحدث عن قبيلة ببلاد الأفغان ، تسمى قبيلة حازورة ، وهو يعدها بقية متبقية عن جيش تترى ترك هناك ، « ان الزوجة تدير البيت ، وتعنى بالممتلكات ، وتقوم بنصيبها فى أداء مظاهر الحفاوة ، كما أنها تستشار كثيراً فى كل مشروعات زوجها » • انظر Acc. of Canbul ، ص ٤٨٣ •

(٦) « على هذه التلال (القريبة من نهر سلنجا) اعداد ضخمة من حيوان يسمى المرموط (Marmot) له لون ضارب للسمرة (للبنى) ، وله أقدام كأقدام الغرير (Badger) ، ويكاد يعدله فى الحجم • وهو يحفر جحورا عميقة فى منحدرات التلال ، ويقال انه يقضى ردحا معينا من الشتاء داخل هذه الجحور حتى لو بغير تناول أى طعام • ومع هذا فان الحيوان يجلس أو يكمن قرب وجاره ، وهو يراقب ما حوله مراقبة دقيقة ، حتى اذا اقترب خطر رفع نفسه على قدميه الخلفيتين ، وصفر صفيراً عاليا ، ثم توارى فى جحوره على الفور » • (انظر Bell's Travels مج ١ ص ٣١١) • ويتطابق الوصف الذى أورده دوهالد عن الحيوان على خير وجه مع بيان مؤلفنا : « ان هذا الحيوان (الذى يعادل فى حجمه السمور الأبيض (القاقم (Ermine

انما هو نوع من فأر الغيط · وهو شديد الانتشار فى بعض أرجاء معينة من بلاد كالكاس · ويظل التلبى « Tael-pi » تحت الأرض حيث يحفر مجموعة فيها من الأنفاق الصغيرة بقدر الذكور التى فى السرب : ويوجد واحد منها فى الخارج على الدوام ، ليقوم بالعسس والترقب ، ولكنه يفر ما أن يرى أى انسان ، ويسارع الى الدخول الى الأرض بمجرد أن يقترب أحد منه ·· ويمكن الحصول فى وقت واحد على عدد كبير منه » · (ج ٤ ص ٣٠) ·

(٧) ان هذه الكلمة التى كتبت هنا كيمورس « Kemors » وفى النسخة اللاتينية : Chuinis and Chemins هى ما يسميه الرحالة الآخرون كميز أو كموز (Kimmuz) وتنطق باللهجة السوقية كوزموس · وهى من تحضير من لبن الأفراس ، يجعل فى حالة تخمير بالتسخين ، ويضرب فى قربة ضخمة من جلد (بقصد فصل الزبد عنه ، فيما يبدو) ويجعل بهذه العملية مسكراً الى حد ما · وهو يتحمل وهو فى هذه الحالة ، الاحتفاظ به لعدة أشهر ، وهو الشراب الأثير لدى جميع قبائل التتار · ويلاحظ ألفنستون قائلا : « ان الشراب القومى للأوزبك هو الكيز ، وهو شراب مسكر ، من المعروف جيدا أنه يجهز من لبن الأفراس » · (ص ٤٧) · هذا الكحول (المستقطر) ، وان أنتج من نفس المواد ، ينبغى التمييز بينه وبين الكموز الذى يخلط بينه وبينه بعض الكتاب · ويزودنا روبروكر ببيان تفصيلى عن هذه المستحضرات اللبنية فى كل مراحل صنعها ·

(٨) يقول بل : « انه ينبغى أن نلاحظ ، وهو أمر يشرف نساءهم ، أنهن أمينات ومخلصات جدا ، وانه قل بينهن من كانت داعرة : فالزنى بينهم جريمة قلما سمع عنها الناس » · مج ١ ص ٣١ ·

(٩) يقول البروفسور جربيون ما نصه : « مع أن تعدد الزوجات لم يحرم بينهم حتى الآن ، فان الواحد منهم لا يتخذ فى العادة الا زوجة واحدة » · (انظر دوهالد ج ٤ ص ٣٩) على أن غيره من الكتاب يقولون ان ممارسة التعدد أعم ، بيد أنها قد تكون أوسع انتشاراً فى احدى القبائل منها فى أخرى ·

(١٠) يقول تيفينوه : « وهم لا يقدمون مهرا لزوجاتهم ، ولكن الأزواج يقدمون الهدايا لآبائهن واخوتهن ، وبدونها لا يستطيعون الحصول على زوجات » انظر Relation des Tar-tar-es ج ١ ص ١٩) ·

ويقول روبروكس : أما بصدد الزيجات فلن يستطيع رجل الحصول على زوجة حتى يشتريها » . انظر Purchas مج ٣ ص ٧ .

(١١) يضيف مترجم أبو الغازى : « ليس هناك سوى هذا الفارق بين التتار المسلمين وغيرهم من التتار : وهو أن المسلمين منهم يراعون بعض درجات القرابة ، التى يحرم عليهم فيها التزاوج ، وذلك بينما أن الكلموك والمنغال ، لا يراعون - الا فى حالة أمهاتهم الطبيعيات - أية صلة دم فى زواجهم » . ص ٣٦ هـ . ويقول روبروكس : « ان الابن يتزوج فى بعض الأحيان جميع زوجات أبيه الا أمه وحدها » Purchas مج ٣ ص - ٧ .

● هوامش الفصل الثامن والأربعين

(١) يقول بل : « يبدو أن دين « البوراتي » هو نفسه دين الكلموك، الذى هو وثنية صرفة من أغلظ نوع • أجل انهم يتحدثون عن « كائن » قوى قاهر وصالح ، خلق الأشياء جميعا ويسمونــه « بورشـــين » « Burchun » ، ولكن يبدو أنهم يتخبطون خبالا فى متاهة أفكار غامضــة وخرافية تتعلق بطبيعته وحكمه • ولديهم كاهنان أعظمان ، يقدمون اليهما احتراما عظيما ، ويسمى أحدهما دالاى لاما ويسمى الآخـــر كوتوختى » • انظر Bell's Trav. مج ١ ص ٢٤٨ • « ويؤمن المنغال (المغل) ويعبدون خالقا واحدا كلى القدرة لــكل شيء • وهــم يؤمنون أن الكوتوختو هو نائب الله فى الأرض ، وأنه سيكون هنـــاك حالــة مستقبلة من الثواب والعقــاب » • (ص ٢٨١) « وبلغنى أن دين التونجوت ، هو نفس دين المنغال ، وأنهم يؤمنون ، فيما يتعلق بتقمص الدالاى لاما بنفس الآراء التى يعتنقها المنغال حول الكوتوختو وأنــه ينتخب بنفس الطريقة » • (ص ٢٨٣) • أما الهيئة الكهنوتية ، التى يعد الدالاى لاما أى (اللاما الاعظم) رأسا لها ، فلم تؤسس ، حسبمــا يروى جوبل ، الا فى زمن متأخر جدا هو ١٤٢٦ ، ولكن يبدو أن اللامات العاديين كمجرد كهنة « لشياكيامونى » ، كانوا موجودين منــذ زمـــن بعيد ، وأن الشامانات • فى الأصقاع الشمالية من بلاد التتار ، انما هــم لامــات فى مجتمع أخشن وأغــلظ حــالا • والكوتوختو من الــلاما الأعظم كالكرادلة ، من البابا أو ربما هو أقرب الى الكردينال الذى يعين مندوبا بابويا •

(٢) هذا البد (الوثن) التترى ، الذى يكتب اسمه ناتاجاى فى الطبعات اللاتينية وناتشيجاى فى الخلاصات الايطالية ، هو ايتوجـــا عند بلان ده كربان ، الذى راح يصف الممارسات الخرافية التى يمارسها هؤلاء الناس على النحو التالى : « وهم شديدو التمسك والاكباب على التنبؤات ، وعرافة العرافين ومطير الطيور والسحر والرقى والتعاويذ • وعندما يعطيهم الشيطان جوابا ما ، يعتقدون أن ذلك الجواب آت من الله نفسه ويسمونه ايتوجا » • (انظر Bergeron ص ٣٢) •

(٣) يقول روبروكس : « وعندئذ يخرج خادم الى خارج البيت ، يحمل ملء فنجان من الشراب ، ويرشه ثلاث مرات فى اتجاه الجنوب ، الخ ... وعندما يمسك سيد الدار بفنجان فى يده ليحتسيه ، فانه قبل أن يذوق شيئا منه ، يصب نصيبه على الأرض » . (انظر Purchas مج ٣ ص ٤) .

والكلمات التى وردت فى النص اللاتينى المبكر لمؤلفنا هى :
(Postea accipiunt de brodio et projiciunt super eum per ostium domus suae camerae ubin stat ille deus uurum).

(٤) يقول بل : « وهم مسلحون بالقسى والنشاب (السهام) ، وبالسيوف الضالعة (Sabres) والحراب ، التى يستخدمونها ببراعة كبيرة ، اكتسبوها بدوام الممارسة منذ الطفولة » . مج ١ ص ٣٠ .

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) ستتجلى صحة بيان مؤلفنا عن تشكيل جيوش المغول من مقارنته بالتقرير التفصيلى الموجود فى الترجمة الفرنسية لكتاب أبى الغازى : « تاريخ التتار » « History of the Tartary » .

(٢) التومان هو الاصطلاح الفارسى المألوف لجيش من عشرة آلاف رجل . على أن كلمة توك Tuc ، بمعنى مائة ، ليست واردة فى المعاجم . وربما كانت تحريفا هجائيا لكلمة دوز او سوس أى أيون التى يعبر بها عن ذلك العدد فى لهجات مختلف القبائل التترية ، (والتى منها بالتركية يوزباشى أى قائد مائة (المترجم) .

(٣) ان العادة الاسكيذية أو السرماتية من استخراج الدم من الخيل ليكون قوتا للفرد أو مادة للاستمتاع المترف ، وأيضا عادة الاحتفاظ باللبن ليستخدم فى شكل متماسك (متيبس) كانت ممارسات معروفة لدى القدماء .

(٤) يقول بل : « انهم فى الزحوف الطويلة تتكون جميع مؤنهم من الجبن ، أو بالحرى من الخثار المجفف ، المكور كورا صغيرة ، فيشربونه بعد أن يسحنوه (يصحنوه) ويخلطوه بالماء » . (مج ١ ص ٣٤) ويقول ترنر : « وأهدى الينا قدر موفور من اللبن الطازج الدسم ومن مستحضر يسمى بلغة الهند « دهى » Dhy ، وهو لبن محمض بمخيض اللبن الذى يغلى فيه ويحتفظ به حتى يتخثر قليلا » والكوموز » عند التتار هو لبن الأفراس مجهز بهذه الطريقة نفسها : وهو يجفف أحيانا فى كتل حتى يصبح كالطباشير ، ويستخدم ليضفى نكهة الماء الذى يشربون باذابته فيه . وقد بلغنى أن عملية « تجفيفه » تتم أحيانا بوضع الدهى فى أكياس من القماش محكمة الرباط وتعليقها تحت كروش الخيل » . انظر Embassy to Tibet ص ١٩٥ .

(٥) لعله يعنى بفساد العادات ، الاشارة الى النتائج التى عادت عليهم من فتح الصين ، وهو أمر أورث هؤلاء الأقوام الغلاظ الأشداء استمراء الاستمتاع بالدعة والترف . وبلغ من انهاك قوى المغال قبل

انقضاء قرن واحد · أن طردوا شر طردة الى صحاريهم على اثر عصيان قام به السكان الصينيون ·

(٦) لما كان موقع أوكاها أو أوتشاتشا ، وضع هنا مقابلا لموقع الولايات الشرقية ، فانه يمكننا الظن بأنها هى أوكاك أو أوكاكا التى أوردها أبو الفداء ، على ضساف نهـر اتيل أو الفولجـا ، غير بعيد من سراى ، التى زارها والد مؤلفنا وعمه فى رحلتهما الأولى · ومع هذا فليس المقصود بالاصطلاح النسبى وهو « الشرقية » أن ينطبق عـلى الولايات التى نسميها ، بالنسبة للصين ، بلاد التتار ، بل على الاقليم الواقع شرقى بحر قزوين ·

● هوامش الفصل الخمسين

(١) أطلق البرتغاليون على هذه العقوبة ، المعروفة بأنها شائعة ببلاد الصين ، اسم باستانادو (وهى كلمة مشتقة من لفظة باستانو بمعنى الهراوة أو العصا) ٠

(٢) الذى يحدث بالصين ، حيث يمكن الظن بأن قانون العقوبات التترى كان له سلطان كبير ، أن عقوبتى قطع الرأس وتقطيع الأجسام الى أجزاء كثيرة ، تستخدمان جزاء على جرائم كبيرة معينة ٠

(٣) يقول بل : « ان ماشيتهم ذات القرون ضخمة الجثة جداً ٠ ولأغنامهم ذيول عريضة ، ولحم ضأنهم ممتاز ٠ ولديهم كذلك أعداد موفورة من الأعناز » ٠ مج ١ ص ٢٤٦ ٠

(٤) هذه العادة ، مهما بلغ من خرقها للمألوف ، فانما هى من نفس طبيعة السخافات الخطيرة التى توجد فى النظم الصينية ٠ ويخبرنا البروفسور نافارت ، أنها توجد فى احدى الولايات الشمالية التى تتاخم بلاد المنغال ، حيث يمكننا بطبيعة الحال البحث عن تماثل فى الممارسات ٠ يقول : « لأهالى ولاية شان سى عادة مضحكة هى تزويج الموتى ٠ فقد أبلغنا نبأ تلك العادة ونحن فى السجن ، الراهب الجزويتى ميخائيل تريجوسيوس ، الذى عاش عدة سنوات بتلك الولاية ٠ اذ يتصادف أن يموت ابن لأحد الناس وأبنة لآخر ٠ وبينما النعشان لا يزالان فى البيوت (وهم فى العادة يحتفظون بالنعوش سنتين أو ثلاثة أو اكثر) يتفق الوالدان على تزويجهما ، ويرسلان الهدايا العادية كأنما هما على قيد الحياة مع الكثير من مراسم الاحتفالات والموسيقى ٠ وبعد ذلك يضعان النعشين متجاورين ويقيمان وليمة العرس أمامهما ، وأخيرا يضعانهما جنبا الى جنب فى مقبرة واحدة ٠ ومنذ تلك اللحظة لا يعد الوالدون الأربعة أصدقاء بل أقارب وأصهارا ، شأنهم لو تم الزواج بين أبنائهم وهم أحياء » ٠ (انظر Churchill's Collect. مج ١ ص ٦٩) ٠ ويقــول

مالكولم : « ان هذا يقال ، انه لا يزال يمارس ببلاد التتار · وهم يلقون بالعقد فى النار ويتصورون الدخـان يتصـاعد الى الطفلين الراحلين ، اللذين يتزوجان فى العالم الآخر · ويذكر هذه الحقيقة بتيه ده لاكرواد فى كتابه حياة تشنغيز (Chenghiz) ، كمـا أنى أجدها مذكورة فى مخطوط فارسى كتبه رجل واسع العلم والاطلاع » · (انظر Hist. of Periia مج ١ ص ٤١٣ هـ) ·

● هوامش الفصل الحادى والخمسين

(١) يظهر اسم بارجو فى خريطة بلاد التتار لاسترا هلنبرج ، قرب الجزء الجنوبى الغربى من بحيرة أو بحر بايكال ، كما يرسم بخريطة دانفيل على الجانب الشمالى الشرقى ، ولكن مؤلفنا يطلق الاسم على الاقليم الذى يمتد من هناك ، مسيرة أيام كثيرة فى اتجاه المحيط المتجمد ، ويبدو كأنما يتقابل وما نسميه الآن سيبيريا ٠ ويلاحظ استراهلنبرج هذا الخطأ فى وضع المكان (كما يراه) ويقول : « يوجد اسم بارجو فى الخريطة القديمة لبلاد التتار الكبرى ، ولكنه فى موضع بالغ الخطأ ، وأعنى بذلك أن موضعه منحرف نحو البحر المتجمد » ٠ (هامشة ٨ ص ١٤) ٠ ومع ذلك فربما حدث فى مدى أربعة قرون أن قد حل اسم منهم محل آخر ، وأعتقد أنه لن ينازع أحد أن سيبريا هى الاسم القومى للمنطقة التى أطلق عليها ٠

(٢) قبيلة مكريتى هذه ، التى وردت فى الخلاصات الايطالية تحت اسم مكرييت ، ولكنها فى الطبعة اللاتينية مديتاى (وميكاكى فى اللاتينية المبكرة) ، كثيراً ما تذكر فى التواريخ التترية باسم مركيت ومركات ، وكانت بلادهم من أوائل ما فتح جنكيز خان ، لأنها متاخمة له مباشرة ٠ ولم يذكر موقعها على أية درجة من الدقة ، وان أمكن استنتاج توغلها شمالا من فقرة فى كتاب : « Hist, Gen. des Huns » ، حيث ورد فى سياق الكلام عن هزيمة النايمان وتشتت أمرائهم ما نصه : « لاذ الجميع بأذيال الفرار وانسحبوا صوب نهر ارتش ، حيث وطنوا أنفسهم وألفوا مجموعة قوية تم تماسكها تحت قيادة تكتايغ ، خان المركيت » ٠ (الكتاب ١٥ ص ٢٣) ويقول أبو الغازى : « من كانوا من قبيلة المركات ، أتيح لهم فى زمن زنجيزشان (خان) يسمى طوشتابجى الذى كان دائما فى نزاع مع زنجيزشان » ٠ (Hist. Gen.) ص ١٣٠) ٠ وربما كانت هذه أكثر القبائل بعدا فى الشمال عرف مؤلفنا اسمها ٠ ومع أنه يواصل الآن الحديث (بصورة عامة جدا) عن تلك الأقطار المترامية التى تمتد بين نهرى أوبى ولينا ، فربما أمكن افتراض أنه لم يكن يعرف شيئا عنها الا عن طريق ما يسمعه من الغير ، ولا هو يحاول أن يفهمنا أنه زارها بشخصه ٠

(٣) ذلك هو غزال الرنة المعروف ، وهو نوع ضخم وجميل من الظبى Cervus يعادل ظبى الالكة (EIK) فى الحجم ، ولا يبعد في الشكل عن غزالنا الأحمر ٠

(٤) يتقابل وصف هؤلاء الناس وبلادهم وما نقرأ عن كثير من القبائل المتوحشة التى تضرب في هذه الصحراوات القاحلة التي تنساب فيها الأنهار الشمالية الكبرى ٠

(٥) ينبغى أن يكون مفهوما أن مسافة رحلة الأربعين يوما هذه ، تبدأ من (سهل أو سهب (Steppe) بارجو ٠ وهو يتحدث عنها بتحفظ ، وليس على أنها منطقة زارها بنفسه ٠

(٦) يقول استراهلنبرج : « يوجد بولاية دوريا وقرب نهر آمور او عامور (وهو صفالين أولا عند الجزويت) عدد لا يحصى من البزاة الناصعة البياض كاللبن ، وترسل منها أعداد كبيرة الى بلاد الصين » ص ٣٦١ ٠ ويقول بل : « لم يسعنى الا أن أعجب بملاحة هذه الطيور الجميلة ٠٠ وهى تجلب من سيبريا ، أو من أماكن واقعة شمالى نهر عامور » ٠ (Travels مج ٢ ص ٧٩) وكان بين الهدايا التى بعث بها القيصر ايفان باسيلى وتز ٠ على يد سفيره ، الى الملكة مارى فى ١٥٥٦ (كما ذكرها كليوت) ٠ سنقر (Jerfawcon) ضخم أبيض وجميل ، من أجل صيد البجع والكركى ، والأوز البرى ، وغيرها من الطيور الكبيرة ٠

(٧) لعل الكلمات الايطالية Lastella tramontan التى تترجم هنا باسم : « مجموعة النجوم القطبية » ٠ ينبغى أن تكون ان شئنا الدقة هى « النجم القطبى » ٠ وينبغى أن نفترض أن ما يعنيه هو أن النجوم الواضحة الواقعة فى ذيل الدب الأصغر ، أو ربما ما نسميه فلك الدب الأكبر ، كانت تظهر الى الجنوب من الشخص الواقف على الطرف الأقصى من القارة الشمالية ٠ وأننا لنجد في خريطة فرامورو هذه الكلمات ٠

● هوامش الفصل الثاني والخمسين

(١) المقصود من اسم أرجينول أو أرجينور المحرف ، (كما يمكن حدسه من الظروف) ، هو تلك الناحية من تانجوت التى تسمى كوكونور عند التتار ، وهو هونور أو هو هونول عند الصينيين ، وتعتبر عند البعض هى تانجوت نفسها . وتفصل بحيرتها عن مدينة كامبيون أو كان تشيو مسافة تقارب مائة وأربعين ميلا ، فى اتجاه جنوبى تقريبا ، لا يكاد يمكن قطعها فى خمسة أيام عبر شقة جبلية ، بيد أن موقع مدينتها الرئيسية ربما كان أقرب كثيرا الى ذلك المكان ، وربما كان أيضا يقع الى الشرق من خط زواله على ضفاف نهر أولانمورين . والاسم الوارد فى طبعة بال ايريجيمول ، وفى اللاتينية الأقدم ارجيمول ، وفى الخلاصات الايطالية ارجييول ، ولكن واضح أن واحدة منها ليست أصح من أرجى نول عند راموسيو ، وهى كلمة ، الجزء الأخير منها يبدو أنه كلمة « نور nûr أو nôr التى معناها بحيرة .

(٢) ظن بعضهم أن سنجوى (كما يكتب الاسم فى نصوص راموسيو وطبعة بال والنسخة اللاتينية المبكرة ، ولكنه فى المخطوطات سجن وسجوى وفى الخلاصات سيريجاى) ، ــ هى مدينة سى جنان فو عاصمة ولاية شن سى . على أن الأخيرة تقع قرب الحد الشرقى للولاية ، وفى قلب الصين ، بينما تانجوت هى التى لا يزال مؤلفنا يصفها ، ورغم أن الطرف الغربى من شن سى كان تابعا فيما مضى لسيفان أوتوفان (شعب تانجوت) ، فان هذا لا ينطبق على الجزء الداخلى من الولاية . ولا شك عندى أن المقصود بسنجوى أو سجن ، هو بضد ذلك ، السوق الشهيرة المسماة سى ننج (وهى سيلين عند بالاس) ، على الحافة الغربية لشن سى ، ولا تبعد سوى مسافة رحيل بضعة أيام عن هوجو نور ، فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . وقد كانت سنجوى فى كل الدهور ، ولا تزال حتى يومنا هذا ، محط الرحال العظيم للمسافرين بين التبت وبكين ، ومن يصدق عنها القول بأنها تقع فى الطريق الى كاثاى .

(٣) لم يفت دوهالد أن يلحظ هي أيضا هذه القلاع أو الحصون الكثيرة ، وهو يصف الأجزاء القريبة من شن سي بأنها تتألف من واديين عظيمين ، يتفرعان من نقطة ويتقدمان : واحد منهما في اتجاه شمالي والآخر في اتجاه غربي ، الى اقليم سيفان · ولم تكن هذه الشقة تؤلف جزءاً أصليا من الامبراطورية ، بل كانت اقليما مغزوا ، اقتطع من تانجوت وضم الى شن سي (ويعدها مؤلفنا تابعة لتانجوت في زمانه) ·

(٤) هذا النوع الجميل من الثيران نعته بوجه خاص ترنر في كل من كتابيه : Embassy to Tibet Asiatic Researches مج ٤ ، باسم « ياك بلاد التتار » أو ثور التبت الكث الذيل · وهو يلاحظ : « ترتفع فوق الكتفين عضلة غليظة يغطيها لبد كثيف من الشعر الناعم ، هي على الجملة أطول وأغزر من الممتد على بروز الظهر حتى بداية الذيل · ويتكون الذيل من كمية هائلة من الشعر الطويل المسترسل الصقيل ·· وتكتسى الكتفان والمؤخرة والجزء الأعلى من الجسم بنوع من الصوف الناعم الكثيف ، ولكن الأجزاء الدنيا مكسوة بشعر مستقيم مدلى ، ينزل الى أسفل الركبة ·· ولهذه الثيران أضرب كثيرة من الألوان ، ولكن اللونين الأسود والأبيض أشدها شيوعا » · (انظر Embassy ص ١٨٦) · أما ارتفاعه الذى ضخمه مؤلفنا ، فان ترنر يقول انه يقارب ارتفاع الثور الانجليزى ، ولكن نظراً للكمية الضخمة من الشعر التي تغطى جسمه فانه يبدو « ذا ضخامة بالغة » · وهو يتميز باسم Bos Grunniens .

(٥) (يضيف ترنر : « ان « الياك » مال وثروة ثمينة جدا للقبائل التترية المرتحلة المسماة دوكبا ، وهي تعيش في خيام ، وترعى أسراب الياك من مكان الى مكان ، ثم هي تتيح في الحين نفسه لرغيانها وسيلة انتقال سهلة ، وأغطية جيدة وطعاما صحيا · وهي لا تستخدم قط في الزراعة » · (من الواضح أن هذا ربما لم يكن هو الحال بكل منطقة) ، « ولكنها نافعة بالغ المنفعة كدواب حمل ، وذلك لأنها قوية الأجسام ، ثابتة الأرجل على الأرض ، وتحمل ثقلا عظيما » · (ص ١٨٧) ·

ويبرز موركرافت هذه الصفات بقوة في Journey to Lake Mansarovera بمجلة : Asiat. Res. مج ١٢ ·

(٦) من المعلوم عند الجميع أن مسك بلاد التبت ، أو مسك ذلك الجزء من بلاد التتار المجاور لشمال غرب الصين ، يفوق ما يحصل عليه منه في الولايات الصينية ·

(٧) نحصل من ترنر على بيان دقيق ، وان يكن غير علمى ، لما يسمى عادة باسم غزال المسك ، الذى يقول أنه يسمى بلغة التبت « لا « La » كما يسمون الغشاء الوعائى للمسك « لاتشا « Latcha » • فبعد الحديث عن الماشية الطويلة الشعر يمضى فى المكان التالى كما يفعل مؤلفنا فيقول : « ويكثر غزال المسك أيضا ، وهو ينتج سلعة ثمينة تدر دخلا وفيراً ، كثرة عظيمة فى المنطقة المجاورة لهذه الجبال ، ويلاحظ أن هذا الحيوان يبتهج فى أشد أيام البرد زمهريراً ، كما أنه يوجد على الدوام فى الأماكن التى تجاور المنطقة الثلجية • ويمتد من فكه الأعلى نابان شديدا الطول مقوسان ، ومتجهان الى أسفل ، وكأنى بالمقصود بهما بنوع خاص مساعدة الحيوان على احتفار الجذور النباتية من الأرض التى يقال انها طعامه المعتاد ، ومع هذا فربما كانا سلاحى هجوم لديه •• وتقارب تلك الغزلان فى الارتفاع خنزيرا متوسط الحجم ، وتشابهه كثيرا فى شكل الجسم ، ولكنها مع ذلك اقرب الى الغزال الخنزيرى Hog-deer الهندى الصغير الذى يسمى كذلك ببلاد البنغال تأسيسا على نفس المشابهة • ولها رأس صغيرة ، ومؤخر غليظ ومستدير ، وهى بتراء بلا ذنب ، كما أن لها أطرافا مفرطة النحافة• وأعجب ما يتفرد به هذا الحيوان ، هو نوع الشعر الذى يغطى بدنه ، وهو غزير غزارة هائلة ، وينمو منصبا فوق جسمه كله ، ممتدا ما بين بوصتين الى ثلاث بوصات ، ولا يرقد ويملس الا حين يكون قصيرا ، على الرأس والسيقان والأذنين • والشعر عند نبته أبيض اللون ، وفى الوسط أسود ، وفى أطرافه بنى • والمسك افراز يتكون فى كيس صغير أو ورم ، يشبه الكيس الدهنى ويقع عند السرة ، ولا يظهر الا فى الذكور » • انظر Embassy to Tibet ص ٢٠٠) •• على أن هناك فى كتاب نشر بكلكتا فى ١٧٩٨ ، يسمى « Oriental Miscellany » مج ١ ص ١٢٩) ، وصفا علميا « لمسك التبت » من تأليف الدكتور فلمنج ، مع لوحة مأخوذة عن رسم مضبوط للحيوان ، رسمه المستر هوم • وانظر أيضا صورة مطبوعة للرأس فى كتاب كركبا تريك المسمى Acc. of Nepaul

(٨) كانت الحالات التى استخدم فيها اللحم طعاما ، موضع ملاحظة كثير من الكتاب المصريين • .

(٩) (الوارد فى النص اللاتينى المبكر هو خمسة عشر) ٠

(١٠) الراجح أن هـذا هـو تدرج أرجوس (Phasianus argus) الذى يقال ، رغم أنه يقطن سومطرة ، يوجد أيضـا بالجزء الشمالى من الصين ٠

(١١) تنتشر عبادة اللامات ، وهى وثنية ، بالمنطقة المجـاورة « لسى قنج » ، فضلا عن جميع الأقاليم المتاخمة لولايتى شن سى وسى تشوين فى الغرب ٠

(١٢) ونص النسخة اللاتينية المبكرة هو
« (Non habent barbam nisi in mento »

● هوامش الفصل الثالث والخمسين

(١) لا يوجد أى أثر لأسماء اجريجايا ولا اجايا ولا اجيجايا او اجريجيا ولا أسماء كالاتشا أو كالاكيا أو كولاتيا او كاتيا بأية خريطة يمكن اتخاذها سندا يعتمد عليه • ومع هذا فللاسم الأول بعض المشابهة باسم أوجوريا وايجوريا أو بلاد الايغور ، وكما يشابه الثانى اسم المدينة التى يدعوها روبروكى كايلاك ويسميها ب• جريز كياليس ، التى من المظنون أن موقعها يوجد فى الخريطة الملحقة بأول كتاب تاريخ تيموربك لشريف الدين ، الذى ترجمه بتيه ده لاكرواه ، على مسافة قريبة الى الغرب من تورفان باسم يولدوز كيساليس • يقول روبروكى : « وجدنا هنا مدينة عظيمة ، بها سوق ومخزن عظيم للتجار الذين يختلفون اليها كل هذا الاقليم كان يسمى عادة أورجانم ، كما كان لأناسه لغتهم الخاصة ونوع كتابتهم المعين » •• « ويسمى أول نوع من هؤلاء الوثنيين الجوجور ، وهم الذين تتاخم أرضهم أرض أرجانم سالفة الذكر ، باتجاه شرقى داخل الجبال المذكورة • وكان لأهالى مدينة كايلاك سالفة الذكر أبداد : (معابد أصنام) ثلاثة ، وقد دخلت اثنين منهما لأشهد خرافاتهم الحمقاء » انظر Purchas مج ٣ ص ٢٠ •

(٢) كان استخدام وبر الجمل فى نسج القماش من أى نوع موضع الشك (وذلك لأن من المعروف أن المادة المستخدمة فى صناعة الشيلان هى نوع معين من الغنم) ، بيد أننا نعلم من ألفنستون أن « الأورموك ، وكذا قماش ناعم مصنوع من وبر الجمل ، وكمية من القطن ، وبعض جلود الحملان ، تستورد الى (كاربول) من اقليم بخارى » • ص ٢٩٥ •

● هوامش الفصل الرابع والخمسين

(١) أسلفنا اليك ذكر سهل تندوك (ف ٤٥ ، هـ ٤) ، وأوضحنا أنه كان معترك واقعة شهيرة ، هزم فيها جنكيز خان جيش أنج خان وقضى عليه ومع أن الاسم لم يرد فى خريطة الجزويت ، فان موقعهـا حققته خريطة البروفسور جوبل ، حيث أوردت أن رحى الواقعــة دارت فى المسافة الممتدة بين نهرى تولاوكرتون ، اللذين يقع منبعاهما عند حوالى خط عرض ٤٨° أو ٤٩° • وفى نفس هذه الشقة وعلى الحد الشمالى للصحراء ، حلت الهزيمة بالكالدان أى أمير الأليوت على يد قــوات الامبراطور كانج هى ، فى عام ١٦٩٦ • وانى لأميل بقوة الى الاعتقاد ، بأن اسم تندوك ، الذى خلط بتيه ده لاكرواه بينه وبين تانجوت ، ان هوالا تانجوس ، كما نجد فى الخرائط ، قبائل التانجوس مقيمة بهـذه المنطقة ، وبخاصة بين نهر عامور وبحيرة بايكال • حقا ان اديلنج يلاحظ ان أسماء الحيوانات المستأنسة فى لغتهم هى نفسهـا أسماؤها عنـد المنغال ، التى تلقوها عنهم ، وهو برهان على قدم تجاورهم واختلاطهم•

(٢) انظر التذييل ١ •

(٣) حدث فى عهد أسرة السلاجقة فى فارس ، الذى بدأ فى القرن الحادى عشر ، أن وطن المسلمون أنفسهم بأعداد غفيرة بمدينة قشغر ، ومنها انتشروا رويداً رويداً فى كل أرجاء بلاد التتار بصفتهم المألوفة كتجار • على أنهم ما لبثوا فى أثناء عهود أباطرة الصين المغــول أو المنغال ، أن ظهروا متقلدين وظائف وصلاحيات أعلى ، حيث كثيراً ما قادوا الجيوش ورأسوا المحاكم • وان رينودوت ليبذل كـدا شـديدا لاثبات أن أبكر اتصال بينهم وبين ذلك القطر تم بطريق البحـر ، هو أمر قد يصدق على العرب وان لم ينطبق على مسلمى فارس وخراسان •

(٤) اسم ارجون هذا يبدو أنه هو أورجون عند الجزويت وأرتشـون فى خريطة بل • والنهر المسمى بهذا الاسم يجرى من خلال قسم بــلاد التتار الوارد وصفه هنا ، فاذا التقى به نهر تولا أفرغا ماءيهما المتحدين

فى نهر السلنجا • وأننا لنجـد على الضفة الشـمالية الغـربية لنهـر الأرجوان ما يسمى فى العصر الحديث باسم الأورجا • أى مركز اللاما الأعظم للمنغال • وعلى نفس خط العرض تقريبا ، ولكن الى الشرق أكثر ببضع درجات ، يظهر أيضا نهر آخر أشد ضخامة ، يسمى فى خريطة الجزويت باسم أرجونه ، أو أرجون ، مكونا الحد الفاصـل بين ممتلكات الصين والروسيا فى هذا الصقع ، من العالم ، وتقع على قرب منه مدينة أو بلدة تسمى أرجون سكوى •

● هوامش الفصل الخامس والخمسين

(١) ينبغى لنا الاعتراف بأن هـذه الفقرة ، غير مفهومة كلية على صورتها المذكورة الآن ، وعلينا أن نفترض أن كلمات مؤلفنـا أسيء فهمها وحرفت ، وربما ظن بعض الناس أنه من غير العملى اعـادة صياغتها ، بحيث يصير لها معنى مستقيم · ومن الجلى أن غرضـه هو تبيان الفرق بين الجنسين اللذين يأتلف منهما رعايا أونج خان ، وأعنى بذلك المنغال والترك ، اللذين أصبح يطلق عليهما فيما بعـد على وجـه القصر ، اسم التتار : وهو تمييز أضفى عليه الغموض ، رغم التباين الملحوظ فى اللغات ، نتيجة لخليط القبائل المشمولة بحكم الحكومة نفسها · وذلك أنه ترتب على السمعة الممتازة التى اكتسبها الحكام التابعـون مباشرة لجنكيز خان أو القبائل الأجنبية المساعدة المتنوعـة ادعت الانتساب الى المنغال (المغل) ، بينما من الواضح كذلك أن الصينيين أطلقوا عليهم بغير تمييز اسم تاتا أو التتار · وربما جاز لنا أن نلحظ بصدد اسمى يأجوج ومأجوج ، الواردين فى التوراة ، أن المؤلف يتحدث عنهما هنا على اعتبار أن الأوربيين أطلقوهما خطأ على هذين الشعبين، وليس على أنهما تسميتان معروفتان بهذه البلاد · والمفهوم لدى الغالبية العـامة من العرب والفرس ، الذين ينطقون الاسمين يأجوج ومأجوج ، أنهما ينتسبان الى سكان المنطقة الجبلية الواقعة فى الجانب الشمالى الغربى لبحر قزوين ، أى الى الاسكيذيين القدماء ، الذين أقيم ضـد غاراتهم للسلب والنهب ، منذ عهد سحيق استحكام دربند القوى ، فضلا عن خط الحصون الممتد منه وهى التى تعد من الخوارق · على أن هناك مواقع أخرى لهؤلاء القوم الجوالين ذوى الصفات المرعبة ، نسبها اليهم المؤلفون الشرقيون فى العصور الوسطى ، وفيهم من يجعلهم فى الجزء الشمالى من بلاد التتار ·

(٢) بنيت عدة مدن ضخمة فى ذلك الجزء من بلاد التتار الذى يقع بين نهر كرلون وولاية بيه تشيه لى الصينية ، فى أثنـاء العهـود المتعاقبة لأباطرة المغول فى الصين ، ولكنها دمرت فيما بعد ، عنـد طرد أسرة منج لتلك الأسرة المغولية ، وكان هدف منج هو ـ محو كل أثر لسلطـان سادتهم السابقين ·

(٣) لم نتمكن من العثور فى خريطة الجزويت على اسم سنديسين أو سنديتشين ، الذى ورد فى طبعة بال سنداكوى وفى الخلاصات الايطالية سنداتوى وفى النسخة اللاتينية المبكرة سنداتوس ، ولعله ينبغى أن يكون سندى أو سنداتشيو (والمقطع الأخير من الاسم يدل على كلمة مدينة) ، لكن ربما كان اسما لأحد الأماكن التى دمرتها أسرة منج ، كما هو وارد فى الهامشة السابقة · وكذلك الشأن فى ايديفا أو ايديفو أو ايديكا فانها ضللت أبحاثى ، وان كان ظرف وجود منجم فضة فى جيرتها ربما ساعد على تحديد موقعها · والحق انه على وجه الجملة ، وعلى نحو خاص من وصف المصنوعات التى قيل انها مزدهرة هناك فانى أميل الى الظن بأنه حدث نقل وتحريف للمكان فى هذه الحالة بالذات (وهو وضع سنشهدك فيما بعد على أمثلة منه لا شك فيها) ، وان الفقرة البادئة بالكلمات : « وأنت حين تسافر مسافة سبعة أيام مخترقا هذه الولاية » ، حتى ختام الفصل ، لا تربطها علاقة صحيحة لا بما سبقها مما يتعلق بإقليم المغول ، ولا ما يعقبها ويتعلق بتشانجاذور، ولكن لابد أنه يطلق على اقليم أكثر حضارة ، يقع أقرب الى تخوم الصين ·

● هوامش الفصل السادس والخمسين

(١) من الجلى أن المقصود من سيانجانور أو تشانجانور عند راموسيو ، وكيانيجا فيورم فى طبعة بال ، وكياجامورم فى الطبعة اللاتينية الأقدم وكيانجامور فى مخطوطتى برلين والمتحف البريطانى ، وتشياجنورم فى الخلاصات الايطالية ، هى تساهان نور أو البحيرة البيضاء الواردة بالخرائط ، والمرجح أن جبال تشانجاى عند استراهلنبرج أو هانجاى الين عند الجزويت ، تستمد تسميتها من نفس صفة «البياض»، حقيقة كانت أو تخيلية · واللفظة الدالة على « أبيض » فى المعجم الكالموكتى – المغولى هى زاجان ولها نطق مرقق لتشاجان) · كما أنها فى « معجم المانشيو للانجلز » · « Mancheu dict. of Langles » وردت « تشانجوين » ·

(٢) ان هذا الطير الذى أطلق عليه اسم جرو فى النسخ الايطالية وجروس فى اللاتينية ، سميته الكركى Crane فى الترجمة الانجليزية ولكن يمكن الشك فى ان ما عناه وصف مؤلفنا هنا بالحرى مالك الحزين (ardea Heron) أو اللقلاق Stork (ciconia) · يقول مترجم أبى الغازى أو المعلق عليه : « توجد كمية ضخمة من الطيور ذات جمال ممتاز فى السهول الفسيحة لبلاد التتار الكبرى ، والطائر الذى تكلم عنه هنا يمكن أن يكون نوعا من مالك الحزين ، الذى يوجد ببلاد المغول قرب حدود بلاد الصين ، وهو طائر ناصع البياض كله ، فيما عدا منقاره وجناحيه وذيله وكلها ذات لون أحمر أيضا نوعا من اللقلاق » · انظر : Hist. Gén. des Tartares ص ٢٠٥ · وهذا هو طائر Crus Leucogeranus أو الكركى السيبيرى عند بنانت ·

(٢) ورد بالنسخة اللاتينية المبكرة ما نصه :

(Quarta generatio sunt parvae et habent ad aures pennas nigras. Quinta generatio est quia sust omnes grigiae et maxime, et habent caput nigrum et album »).

(٣) ينتقل الصيد بمقادير ضخمة وفى حالة متجمدة من بلاد التتار الى بكين اثناء الشتاء · انظر Lettres édif. مج ٢٢ ص ١٢٧ اصدارة ١٧٨١ ·

● هوامش الفصل السابع والخمسين

(١) ان شاندو وهى تشانج تو : (شانجتو) الواردة فى خريطة الجزويت ، والتى أوردها البروفسور كوبليه فى تهميشاته على «Observation Chronol» تأليف البروفسور جوبل ، يجرى الحديث عنها بوصفها : مدينة مخربة ، وهى تقع باقليم كارتشن ببلاد التتار . « على خط عرض ٢٢ر٥٤٠ . شمال شرقى بكين (ص ١٩٧) . وفى عام ١٦٩١ تكلم عنها العلامة جربيون على هذا النحو : « كنا على ٤٠ فرسخا فى سهل يسمى سهل كاباى ، على ضفة نهر صغير يسمى شاندو، بنيت على امتداده فيما مضى مدينة شانتو ، وكان جميع أباطرة أسرة يوون يعقدون بها بلاطهم طوال الصيف . ولا تزال بقاياها قائمة يمكننا رؤيتها» .(انظر دوهالد مج ٤ ص ٢٥٨) فان كانت المسافة بين شانجانور وهذا المكان مسيرة ثلاثة أيام فقط ، فان الأولى لا يمكن أن تكون على الجانب الشمالى من الصحراء ، بيد أن الأعداد مغلوطة غلطا شائنا بسبب عدم الدقة فى النقل ، كما أن الكسور العشرية حذفت فى هذه الحالة .

(٢) يقول بل متحدثا عن مقر الصيد للامبراطور : « ان هذه الغابة انما هى والحق يقال مكان بهيج ، وهى مزودة بأضرب بالغة الكثرة من الصيد ، كما أنها عظيمة الاتساع كما يمكن تصور ذلك بسهولة من البيان الذى قدمته حول اليومين اللذين قضيناهما فى الصيد . وهى محوطة بأجمعها بسور مرتفع من الطوب » .انظر Travels مج ٢ ص ٨٤ .

(٣) ان لم يكن هذا الحيوان هو النمر الأبيض Ounce فانه هو فهد الصيد : Felis Jubata وهى أصغر كثيراً فى حجمه من النوع المعروف . وهو يسمى فى الهندوستان بالتشيتا ويستخدمه الأمراء الوطنيون فى صيد بقر الوحش . انظر بيانا عن « طريقة الصيد عند أمراء الهندوستان » . فى Asiatic Miscellany مج ٢ ص ٦٨ ، حيث يسمى هذا الحيوان التشيتار أو البانثار (أى الفهد الصياد) .

(٤) من المعلوم جيدا أن التنين ذا المخالب الخمسة (بدلا من أربعة ، كما تصوره الصور العادية) هو الرمز الامبراطورى ، ويشكل جزءا ظاهرا فى كل قطة من الملابس أو قطعة أثاث أو زخرفة تتصل ببلاط الصين بسبب ٠

(٥) طريقة التسقيف الموصوفة هنا معروفة تماما بالجزر الشرقية، وورد ذكرها فى الفقرة التالية المقتبسة من Hist. of Sumatra : « هناك نوع آخر من المنازل ، يشاد فى الأغلب الأعم لغرض مؤقت ، وسقفه مسطح وهو مسقف بطريقة جد غريبة وبسيطة وبارعة ٠ فان الخيزرانات الضخمة المستقيمة تقطع فى أطوال تكفى للامتداد عبر البيت ، حتى اذا تم شقها بالضبط الى اثنين وأزيلت منها العقد رصت منها طبقة أولى فى نظام وثيق مع جعل الجوانب الباطنية أو المجوفة الى أعلى ، وبعد ذلك توضع طبقة ثانية من الخيزران مع جعل الجانب الخارجى أو المحدب الى أعلى فوق الأخريات بحيث تقع كل محدبة داخل القطعتين المقعرتين المتجاورتين مغطية بذلك حافتيهما ، حيث تعمل الأخيرة أى المقعرة كبرابخ أى ميازيب الماء الذى يقع على الطبقة الفوقانية أو المحدبة » ٠ ص ٥٨ الطبعة الثالثة ٠

* الطنب : الحبل الذى تشد به الخيمة (المترجم) ٠

(٦) احتفظ من بعده من الأباطرة بأفراس وفحول للاستيلاء على نفس هذا المعيار الضخم ٠ ولا يبدو أن اللون الأبيض الآن على نفس أهميته التى كانت له عند أباطرة التتار المغوليين ٠

(٧) تختلف طريقة كتابة اسم هذه الأسرة ما بين بوريات وهورياتش وهورياث وأوراتى وأورارى ٠ ولا شك أنها الأسرة التترية الرفيعة الشأن التى تحدث عنها مالكولم فى Hist. of Persia حيث يقول : « فى الأصل جاءت قبيلة بيات Byât القوية من بلاد التتار مع جنكيز خان ٠ وطال مكثهم بآسيا الصغرى ، وحارب عدد منهم فى جيش بايزيد ضد تيمورلنك » ٠ مج ٢ ص ٢١٨ ٠ هـ ٠

(٨) ان لجوء أمراء أسرة جنكيز خان على الجملة الى فنون السحر ، لشىء يتجلى من بيانات تاريخية أخرى ٠

(٩) يبدو أن هؤلاء كانوا من الهنود أتباع اليوجا أو الجوسان الذين من المعلوم أنهم يسافرون الى التبت عن طريق كشمير ، ومنها كثيرا ما يختلفون الى الأصقاع الشمالية من بلاد التتار ٠ وكان مظهرهم

العارى والقذر موضع الوصف فى كل العصور ، وكذلك شأن كفاراتهم غير العادية وما ينزلونه بأنفسهم من عذاب ٠

(١٠) ان الاتفاق بين البيان الوارد هنا عن هذه العادة الهمجية المتبربرة وبين ما يعرف عن شعب باطا Batta فى سومطرة ، الذى يلتهم أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالاعدام لعجيب لافت للأنظار ، بحيث لا يكاد يداخلنا شك فى أن نقلا وتحريفا حدث فى ترتيب مذكرات مؤلفنا ، ترتب عليه أن ملحوظة حول أخلاق شعب باطا ، الذين اقام بين ظهرانيهم عدة أشهر ، نزعت من مكانها الصحيح ، وأدخلت فى هذا الفصل ، الذى يدور حول متوحشين ذوى أوصاف مخالفة ، لم ينسب اليهم أكل لحوم البشر أى رحالة منذ زمانه ٠

(١١) وأنا لنجد فى الآيين الأكبرى لأبى الفضل ، تأكيدا لما قيل هنا أنه معنى مصطلح باكس أو باكشى أو بوكشى حسب النطق البنغالى للكلمة الفارسية ، وهى كلمة لم تزودنا بها المعاجم ٠ فهو يقول تحت عنوان « مذهب البوذ » : « يطلق علماء الفرس والعرب على كهنة هذه الديانة اسم بوكشى ، كما أنهم يسمون باسم اللاما ببلاد التبت » ٠ (مج ٣ ص ١٥٧) ٠ ويلاحظ كلابروت فى كتابه (Abhandlung über die Surache und Schrift der Virguren) أن لفظة باكشى من أصل مغولى وأنها هى الاسم الذى يطلق على حكماء (Gelehrten) البلاد الذين يسميهم الصينيون ستشو (شو) ٠ ص ٣٧٧ هـ ٠

(١٢) ما يبدو أن ما ينسب هنا الى الشعوذة لم يكن الا حيلة بانتوميمية (ايمائية) ، ولا يمكن تنفيذها بوسيلة خارقة ٠ وفى تصورنا أنه ربما كان الامبراطور ولعل معه أيضا بعض ذوى الثقة من خدامه ممن كان لهم شرف الجلوس قرب مائدته المرتفعة ، على بينة من الأجهزة والآلات المستخدمة ، ولكن ربما خدع الضيوف بوجه عام ، بل حتى رجال البلاط او الموظفون (الماندارين) من ذوى المرتبة الدنيا ، وهم الذين كان مؤلفنا بينهم فيما يرجح ، وتحول المسافة البعيدة بينهم وبين تبين الأسلاك التى كانت تحرك الأوانى ، حركة يخيل اليهم أنها تلقائية ، من أحد جوانب قاعة الوليمة الى آخر ٠ وخير مثال يوضح الخيال العجيب لدى هؤلاء الأمراء التتر من أجل جعل شرابهم (وهو أمر يعد دائما فى الدرجة الأولى من الأهمية) يقدم اليهم بصورة حب فيها اثارة العجب ، ما ورد فى أسفار روبروكس ، الذى يصف جهازا آليا عجيبا أنشأه فنان فرنسى لكى يحمل الى القاعة أضربا منوعة من المشروبات كانت تنبعث من أفواه أسود من الفضة ٠

(١٣) يقول تيرنر : يبدو أن نوعا خاصا من الأغنام يقطن هـذا المناخ ويمتاز دائما تقريبا بالرؤوس والأرجل السوداء . وهى صغيرة الحجم ، وصوفها ناعم ، كما أن لحمها يكاد يكون الغذاء الحيوانى الوحيد الذى يؤكل ببلاد التبت وفى رأيى أنه أجود أنواع الضـأن فى العالم . (ص ٣٠٢) . ويلاحظ هاملتون وجود نوع مماثل بسواحل بلاد اليمن يقول ان أغنامهم ناصعة البياض مع رءوس فاحمة السواد وآذان صغيرة ، وأجسام كبيرة ـ كما أن لحمها شهى . (مج ١ ص ٥) .

(١٤) سبق الحديث عن الأديرة المتسعة بولاية تانجوت . وهناك وصف خاص لها ورد فى Alphabetum Tibetanum وتعداد فى Miémoires concernant les Chinois مج ١٤ ص ٢١٩ ، تحت عنوان « ميـاو Miao أو المعـابد الموجـودة داخـل اقليم سى فان » مبتـدأ بمعبد بوتالا قرب مدينة لاسا . وكان هنـاك أيضـا كثير من المعابد بالأجزاء الشمالية أكثر ببلاد التتار ، ولكن هـذه خرب معظمها أثنـاء الحروب التى نشبت عند ابادة الأسرة المنغالية فى الصين ، ليس فقـط بين الأسرة المالكة الجديدة وأنصار أسلافها ، بل أيضا بين القبائـل المستقلة نفسها ، والتى تسمى بالايلوت والكلكا . أما فيما يتعلق بعدد الأشخاص الذين تضمهم هذه المؤسسات الديرية ، فانه يتوافق تماما والبيانات التى قدمها الينا الرحالة العصريون . ويحدثنا ترنر أنه كان هناك ألفان وخمسمائة جيلونج (أى راهب) فى أحد الأديرة التى زارها .

(١٥) تتحدث جميع ما لدينا من بيانات عن هؤلاء القوم عـن الاهتمام بوحدة زى الملابس بين الأشخاص المكرسين للقيام بأعبـاء الخدمات الدينية والحياة الديرية ، وفقا لطبقاتهم ومراتبهم المتعددة ، فضلا عن العناية باللونين (الأصفر والأحمر) اللذين ترتديهما الطائفتان الكبريان اللتان ينقسم اليهما اللامات . وتذكر مصادر ثقة مختلفـة حلق رأس شعر المترهبين أيضا . يقول الآيين الأكبرى : « ان كهان هذا الدين ، يحلقون رءوسهم ، ويرتدون أثوابا من الجلد (وهى كما هـو واضح غلطة فى لفظة الأصفر) والقماش الأحمر » . (مج ٣ ص ١٥٨) . ويلاحظ روبروكى ، وهو يصف بدوره تتار قره قورم : « ان جميـع كهانهم يحلقون رءوسهم ولحاهم تماما ، كما أنهم يرتدون أثوابا بلون الزعفران » انظر Purchas مج ٣ ص ٢١ .

(١٦) مع أنه يبدو أن كهان بوذا أو شكياموني أو فو تفرض عليهم العزوبة عادة ، فانها ليست شيئا عاما . يقول البروفسور ماجالهانز : « ان هذا الماندرين قال لى ، بعد أن تحرى المعلومات بعناية ، انه يوجـد

بمدينة بكين وحدها والبلاط ١٠٦٦٨ راهبا غير متزوج ، وهم الذين نسميهم هوكسام (هوشانج) ، و ٥٠٢٢ متزوجا ٠ » انظر : (Nouy. Relat. de la Chine) ص ٥٧ ٠

(١٧) يبدو أن المقصود من كلمة سنسيم أو سنسين هو المقطعان القرديان الصينيان سنج سن ، ومعنى المقطع الأول منهما (حسبما قال ده جنى) الرهبان البوذيون أو كهان « فى » ٠ ونحن نقرأ فى قاموس موريسون تحت مادة سانج ٠ « كهان طائفة فوه الذين يسمون بالمثل شا ـ من : ويسمون أيضا شانج ـ جن ٠ وهناك أسماء عديدة أخرى تطلق عليهم ، وأكثرها شيوعا هو هوشانج » ٠ وبناء على ما لدينا من بيان عن غذائهم ، يجوز لنا أن نستنتج أنهم من متبتلى الهنود ، وربما كانوا سانيازيين ، وهم قوم يمكن أن يعدوا من المنشقين دين شعب تنتشر فيه عقيدة بوذا ٠

(١٨) ان حالة الأردية القاتمة اللون (وهى الأسود والسكابى « nere e biave » التى تلبسها هذه الطائفة ، تبدو أنها ذكرت بقصد تمييزهم من الهوشانج واللامات ، الذين يلبسون اللون الأصفر أو الأحمر دواما ، حسب الطائفة التى ينتمون اليها ، وتزيد من احتمال أنهم لم يكونوا بوذيين ٠

(١٩) ان التقشفات الصارمة ، التى يعرض لهما اليوجيون والسنيازيون ، والجوزايتيون الهنود أنفسهم ، وغير هذه من طوائف الزهاد ، سلفت الاشارة اليهما قبلا ٠ وكثيرا ما تقودهم حجاتهم الى حدود الصين والى ولايات التتار النائية ٠

التعــريف بالمترجم

ولد بالقاهرة وتخرج فى كلية المعلمين العليا الأدبية ١٩٢٩ ٠

اشتغل بالتدريس حتى رقى وكيلا لمدرسة مصر الجديدة الثانوية ١٩٥١ ٠

فمديراً للمركز الرئيسى للتدريب بمنشية البكرى ١٩٦٣ ٠

شغف بآداب العربية والانجليزية والفرنسية منذ حداثته ، انضـم لعضوية لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ ٠

حاز جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة ١٩٨١ ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى ٠

بعض أعماله :

عنى بنقل أمهات الكتب الانجليزية وبعض الفرنسية ٠

١ ــ فى التاريخ :

معالم تاريخ الانسانية لويلز (١) فى أربعة أجزاء ،

وصنوه « موجز تاريخ العالم » ــ « ويلز » ٠

٢ ــ فى تاريخ الحضارات :

حضارة الاسلام (٢) (جرونى باوم) ، الحضارة البيزنطيـــة (رنسيمان) ، الحضارة الهلينستية (تارن) ، ميلاد العصور الوسطى (موص Moss) ، اضمحلال العصور الوسطى (هويزنجا) ٠

الطفل من الخامسة الي العاشرة (أرنولد جزل) (٣) ٠

رحلات ماركو بولو (٤) وغيرها ٠٠٠٠٠٠٠ وغيرها ٠

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) : أصدرت هيئة الكتاب طبعة جديدة من هذه الكتب الأربعة ٠

اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى . رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت . و . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوربس
الارض الغامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليزية	والتر الن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د . قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د. محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س . بى . كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د. عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول وادنبيت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجـو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيـــزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسـيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عنـد تولسـتوى	ف · ع · أدنيكوف
ادب الأطفـــال	هادى نعمـان الهيتى
احمـد حسـن الزيات	د · نعمة رحيم العزاوى
اعـلام العـرب فى الكيميـاء	د · فاضل احمـد الطائى
فـكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيـــم	هنرى باربوس
صـنع القـرار السـياسى	السـيد عليـوة
التطور الحضارى للانسـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د · روجـر ستروجان
تربيـة الدواجـن	كـاتى ثيـر
الموتى وعالمهم فى مصر القـديمة	ا · سـبنسر
النحـــل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جـوزيف داهمـــوس
سياسة الولايات المتحـدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السـنة	د · جـــون شـــندلر
الصـــــحافة	بييـــر البيـــر
اثر الكـوميديا الالهيـة لدانتى فى الفـن التشـــكيلى	الدكتــور غبريال وهبــه
الأدب الروسى قبـل الثـورة البلشـفية وبعـــدها	د · رمسيس عـوض
حركة عـدم الانحيـاز فى عـالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العـربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شـوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين احمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج · دادلى اندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د· جوهان دروشنر
حـــرب الفضـــاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـــة	د · الســـيد عليـوة
الميكروكمبيـــوتر	د · مصطفى عنـــانى
مختارات من الادب اليابانى	صـــبرى الفضـــل
الفكر الأوربى الحديث ٢ جـ	فرانكلين ل · باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييـــل بايـــر
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطـونى دى كرسبنى
كتـابة الســيناريو للسينما	دوايت ســـوين
الزمن وقيـــاسه	زافيلســكى ف · س
اجهـزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضـــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر ردای
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جـــوزيف داهموس
التجـــربة اليـــونانية	س · م بـــورا
مراكز الصناعة فى مصر الاســلامية	د· عاصم محمد رزق
العــلم والطــلاب والمـدارس	رونالد د · سمبســون ونورمان د· اندرسون
الشـــارع المصرى والفــكر	د· أنور عبـــد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	ولت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فريد · س · هيس
العــادات والتقاليد المصرية	جون بوركهـــارت
التـــذوق الســينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط الســـياحى	سامى عبد المعطى
البـــذور الكونيـــة	فريد هـــويل شاندرا يكراماسينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيـــرويين والايـــدز	روى روبرتســـون
صـــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس

العنوان	المؤلف
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د. محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر. بورر وملتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح فى الفن التشكيلى المعاصر	د. صبالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م.هـ. كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د. السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (ج)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب. كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر. ج. فوريس
التوافق النفسى	توماس ا . هاريس
الدليل البيبليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ ج)	أبو القاسم الفردوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربيــة	اعداد / مونى براج وآخرون
دليل تنظيم المتــاحف	آدامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخــرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليــات فن الاخراج	زيجمونت هبنر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
العثمانيون فى أوربا	بــول كولنــر
صناع الخلود	موريس بير برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (جزآن)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتــر نيكوللز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الأزهر فى الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامه	ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيــة	نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جاك كرايس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شـــيلر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار / صبرى الفضل

كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ جـ)	أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتــو تود
حديث النهر	اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتــار	د. أبرار كريم الله
ماستريخت	اعداد / جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية ٤ جـ	هـ.ج. ولز
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
الطفــل ٢ جـ	أرنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
الســحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الكون • ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج. برجين
تبســيط المفاهيم الهندسية	جى كارفيــــل
تحول السلطة	الفين توفلر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤٤٤ / ١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4559 — 9

في عام ١٢٧١ خرج ماركوبولو، وكان آنذاك في السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه في رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية في ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتي أرض الصين في عصر الأمبراطور المغولي العظيم قبلاي خان الذي احتفي بهم وضمهم إلي حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة...

وقد دون ماركوبولو اخبار رحلته هذه في ذلك الكتاب الذي يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل في نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التي إندثرت اليوم ولم تبق منها سوي تلك الصور التي التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو علي طرافته مرجع علمي عظيم عن تاريخ آسيا والصين في العصور الوسطي..

وقد ترجم هذا الكتاب إلي العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة في إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفي الجزء الأول من الرحلة نتنقل مع رحالتنا عبر أراضي فارس وأرمينيا وتركستان و ممالك التتار...

مطابع الهيئة المصرية العامة ل...